شيترا ديفا كاروني

أغرب حكاية في حياتك

رواية



ترجمة : راغدة خوري

أغرب حكاية في حياتك

▫ شيترا ديفاكاروني
▫ أغرب حكاية في حياتك
▫ ترجمة: راغدة خوري

▫ الطبعة الأولى 2014
▫ الإخراج الضوئي: هالا خليل
▫ الناشــــر: دال للنشــــر والتوزيـــــع
ســورية ـ دمشق ـ ص.ب: 29170
هـاتـف: 00963 944 464830
البريد الإلكتروني: n_hammdan@yahoo.com

شيترا ديفاكاروني

أغرب حكاية في حياتك

روايــة

ترجمة: راغدة خوري



العنوان الأصلي للكتاب

L'Histoire la plus ineroy a ble de votre vie

Chitra Divakaruni

1



عندما رجّ الاهتزاز الأول غرفة انتظار منح التأشيرات، في الطابق الأرضي للقنصلية الهندية، لم يؤتِ أي شخص بـأي ردة فعل. عزت الغالبية العظمى من الأشخاص الذين كانوا متواجـدين، والذين كان يطغى عليهم الأسف، الأمل، أو الإثارة (كما هـي حـال كل هؤلاء الذين يجهزون أنفسهم لرحلة عظيمة) سبب هذا الاهتـزاز إلى قطـار الأنفـاق الجـوي. فكـر آخـرون، لا بـد وأن يكـون الفريـق العامل قد شغّل آلات الثقب فوق الرصيف الخارجي المحاط من كل الجهات بعصائب برتقالية من الضوء الفلوري، لدرجـة أن دخـول المبنى كان يشكل مأثرة فيزيائيـة حقيقيـة. نظـرت إيمـا حينهـا إلى قشرة من الجـبس تسقط بـبطء مـن السـقف بحركـة كسولة حتـى استقرت فوق مجموعة خضراء شبه حقيقية لنبتة موجـودة في زاويـة الغرفة. كانت تنظر إليها، لكن في الواقـع لم تكـن تراهـا لانشـغالها الشديد في السؤال الذي لم يـبرح يراودهـا منـذ عـدة أسـابيع: هـل صديقها العزيز رامون (الذي لا يعرف أيـن هـي في هـذه اللحظـات)

يحبها أكثر مما هي تحبه، وإذا (كانت شكوكها مبنية على أساس معين) هل يعني هذا أنه أمر حسن؟

بحركة مباغتة، أغلقت إيما النسخة[1] التي جلبتها معها من كتاب تشوسر للتعويض عن حصة درس الأدب المتعلق بالقرون الوسطى التي كانت قد فاتتها. في هذه الساعات الأخيرة لم تكن قد تقدمت في قراءة «برجوازية بات»[2]. كانت المرأة البرجوازية السعيدة ذات الفخذين الناعمين من إحدى الشخصيات المفضلة لديها. عادت من جديد إلى الواقع: إلى غرفة الانتظار في مقر القنصلية المسؤول عن منح التأشيرات، مع الغادين والقادمين، وإلى الأصوات المنادية بأسماء الأشخاص الأوفر حظاً منها للذهاب إلى الكوة. لا، لم يكن هذا فعلا المكان المناسب للدراسة. فاستسلمت إيما على مضض ـ برأيها، على الكائن البشري أن يتغلب على التحديات التي تفرضها الطوارئ ـ وأمعنت النظر في المرأة الموجودة وراء مسماع الكوة. كانت الموظفة ترتدي سارياً بلون أزرق مضيء، تجمع شعرها في كعكة صغيرة، مشدودة عالياً فوق رقبتها، ونقطة حمراء كبيرة تعتلي بزهوّ وسط جبهتها. كانت تتجاهل باعتزاز وجود إيما، كما يفعل في العادة الناس أمام الأشخاص الذين يتحكمون في مصائرهم المثيرة للشفقة.

لم يكن لدى إيما أي ثقة في تلك المرأة.عندما وصلت في هذا الصباح، مقتنعة بأن لديها موعداً في التاسعة تماماً مع الموظفة

---

[1] جيوفري تشوسر: شاعر انكليزي من القرن الرابع عشر.

[2] حكاية عن أرملة لخمسة رجال، تكتب لتحدثنا عن حكاية كل رجل من رجالها الخمسة.

المسؤولة عن منح التأشيرة، وجدت عدة أشخاص في غرفة الانتظار، وكلهم كانوا على قناعة بأن لديهم موعداً في الساعة عينها. ولحظة سألت المرأة التي وراء الكوة، اكتفت تلك الأخيرة بهزّ كتفيها، وبالإشارة بأصبعها إلى كومة من الملفات حيث يتوجب على إيما أن تضع طلب الفيزا خاصتها. وقالت لإيما بازدراء: سوف يُنادى على الأسماء بحسب ترتيب الوصول لمقابلة الشخص المسؤول عن التأشيرة.

ثم أشارت بذقنها إلى المكتب المجاور لغرفة الانتظار. فوق الزجاج المعتم للباب، كان بالإمكان قراءة: (م. ف. ك. س. مانغالام)، موسومة بالخط العريض. عندما مدّت إيما رقبتها استطاعت أن تلاحظ أن المكتب يُفتح أيضاً، بواسطة باب آخر من الخشب البسيط، على منطقة مخصصة للموظفين: الكوة، ووراء الكوة تماماً مكاتب، وأمامها امرأتان تسحبان ملفات لها شكل الأوراق الرسمية، كي تضعا بدلاً منها كومة أخرى، وأحياناً لتضعا فوقها الطوابع. زمّت الشابة التي وراء الكوة شفتيها ـ ربما وجدت أن إيما شديدة الفضول ـ وأشارت إليها ببرود أن تجلس طالما أنه لم يزل هناك مقاعد فارغة.

جلست إيما. لم يكن أمامها خيار آخر. لكنها كانت مصرة على ألا يفارق نظرها الشابة التي وراء الكوة، التي كان يبدو أن باستطاعتها خلط طلبات التأشيرات عندما لم يكن أحد ينظر إليها، فقط كي توارب ضجرها العميق.

الساعة الآن الثالثة بعد الظهر. قبل عدة دقائق من الآن غادرت النسوة اللواتي كن يعملن خلف الكوة في فترة استراحة. كن قد اقترحن على الشابة ذات الساري الأزرق بأن ترافقهن، لكن تلك

الأخيرة كانت قد رفضت قائلة أنها سوف تأخذ استراحة فيما بعد، فابتعدن مختفيات ضمن سحابة من الوشوشات والضحكات التي تجاهلتها زميلتهن تماماً. بقي في غرفة الانتظار أربع مجموعات من الأشخاص: فيما عدا إيما، في أقصى الزاوية، كان هناك امرأة آسيوية بلباس تقليدي تجلس قرب مراهقة كثيرة الحركة، مقطبة الحاجبين، في عمر يناهز الثالثة أو الرابعة عشرة، مؤكد أنها من يُفترض أن تكون في المدرسة الآن. كان شعرها مسرحاً للأعلى، تضع أحمر شفاه داكناً، وترتدي لباساً من اللون نفسه. تساءلت إيما أتراهم يسمحون للتلاميذ بالذهاب إلى المدرسة وهم يرتدون لباساً مماثلاً؟ شعرت فجأة أنها دقة قديمة. من وقت لآخر كانت الجدة وحفيدتها تتشاجران بهمس عصبي لدرجة أن إيما رغبت بشدة في فهم ما تقولان. كانت فضولية حيال أسرار الآخرين منذ نعومة أظفارها. عندما كانت تأخذ الطيارة، كانت تختار دوماً المقعد الذي قرب النافذة الصغيرة، كي تتمكن، أثناء الإقلاع والهبوط، من أن تراقب المنازل الصغيرة جداً في الأسفل وتتخيل حياة قاطنيها. وها هي الآن تتخيل الحوار الذي لم تفهمه بين الجدة والحفيدة:

– فاتني امتحان مهم اليوم بسبب تأشيرتك السخيفة. إذا ما رسبت هذا العام بمادة الجبر فسيكون هذا خطأك، كل هذا بسبب خشيتك من أخذ الحافلة وحدك للمجيء إلى هنا.

– قد يكون أيضاً بسبب عدم استيقاظك في الساعة المحددة، لسِت مرات في الشهر، كي تذهبي إلى المدرسة أيتها الآنسة؟ ووالداك البائسان اللذان ينهكان في العمل فقط لأجلك وهما يعتقدان أنك تعملين

بجهد أنت أيضاً! ربما يتوجب علي إخبارهما عن الطريقة التي تقضين فيها وقتك في المنزل بينما هما يقتلان نفسيهما في العمل...

بالقرب منهما جلس زوجان يبدو عليهما أنهما أكبر من والدي إيما بعشر سنوات، يظهر من طريقة لباسهما أنهما ينتميان إلى طبقة اجتماعية رفيعة المستوى: كان الرجل يرتدي سترة من الصوف الغامق، وحذاء إيطالي الصنع، بينما كانت السيدة ترتدي كنزة من الكشمير، وتنورة ذات ثنيات، بلون أزرق بحري تصل حتى كاحلها. كان الرجل يقلب جريدة «*وول ستريت*» بينما كانت هي تحيك شيئاً ما كستنائي اللون وغير واضح المعالم. كان الرجل قد خرج من الغرفة لمرتين متتاليتين ـ لا بد من أجل التدخين ـ فكرت إيما. عندما كانت ترفع نظرها من وقت إلى آخر عن كتابها كي تلقي نظرة حولها، كانت تراه يحدق باستمرار في زوجته. كانت عاجزة عن فك تعابير وجهه. هل كان هذا قلقاً؟ أم ضيقاً؟ اعتقدت أنها قد قرأت ملامح الخوف. أو ربما هو الأمل في مواجهة الخوف. المرة الوحيدة التي سمعتهما يتحادثان فيما بينهما، كانت عندما سألها ماذا تريد أن يشتري لها من المطعم الذي عند الزاوية.

لست جائعة. أجابت بلهجة كمن يقول «دعني وشأني».

– يجب عليك أن تأكلي، يجب أن تكتسبي بعض القوة لأجل الرحلة الطوبة التي نحن بصدد القيام بها.

حاكت دوراً آخر قبل أن تجيب:

– فلتجلب ما تريد إذن.

بعد مغادرته، وضعت ما تحيكه وثبتت بقوة يديها فوق فخذيها.

على يسار إيما جلس شاب يبدو أنه في الخامسة والعشرين،

يظهر من هيئته أنه هندي، لكن لون بشرته كان فاتحاً كما هو الحال في المناطق الجبلية. يضع نظارة سوداء، ذو هيئة فظة، بهذا النوع من اللحية، التي، خلال السنوات الأخيرة، كان يُسحب بسببها من رتل المسافرين في المطار كي يُفتش عن قرب. من الجهة الأخرى، كان هناك شاب أمريكي من أصول أفريقية، طويل وضامر يجلس فوق كنبة. يبدو في الخمسين من عمره ـ لكن إيما لم تكن واثقة من ذلك تماماً ـ بشعره الحليق، وعظمة وجنتيه البارزتين، ومظهر وجهه المتقشف، كل ذلك كان يعطيه هيئة أقل من سنه، بالرغم من أن هذا التأثير قد خفّ قليلاً بسبب الماسة التي كانت تلمع في إحدى أذنيه. عندما بدأت معدة إيما تقرقر بصوت محرج بعد عدة ساعات من ذلك الوقت (بما أنها كانت مقتنعة أن موعدها في الساعة التاسعة، فإنها لم تحمل معها أي غذاء باستثناء قطعة صغيرة من الخبز، وتفاحة) بدأ ذاك الشاب يبحث في حقيبة ظهره، وعرض عليها بطريقة رسمية جداً قالباً من الحبوب.

لم يكن هذا شيئاً نادراً في هذه المدينة، أن تجد أناساً من أصول مختلفة مجتمعين في مكان كهذا. مع ذلك، فقد انتاب إيما شعور أنها تحضر قمة مصغرة لهيئة الأمم المتحدة. ما الذي كان يخطط له كل هؤلاء الأشخاص في الذهاب إلى الهند؟

إيما كانت ذاهبة إلى الهند لأن والديها كان قد أصابهما الجنون. كانا قد جاءا ليسكنا في الولايات المتحدة منذ عشرين عاماً خلت، حين كانا شابين خريجي جامعة. لم تكن إيما في ذاك الوقت إلا طفلة. كان والداها يعشقان عملهما فيغوصان فيه بمتعة خلال

الأسبوع كلـه، ويحـتفلان بعطلـة نهايـة الأسـبوع بالحمـاس عينـه. يغتنمان الفرصة كي يجتمعا (بين شوط من كرة القـدم، واجتماعـات الكشافة، ودروس «بهاراتا ناتيام»[3] لإيما) مع عائلات هندية أخرى تسكن في الجوار ليبتكروا وجبات معقدة وغريبة (سمك مع الخـردل والقرع المر المقلي لأجل الآباء، وسباغيتي مع كرات اللحم، وفطـيرة مـن التفـاح لأجـل الأولاد) ويشـجبوا فسـاد السياسـة الهنديـة. في السنين الأخيرة كانا يتحدثان عن الانتقال إلى سـانت دييغـو لقضـاء سن التقاعد هناك على شاطئ المحيط (الطقس سيكون رائعاً ومناسباً جداً لعظامنا المسّنة) ثم، وفي تغيير كلّيٍ للموقف الـذي وجدتـه إيمـا الأكثر تهوراً، أخذت والـدتها تقاعـداً بـاكراً، واسـتقال والـدها مـن منصبه الحكومي كمسؤول في إحـدى مؤسسـات الأنبـاء كـي يقبـل بوظيفة مستشار في الهند، وقررا هما الاثنين، ـ دون أي تـردد ـ أن يعرضا منزلهما للإيجار (المنزل الذي ترعرعت إيما فيه) وغادرا كـي يستقرا في كالكوتا، بلدهما الأم.

– لكن خلال كل تلك الأعـوام لم تتوقفـا عـن القـول أن كالكوتـا مدينـة مقيتـة! قالـت إيمـا مذهولـة عنـدما نـادى والـداها عليهـا للإفصاح عن قرارهما.

إلى جانب قلقهـا عليهمـا وعلـى رفاهيتهمـا كانـت إيمـا مغتاظـة كونهما لم يستشيراها في الموضوع.

قالـت لهمـا: زيـادة علـى الحـرارة، والقـذارة، والضـجيج، والحـافلات المزدحمة، والمتسولين، والفسـاد، والإسـهال، والنفـاق،

---

[3] نوع من الرقص الكلاسيكي الهندي.

والشوارع الملأى بالنفايات التي لم تكن تُجمع قط. كيف بإمكانكما تحمل كل ذلك؟

أمام هذا الكلام جاء جواب والدتها بلهجة جذلة جداً كي تكون صادقة:

– لكن يا عزيزتي كل هذا قد تغير. فالهند اليوم مغايرة عما كانت عليه سابقاً، الهند اليوم تلمع!

ربما كان هذا الأمر صحيحاً، بما أن حياة والديها الجديدة قد سارت دون أي جهد يُذكر في شقتهما الحديثة المكيفة والمحاطة بحشد من الخدم الذين يقومون بكل الأعمال الممكنة التي لا تخطر على البال. (لم أغسل أي طبق منذ وصولي إلى هنا! قالت لها والدتها في الهاتف) كما كان هناك سائق يقود والدها إلى عمله كل صباح. (لا أعمل إلا من الساعة العاشرة صباحاً حتى الرابعة عصراً، أضاف قائلاً بفخر عند اتصاله الثاني من الشقة الجديدة). كان السائق يعود في هذا الوقت كي يأخذ والدتها للتسوق، أو لزيارة صديقات الطفولة، أو لتدريم أظافرها أو (تسرع لتضيف قبل أن تتهمها إيما بالتفاهة الكلية) لتعمل كمتطوعة في جمعية تعتني بتربية الأطفال في الأحياء الفقيرة. في المساء، كانا يشاهدان حفلاً موسيقياً لـ «رابيندرا سانجيت»[4] أو أفلاماً على شاشة عملاقة، في صالات للسينما فخمة أكثر من القصور، يتنزهان يداً بيد (هذا النوع من الألفة كان من الآن فصاعداً مقبولاً في الهند اللامعة) على شاطئ

[4] أسلوب في الموسيقى وهو خليط من الموسيقى الهندية التقليدية والموسيقى الكلاسيكية.

بحيرة حيث كانا يلتقيان قربها عندما كانا طالبين، أو يذهبان إلى نادي الحي كي يأخذا كأساً أو يلعبا البريدج. كانت هناك نزهات خلال عطل آخر الأسبوع كلها، وحتى أحياناً خلال أيام الأسبوع. يقضيان عطلة الشتاء في «كولو مانالي»، وعطلة الصيف في «غـوآ».

كانت إيما سعيدة لأجل والديها، حتى ولو أنها لم تكن تمنع نفسها من الاعتراض على طريقة حياتهما الهندية. (لكن كيف كان بإمكانها الاعتراض عليها بينما هي طريقة حياة أفضل بكثير من كل من كانت تراهم حولها، غارقين في روتين لا يرحم، ينتهي بالانفصال) هل تراها لأنها قد شعرت أنها مقصية عن حياتهما؟ أم كون حياتها التي كانت تفخر بها كطالبة ـ بين مهرجانات أفلام الرعب، والمقاهي حيث النقاشات الثقافية تمتد حتى آخر الليل، ومكتبات كهفية حيث كان بالاستطاعة التعثر ببعض النسخ الحائزة على جوائز نوبل ـ بدا لها هذا فجأة، بفعل هذه المقارنة أكثر قتامة؟ آثرت ألا تقول شيئاً وتكتفي بالانتظار، يأكلها الترقب ونفاد الصبر، كي يقترب شهر العسل هذا من نهايته، وتخيم خيبة الأمل والشقاق عليهما. مضى عام، ووالدتها لم تزل محتفظة بالانتشاء نفسه بالرغم من كل المشاكل التي كان يجب عليها مواجهتها. كانت تقول لها: من الذي يخلو من المشاكل؟ (لكن لماذا كانت تخفيها عن إيما؟). من وقت لآخر كانت تطلب من ابنتها أن تأتي لتراهما في الهند.

– كانت تقول: سنذهب إلى «آغـرا» نحن الثلاثة لنشاهد تاج محل. نحن بانتظار قدومك كي نذهب.

أو أيضاً: ـ أعرف أفضل منتجع «أيورفيدا»[5] في المدينة. يقومون فيه بالتدليك بزيت الصندل بشكل لا يُصدق.

في أحد آخر اتصالاتهما كررت عليها مرتين على التوالي:

– اشتقنا إليك، لماذا لا تأتين لزيارتنا كي نراك؟ سنرسل لك بطاقة الطائرة.

كان هناك نوع من رنة حزن في صوتها، ضربت إيما من جهة القلب، تماماً أسفل الجانب الأيسر. هي أيضاً تشتاق لوالديها. هي التي طالما كرهت أن تقوم برحلات سياحية، فوجئت من حماسها للسفر لرؤية تاج محل.

وعدتهما دون أن تفكر بالأمر ملياً قالت: سآتي في عطلة الشتاء.

– لكم من الوقت؟

– لستة أسابيع.

ستة أسابيع! هذا رائع! أجابت والدتها التي استعادت فجأة حماستها. لا بد سيعطينا هذا ما يكفي من الوقت... لا تنسي أنه يجب عليك الحصول على تأشيرة من جديد، فمنذ سنوات طويلة لم تأتي إلى الهند. لا ترسلي إليهم جواز سفرك بالبريد لأن هذا سوف يأخذ وقتاً طويلاً. اذهبي لتحصلي على الفيزا فوراً من القنصلية، ستنتظرين بعض الوقت بالتأكيد، لكن على الأقل ستحصلين عليها في اليوم نفسه.

لم تلحظ إيما إلا بعد أن أغلقت الهاتف أنها نسيت أن تسأل والدتها ماذا تقصد بجملة «لا بد سيعطينا هذا ما يكفي من

---

[5] الطب الإيروفيدي: استخدم في الهند منذ 5000 عام، وهو نوع من المساج المهدئ للأعصاب والمريح للنفسية.

الوقت»... لاحظت أيضاً أن صديقها الصغير رامون، والذي كان والداها يعرفانه جيداً، والذي عاملاه دوماً برقة (حتى أن والدها قد خصص له اسماً هندياً، رامو) لم يكن مدعواً.

كان يمكن لها أن تتجاهل هذا الأمر، ـ ثم إن التذكرة إلى الهند مكلفة للغاية ـ لو لم يكن هناك حديث آخر قالت إيما خلاله:

– حسناً فعلتم في عدم بيع المنزل، بهذا الشكل بإمكانكما العودة إذا لم تجرِ الأمور كما هو متوقع.

وعلى هذا أجابت أمها: آه كلا، يا عزيزتي، نحن بأحسن حال في الهند... كنا نعلم أننا سوف نكون بخير. المنزل لك، في حال.....

لكنها قطعت كلامها في منتصف الجملة وغيرت الموضوع، كما لو أنها كانت على وشك أن تعلن شيئاً، لكنها سرعان ما استدركت ذلك، شاعرة أن ابنتها لم تكن مستعدة بعد للسماع.

قبل دقائق قليلة من الهزّة الثانية، انتابت إيما رغبة فجائية في رؤية الشمس. تساءلت إن كان الضباب الخفيف الذي كان ينشر راياته أعلى ناطحات سحاب المدينة عندما وصلت في الصباح قد انقشع أخيراً؟ فإن كان الأمر كذلك فهذا يعني أن السماء سوف تكون صافية كما الشلال في الجبل، وإلا فإنها ستكون متلألئة كما حراشف سمكة. فجأة، شعرت إيما برغبة لا تقاوم في معرفة الأمر. سوف تتساءل بعد ذلك من أين أتتها هذه الرغبة التي جعلتها تنهض عن الكرسي وتثب على قدميها. أهو الحدس، الحدس نفسه الذي يجعل حيوانات حديقة الحيوان تزأر وتهمهم قبل ساعات من

حدوث كارثة طبيعية؟ وضعت حقيبتها على ظهرها واتجهت نحو الباب. للحظات قليلة كانت ستدفعه وستركض الدرجات أربع أربع كي ترضي الرغبة التي راودتها. كانت ستكون في الخارج، وعيناها مرفوعتان نحو رذاذ السماء الذي بدأ بالانهمار، حين اتخذت الأمور منحى آخر.

لكن، في اللحظة التي التفتت فيها كي تنهض، فُتح باب السيد مانغالام. خرج رجل مسرعاً، يلوح عالياً بجواز سفره وعلامات الانتصار على وجهه، ومرّ أمام إيما. انتزعت المرأة ذات الساري الأزرق نفسها من بين أكوام طلبات الفيزا واختفت في مكتب السيد مانغالام عبر الباب الذي وراء الكوة. كانت تفعل ذلك تقريباً كل ساعة، لماذا؟ تساءلت إيما مغتاظة. كل ما يمكن أن تفعله هذه المرأة هو مناداتها للاسم التالي الموجود ضمن كومة الطلبات. كان ينتاب إيما الأمل في أن يكون اسمها، لكنها مع ذلك انتظرت، فيما لو...

إنه الوقت المثالي للاتصال برامون. فمع قليل من الحظ سوف تنجح في أن تلاقيه بينما هو يجتاز ساحة التجمع الطلابي، بين لاعبي «الدجيمبي»[6] وبائعي «الديمسوم»[7]، والمبشرين بنهاية العالم. لحظة وصوله إلى مخبر الأبحاث، سيغلق هاتفه منعاً للإزعاج، فقد كان رامون شغوفاً بعمله. من وقت لآخر، عندما كان يذهب إلى مخبره في منتصف الليل كي يتابع تطور إحدى التجارب، كان يصادف أن ترافقه إيما، لهدف واحد، وهو أن تنظر إليه، وتُعجب

---

[6] لاعبو الطبلة على الطريقة الإفريقية

[7] نوع من الرافيولي المطهو على البخار، مالح أو حلو، يباع في كل ساعات اليوم.

بالسكون الذي كان يشع من كل جسده وهو يقوم بالاختبارات، يسجل الملاحظات، والقياسات. أحياناً كان يصادف لرامون أن ينسى تماماً وجودها. في تلك اللحظات بالذات كانت تحبه أكثر. إن استطاعت أن تلحق به هنا، فوراً، فهذا ما كانت ستقول له.

لكن الهاتف رفض أن يعمل. «لا يوجد شبكة» يومض بكلمات مضيئة على سطح الشاشة الصغيرة المربعة.

ألقى الرجل ذو الماستين في أذنيه نظرة عليها من فوق أكتافه، وبعث لها بتكشيرة استحسان.

– هاتفي أيضاً لا يعمل، قال لها، إنها المشكلة ذاتها في كل أبنية مركز المدينة. ربما إن تنقلتِ في الغرفة ستجدين زاوية ما يعمل فيها.

قامت إيما ببعض الخطوات للأمام، وهاتفها ملتصق بأذنها، لكن دون جدوى، لكنها أحست بالراحة من جراء تحريك قدميها قليلاً. نظرت إلى المرأة التي تعمل خلف الكوة تخرج من مكتب مانغالام وهي ترتب ثنيات الساري، كان وجهها مشوهاً بنوع من الانقباضات، كما لو أنها قد قضمت للتو فاكهة مُرّة الطعم. إيما، القليلة التسامح، اعتقدت أن السيد مانغالام قد وبّخها بحدة كونها فرضت فترة الانتظار اللانهائية على كل هؤلاء الناس المساكين. أرسل الهاتف خشخشة خفيفة في أذنها. قبل أن تستطع التأكد إن كان يعمل أم لا، خرجت هزّة جديدة من جوف الأرض. هذه المرة، لم يخطئ أحد مصدرها. كانت كما لو أن عملاقاً قد ألصق فمه على أساس البناء وأطلق هديراً ضخماً. تشوهت الأرضية وفقدت إيما توازنها وسقطت. أخذ العملاق البناء بين يديه الضخمتين وهزّه.

عبر كرسي الغرفة واصطدم بإيما التي رفعت ذراعها كي تحمي نفسها. اصطدم الكرسي بعنف في قبضة يدها وانتشر ألمٌ لم يسبق لها أن شعرت بمثله في كل ذراعها. كانت الناس تزعق، ورأت إيما أقداماً تركض بأقصى سرعة وتعود بعدها في الاتجاه الآخر. حاولت أن تنزلق تحت إحدى الكراسي، كما علموها أن تفعل منذ سنين خلت في المدرسة الابتدائية، لكن، لم يدخل تحت الكرسي إلا رأسها وكتفيها فقط. كان هاتفها لم يزل ملتصقاً في أذنها. هل كانت تسمع حقيقة صوت رامون يقول أن يُترك له رسالة، أم أن رغبتها الشديدة في السماع هي من أوحت لها بذلك؟

انهار السقف فوقها مرسلاً غيمة من الغبار. تكسرت العوارض مصدرة صوت عظام عملاقة تتكسر بشكل واضح. طار مصباح النيون وانفجر شظايا، شاهدت سُليك المصباح عارياً يتابع إرسال إشعاعه. سقطت الأنقاض في العتمة وغطت قدميها. كانت ذراعها تؤلمها بشدة، فكورتها على صدرها. (كانت حركة بلا فائدة تُرتجى منها بما أنها كانت ستموت بعد قليل) هل حقاً صوت ماء ذاك الذي كانت تسمعه؟ أترى المكان الذي هي فيه في الطابق الأرضي سوف يغرق؟ اعتقدت أنها سمعت رنّة إشارة انتظار الرسائل في الهاتف. صرخت وفمها ممتلئ بالغبار: رامون. فكرت بأصابعها الدقيقة جداً التي كان بإمكانها تصليح أي شيء يُكسر، فكرت بكل تلك الشامات التي على صدرها، تماماً فوق ثديها الأيسر، أرادت أن تقول لرامون شيئاً له أهميته، شيئاً يسليه، شيئاً جميلاً كي يبقى على ذكراها. لكن لا شيء من هذا جاء إلى ذهنها، وما لبث الهاتف أن انطفأ.

2



صدحت أصوات نساء في الغرفة، كنّ يغنين بلهجة لم يكن يفهمها، واعتقد في البداية أنه في ساحة المعركة. أفرغت هذه الفكرة كل الهواء من رئتيه وجعلته يشعر بالاختناق. كان لسانه مغطى بالغبار، وأظافره ملأى بالشظايا تحت الجلد. رائحة حريق اجتاحت منخريه. مرر يده على وجهه، وفوق عظام قمة رأسه غير المنتظمة، وعلى شعره الذي كان قد بدأ بالنمو، وعلى الندبة التي فوق حاجبه التي لم يعد يتذكرها. لكنه عندما لمس الحجرين الصغيرين ذوي الأحرف المدببة في أذنيه، تذكر للحال من يكون.

أنا كاميرون، قال لنفسه.عند هذه الكلمات عاد العالم ليأخذ شكلاً من حوله: أكوام من الأنقاض، أشكال على الأرجح أنها أثاث مكسّر. بعضٌ من هذه الأشكال كان يئن. الأصوات ـ لا، لم يكن هناك إلا صوت واحد ـ الصوت الذي كان يغني اتخذ نغمة واحدة كانت تكرر الاسم نفسه مرات ومرات. بعد عدة دقائق أخرى، بالرغم من الطنين، عادت إليه ذاكرته. مدّ يديه في جيبيه كي يتأكد من محتوياتهما. كان في الجيب الأيمن جهاز الاستنشاق خاصته. أخرجه وهزّه بحرص، من المفترض أن يكون قد بقي فيه خمس جرعات. فكر في الخزانة الملأى بالفوضى في غرفة حمامه، في

زجاجة الدواء الجديدة غير المستعملة الموضوعة على الرف الثاني. أطلق زفرة من الغضب والتأسف اللذين كانا بالنسبة إليه مترابطين دوماً، وعاد ليفكر في الأمور الإيجابية، كما كان سيفعل رجل الدين لو كان في مكانه. لو أبدى كاميرون الحرص في استعمال الخمس جرعات فيمكنها في هذه الحالة أن تكفيه لمدة خمسة أيام. ويكون في هذا الوقت قد خرج من هذا المكان لا محالة.

كانت حلقة مفاتيحه في جيبه الأيسر، معلق فيها مصباح جيب صغير، وقف ومسح بنظره أرجاء الغرفة ذات الضوء الخفيف. استيقظ قسم صغير آخر من عقله، ذاك الذي كان يقوّم الوضع ويقرر ما العمل، فتلقّاه بارتياح.

كان نصف السقف قد انهار. يجب عليه إبعاد الأشخاص عن هذه المنطقة في حال استمرت في السقوط. كان البعض متقوقعاً تحت الأثاث، وعلى طول الجدران. كان بإمكانهم البقاء هنا حالياً. تحقق من عدم وجود حريق. لم تكن رائحة الاحتراق إلا عبارة عن أهلاس شميّة عائدة إلى ذكرياته. نخر في محاولة منه ليتقصى الرائحة الواخزة لتهريب الغاز التي ليس من المستغرب أن تكون قد تسربت، فاستراح كونه لم يشعر بأي شيء. سمع صوت ماء يجري بإيقاع منتظم في مكان ما، لكن الأرض كانت ناشفة. تحرك ظل رجلين أمام الباب الذي كان يقود إلى الرواق، محاولين بطريقة واضحة فتحه.

رمى نفسه للأمام مطلقاً صرخة حادة، ونتيجة المفاجأة، صمتت البكّاءة.

– هيه، صرخ بأعلى صوته، توقفوا! لا تفتحا الباب، فهذا خطِر!

ركض بأقصى ما يستطيع عبر الحطام وأمسكهما من كتفيهما.

الرجل الأكثر تقدماً في السن ترك الأمر، لكن الرجل الأصغر سناً دفعه وهو يشتمه وشدّ بكل قوته مقبض الباب.

نفحة من الغضب اجتاحت صدر كاميرون، لكنه بذل جهده كي يحتويها وهو يقول:

قد يكون الباب هو الجزء الأخير الذي يحمل هذا القسم من الغرفة. إذا ما قمت بفتحه دفعة واحدة فإنك تجازف في أن تجعل كل شيء ينهار. وقد يكون هناك أكوام من الأنقاض من الجهة الأخرى من الباب. من يعرف ما الذي سيحصل إن نحن قمنا بهدمها. سنحاول فتحه، لكن يجب أن نفكر قبلاً بأفضل وسيلة لذلك دون أن نخاطر.

لمع شيء ما فوق وجنتي الشاب.من خلال الضوء المتراقص لم يستطع كاميرون أن يميز إن كان هذا دماً أم دموعاً. لكن رعشة كتفيه وذراعيه، وانحناء رقبته لم تدع مجالاً للشك في الرعب الذي كان يحركه. تقدم نحو كاميرون مدفوعاً بتركيز عال من الخوف. كان قد سبق لكاميرون أن رأى رجالاً في حالات مماثلة. من الممكن أن يكون هذا خطراً جداً. قام بخطوة جانبية وضرب الشاب أسفل رقبته، بحدّ يده، بحركة محددة لكن مدروسة. بإمكان ضربة من هذا النوع أن تكسر العمود الفقري، والرجال الذين كان قد قابلهم في ظروف أخرى كانوا سيعرفون كيف يتفادون هذه الضربة بحركة سريعة من المرفق. لكن هذا الفتى ـ هذا ما رآه فجأة كاميرون، فتى يافع أصغر من ابنه لو كان الآن لا زال على قيد الحياة ـ تلقى الضربة دون أي مقاومة، وقع مواجهه على الأرض ولم يعد يتحرك.

أطلق أحدهم أنيناً في العتمة، وتوقف فجأة، كما لو أن يداً قد وُضعت على فمه. لم يعد كاميرون بالقوة التي كان يتمتع بها سابقاً. كان قد ترك نفسه عمداً يتصرف هكذا، على أمل ألا يعود مطلقاً إلى عمل ما قام به:

– أنا متأسف كوني أُجبرت على ضربه، صرخ في الغرفة الغارقة بالعتمة، لكنه رفض أن يصغي إليّ.

كبت رغبته في إضافة «أنا لست رجلاً عنيفاً» لكن جملة كهذه لن تؤدي إلا إلى المزيد من الرعب منه. رفع يديه كي يظهر أنه لا يحمل شيئاً باستثناء مصباح جيب صغير.

– لا تخافوا مني، أرجوكم، قال بصوت أكثر رزانة.

أراد أن يقص عليهم ما كان قد رآه في المكسيك حين عمل كمتطوع بعد هزّة أرضية، في محاولة من إحدى محاولاته المتعددة للتكفير عن أخطائه. فالأشخاص الذين بدوا نافدي الصبر وحاولوا الخروج من بين الحطام دون أن ينتظروا النجدة، غالباً ما كانوا يموتون مسحوقين من حطام آخر، بينما هؤلاء الذين لم يتحركوا ـ محرومين من الماء والغذاء ربما أحياناً لأسابيع أو أكثر ربما ـ قد استطاعوا النجاة بأعجوبة. لكن هذا أمرٌ يطول شرحه، والذكريات التي كانت تتوارد على مخيلته ـ كل تلك الأجساد المتشابكة لجثث ضحايا لم يتمكن من إنقاذهم ـ كانت جد مؤلمة، لهذا فقد اكتفى بالقول:

– لو أنه فتح هذا الباب، كما كان على وشك أن يفعل، كان بإمكانه قتلنا جميعاً.

كان الصمت الذي تبع هذا الكلام ثقيلاً، محملاً بالشكوك والإدانة. أخيراً، ومن تحت أحد الكراسي، ارتفع صوت امرأة متسائلاً:

– إذن فضلت في هذه الحالة قتله؟

زفر كاميرون الهواء الذي كان قد حبسه في رئتيه دون حتى أن ينتبه إلى ذلك وأجاب:

– على الإطلاق! هو فقط غائب قليلاً عن الوعي. هيا انظري بنفسك. بإمكانك الخروج من تحت هذا المقعد. هذا يبدو لي مؤكداً.

– لا أستطيع الحراك، قالت المرأة الشابة، أعتقد أن معصمي مكسور. هل باستطاعتك مساعدتي؟

شعر بكتفيه تسترخيان، وزوايا شفتيه ترتفعان عند سماعه هذه الكلمات. من الذي كان باعتقاده أن يصدق أن بإمكانه الابتسام في موقف كهذا؟ تقدم نحو الفتاة الشابة وقال: سأحاول على الأقل.

بيدها اليسرى، تمسكت مالاتي بالكوة متفادية بحرص بقايا الزجاج المحطم الذي كان يغطيها ونهضت قليلاً فقط كي ترى ماذا كان الأفرو ـ أمريكي على وشك أن يعمل. كانت تريد إعادة ساريها إلى مكانه، لأنه كان قد انزلق عن كتفيها، لكن يدها اليمنى كانت مستندة بكل قوتها فوق فمها، ساحقة شفتيها بين أسنانها، ولم تتجرأ على سحبها لخشيتها من عدم استطاعتها منع نفسها من الإنشاد «كريشنا، كريشنا، كريشنا» كانت تلك صلاة، رجاء ومناداة للغفران، لأن زلزال الأرض هذا قد حدث بسبب غلطتها. وإذا صادف وسمعها الأفرو ـ أمريكي فلربما كان سيلتفت ويتجه نحوها. من يعرف ما الذي بإمكانه أن يفعل بها؟

في اليوم الذي علمت فيه نساء العائلة ـ خالاتها وعماتها وجدتها، ونسيباتها اللواتي لا يزلن فتيات ـ أنها سوف تغادر الهند كي تعيش في أميركا، اجتاح الجميع قشعريرة (أتراها كانت

قشعريرة خوف أم رغبة؟ لم تعرف مالاتي أبداً ما هي) ونبهنها أن تحذر من الرجال سود البشرة، الذين كنّ يعتبرنهم أشخاصاً خطرين، كن فعلاً على حق! يكفي أن نرى الطريقة التي ألقى بها هذا الرجل الأسود، الشاب الهندي الذي يصغره سناً بكثير. نسيت مالاتي أن فرقة الخالات والنسيبات، المنصفات في كراهيتهن للرجال بشكل عام، قد حذّرنها أيضاً من الرجال بيض البشرة، فكلهم على حد سواء مخلوقات شبقية، وأكثرهم مراوغة هم الرجال الأندو ـ أمريكان. (الأمريكان من أصول هندية).

بالمقابل، لم يفكر أحد أن يحذرها من زلازل أرضية. ففي البلاد التي هي قادمة منها، كانت العديد من الصور تظهر في أذهان الناس عندما يسمعون كلمة «أميركا»، لكن لمتشكل الزلازل جزءاً منها.

كانت مالاتي قد اتبعت النصائح المقدمة من قبل نساء العائلة التي تخص الرجال. من جهة، لأنه لم يكن لها خيار آخر، لكن من جهة أخرى لأنه كان لديها مشروع آخر. كانت تتشارك بإيجار شقة مع ثلاث موظفات من القنصلية استدعين من الهند في نفس الوقت الذي جاءت هي فيه. كن يقضين كل أوقات فراغهن معاً، يأخذن الحافلة نفسها ولا يفترقن إلا عندما يصلن أمام المصعد (كانت الأخريات يعملن في الطابق المخصص للخدمات السياحية) يذهبن عند «الإخوة باتل» ليشترين بودرة «السامبار»[8] والخضار المخللة، يشاهدن أفلام بوليوود على جهاز التشغيل خاصتهن، ويتساعدن في تزييت شعرهن بشكل متبادل كل مساء، مسّرات بآمالهن وأحلامهن. كانت النساء الأخريات

---

[8] تشكيلة من البهارات الهندية الحريفة الطعم.

يرغبن في الزواج. كنّ يدّخرن من رواتبهن الشهرية ـ التي كانت تبدو لهن عملة فلكية إن تحولت إلى روبيات، بينما تظهر قليلة جداً إن هن دفعن بالدولار ـ وجمعنا المهر، لأنه، وإن بدا أن المهر قد ألغيت رسمياً في الهند، فالكل يعرف أنه لا توجد أي فرصة للعثور على زوج مقبول نسبياً دونه.

لكن مالاتي، التي رأت جيداً كيف تترك شقيقتاها زوجيهما يهيمنان عليهما، لم يكن لديها أي استعداد للحاق بركبهما. كانت تغذي في نفسها مشروعاً آخر. فعندما ستستطيع توفير مبلغٍ لا بأس به من المال، سوف تعود للعيش في الهند وتفتح صالون تجميل، لكن ليس في «كوامباتور» بلدها الأم.

في الليل، كانت تضم وسادتها ذات العِقد إلى صدرها، تغلق عينيها وتستسلم للحلم: الأجراس النحاسية الصغيرة فوق باب الصالون ـ المحاط بالستائر ليحتفظ بالحميمية ـ تجلجل لحظة دخول إحدى الزبونات، الغرفة الرائعة المكيفة ذات الجدران المغطاة بالمرايا الضخمة المشعة، الموظفات في مئزرهن يقمن بالاستقبال بأيادٍ مضمومة، مع ابتسامة، الكنبات الكبيرة التي تدور على محورها حيث باستطاعة الزبونات فوقها أن يجلسن لتدريم أظافرهن، ونتف حواجبهن، وتصفيف شعرهن بكعكة مصبوغة معدّة للزفاف، أو يسترخين لتدليك بشرتهن باللبن أو عجينة زيت الصندل.

وقتها وصل السيد مانغالام إلى قسم إصدار التأشيرات، وفوراً زلّت قدم مالاتي.

اتفقت شريكات سكن مالاتي جميعهن على أن السيد مانغالام كان الرجل الأكثر إثارة في القنصلية. كان بشاربه المتبجّح، ونظارته

ذات العلامة التجارية، وابتسامته السمحة، يبدو أصغر بكثير من سنه (كان في الخامسة والأربعين من عمره، بحسب ما قرأت مالاتي وهي تفتش في ملفه). من بين كل الرجال الذين كانت تعرفهم كان الوحيد الذي لم يكن لديه بطن، أو شعر في الأذنين. لكن للأسف، هذه العطايا التي وهبته إياها سيدتنا الطبيعة لم يكن يرجى منها أي فائدة، لأنه ببساطة، كان هناك السيدة مانغالام، التي كانت تبتسم بأناقة في صورة موضوعة فوق مكتبه. كانت قد وُزعت إطارات للصور على كل موظفي القنصلية، مع تعليمات واضحة بوجوب وضع صور للعائلة وعرضها بشكل واضح أمام النظر. قيل لهم أن تلك طريقة تساعد الأمريكيين في الشعور بالارتياح كما لو أنهم في بيتهم عندما يدخلون إلى المكتب، لأن وجود صورة للعائلة على مكتب رجل، تدل على استقراره الأخلاقي.

مالاتي، وكشابة عملية، قررت إذن أن تضع إشارة إكس على السيد مانغالام. لكن بدا هذا أمراً صعباً، أصعب مما كانت تتوقع، لأن السيد مانغالام راح يهتم بها أكثر فأكثر. مالاتي، التي لم تكن تغذّي أيه أوهام بالنسبة لأمورها الجسدية (بشرة داكنة، وجنتان ممتلئتان، وأنف أفطس) بقيت مشوشة الذهن أمام تطورات الأمور بهذا الشكل. لكن الوقائع كانت هنا. كان يبتسم لها عند مروره أمام زجاج الكوة كل صباح، وفي اليوم الذي كانت مكلّفة فيه بصنع الشاي لقسم الخدمات، كان يثني على طريقة تحضيرها ويعاود ليطلب كأساً آخر. وفي عيد التامول[9] كان يجلب علبة من حلوى

[9] Tamoule: لغة مستخدمة في الهند وماليزيا وسيريلانكا.

«ميسورباك»[10]، وكانت أول حبة بونبون التي على شكل ألماسة تُقدم لها. إذا ما دخلت لعنده كي تسأله عن طلبات التأشيرات، كان يطلب منها الجلوس بتهذيب شديد كما لو أنها إحدى الزبونات. كان يسألها أحياناً كيف ستقضي عطلة نهاية الأسبوع القادم. عندما كانت تقول أن لا خطة معينة لديها، يأخذ للحال هيئة حالمة كما لو أنه كان يريد اصطحابها إلى مكان ما ـ إلى سينما «ناز»، مثلاً، حيث كانوا يعرضون آخر الأفلام الشهيرة للممثل «شاه روك خان» أو إلى مطعم مدراس محل، والذي كان أرفع بكثير من مستوى مالاتي، حيث كانوا يقدمون فيه أشهى طبق لل «دوزاس»[11].

هل يمكن إلقاء اللوم عليها، نظراً لهذه الحالة، في الذهاب غالباً أكثر من اللزوم إلى مكتبه؟ أو قبول ملعقة من جوز التنبول المغطى بطبقة من الفضة من وقت لآخر منه والذي كان يحتفظ به في درجه العلوي؟ أو تتركه يمسك بيدها عندما تمد نحوه أحد اللفافات؟ وأن تعيره أذناً صاغية عندما كان يشرح لها إلى أي درجة كان يشعر بالوحدة، بعيداً عن وطنه، تماماً مثلها؟

كانت لديها عادة الخربشة على ورقة من وقت لآخر. في أحد الأيام فوجئت لكتابة وسط خربشة من الأزهار والأغصان: مالاتي ـ مانغالام. كان هذا عملاً طفولياً وأرعن، دلالة على اهتياج داخلي يشوشها. مزقت الورقة إلى آلاف القطع ورمتها. مع ذلك، لم يمنعهاهذا من الشعور بأن الأحرف كانت متناغمة لفظياً مع بعضها.

---

[10] Maisoorpak: نوع من الحلوى في الهند.

[11] فطيرة دائرية من طحين العدس أو الحمص، نموذج من طعام في جنوب الهند.

وأحياناً، في المساء، عوضاً عن التفكير في صالونها التجميل، كانت تهمس بهذه الأحرف، ووجهها مدفون في وسادتها.

اليوم، أخذها السيد مانغالام بين ذراعيه وقبّلها.

يجب أن تقر مالاتي أن هذه الحركة، حتى وإن فاجأتها، إلا أنها، فعلياً، لم تكن غير متوقعة. ألم يضع في يدها بالأمس القريب علبة صغيرة مذهبة؟ فتحتها لتجد فيها أربع قطع من الشوكولاتة البيضاء على شكل قواقع، مرتبة بعناية. همس لها: «هيا تذوقي واحدة». عندما أحنت رأسها بحياء، أخذ واحدة ومررها على شفتيها قبل أن يدفعها داخل فمها. كانت هشة من الخارج، لكن، من الداخل... كانت من ألطف الأشياء وأكثرها إثارة للحواس والتي سبق وأن ذاقتها من أي وقت مضى. اجتاحها شعور بالذنب مرافق للحبور في اللحظة نفسها التي ابتلعتها فيها.

• نفس هذا الإحساس بالانتشاء وخز فروة رأسها عندما ضغط شفتيه على شفتيها. لو أنه قد حاول السيطرة عليها لكانت قد دفعته. لكنه كان رقيقاً: همس لها بكلمات لطيفة فاركاً أنفه على أذنها (آه، كم دغدغ شارباه بجاذبية، وجننتها!) لم يكن أحد قد قبّل مالاتي قبل هذا اليوم، لكنها كانت قد شاهدت مئات الأفلام الرومانسية وكانت تعرف كيف تتصرف. أخفضت بحياء بصرها واتكأت على صدره، تاركة شفتيه تداعبان فكّها بالرغم من الأفكار التي كانت تعبر تفكيرها: إقامة علاقة غرامية مع سيد متزوج سوف يكون السبب بجذب الكارما السيئة. في اللحظة التي تنهد فيها، تجتاحه قشعريرة خفيفة، وحين كانت مالاتي تشعر في أنها

قـد اكتسـبت سـلطة غريبـة، سـقطت عيناهـا علـى صـورة السـيدة مانغالام، تماماً قرب تمثال «غانيش»[12] من خشـب الصـندل. للمـرة الأولى لاحظت أن السيدة مانغالام كانت متزينة بشكل مثالي، لابـد وأن يكـون هـذا مـن عمـل صـالون تجميـل راقٍ. في يـدها اليمنـى (الموضوعة ببراعة فوق ذقنها) باستطاعتنا رؤية ثـلاث خـواتم رائعـة مزينة بالألمـاس. أتراهـا كانـت تقدمـة مـن الرجـل الـذي، في هـذه اللحظات بالذات، كان يدفن وجهه في رقبة مالاتي؟ كانت السـيدة مانغالام ترمق مالاتي بنظرة واثقة... واثقة ومصبوغة بالشفقة. كانت تلك الابتسامة تدل على أمرين اثنين: أولهما هو أن السيدة مانغالام هي النوع من النساء التي تحلـم مـالاتي أن تصـبح عليـه ولكـن لـن يكون بوسعها أن تكونه أبداً، ومن ثم، لم يكن يهمها الطيش الـذي يقوم به زوجها، فهو في النهاية سيعود إليها.

هذه الابتسامة دفعت مالاتي للتخلص من عناق السيد مانغـالام. وعندما انحنى كي يقبل باطن يدها، سحبت ذراعها بطريقـة فظـة. متجاهلـة أسـئلتها، سـوّت سـاريها، وأعـادت تجميـع أفكارهـا، وسارعت في الخروج من المكتب.

لم تقـم بـأكثر مـن عشـر خطـوات حتـى بـدأت عجلـة الكارمـا بالاضطراب، وحلّت اللعنة عليهما متخذة شكل هزّة أرضية.

من خلال اهتزاز بطاريـة الجيـب رأت مـالاتي الرجـل الأفـرو - أمريكي يمسك بمرفق أحدهم ويقوده إلى وسط الغرفـة. كانـت تلـك،

---

[12] Ganesh: تمثال عند الهنود يمثل بوذا بوجه فيل.

الفتاة الشابة الهندية، إن كان يصّح المناداة بهذا الاسم لشخص يسبح منذ نعومة أظفاره في انحطاط العالم الغربي. وجدتها مالاتي فوراً شخصاً كريهاً وهي بالجينز الضيق الذي كانت ترتديه، وبهذا الكتاب الجامعي الضخم الذي كانت تحمله بصعوبة كمن يريد استعراض ثقافته، وبنفاد صبرها تماماً كالأمريكيين. لكن عندما رأت الرجل يمسك الفتاة من ذراعها، وسمعتها تطلق صرخة ألم، لم تستطع مالاتي أن تمنع نفسها من الصراخ مرة أخرى. فوراً، ندمت على ذلك، لأن الرجل ترك الفتاة الشابة وتقدم نحوها. غاصت في الكوة، لكن دونما أمل كبير. فالحاجز الزجاجي الذي بالعادة كان يفصل عنها الزبائن الذين يتقدمون نحو الكوة قد تهشم وتحول إلى غبار من جرّاء الزلزال، لهذا فلن يكون صعباً عليه الانحناء من فوق الحاجز، ويلتقطها.

فعلاً، انحنى الرجل من فوق المكتب، لكن لم يكن ذلك كي يلتقطها. كان على وشك أن يقول لها شيئاً ما. لم تكن تفهم، فقد قام الرعب بمسح كل معلوماتها في اللغة الإنكليزية. عاد فكرر الكلمات ببطء أكبر. ارتدت الأحرف في رأس مالاتي بشكل غير مفهوم. أغلقت عينيها وحاولت أن تتخيل صالون التجميل وتجعله مرئياً، وهي في وسطه. لكن الأرض ارتفعت، وتكسّرت مرايا الصالون وانسحقت على الأرض، وأصبح هناك حطام في كل مكان، مثل ما هو موجود بين يديها الآن.

خلفها، سمعت مالاتي باب السيد مانغالام يُفتح. كان الزجاج يطقطق تحت وقع الخطوات المرتبكة للموظف وهو يتجه نحو

الرجل الأفرو ـ أمريكي. رمت مالاتي نفسها عليه، دون أن تكون قد خططت لهذا، وراحت تضرب صدره بقبضتها، وصرخت في اللغة التامولية:

– إنها غلطتنا! إنها غلطتنا! كل هذا قد حصل بسببنا!

في اللحظة التي كانت الأرض تهتز اختبأ مانغالام تحت طاولة مكتبه. لكن قطعة الأثاث تزحلقت للطرف الآخر من الغرفة وحشرته في الزاوية. كافح عدة دقائق حتى توصل أخيراً إلى أن يسحب نفسه. عندما وقف حائراً، ويداه ترتجفان، وقع نظره على أغلى ما كان يملك، لم يكن ذلك صورة زوجته الهازئة والمنتصرة، إنما «الكانيش» الذي من خشب الصندل، والذي قدمته له أمه لحظة غادر المنزل ليذهب إلى الجامعة قائلة له: «ليبعد عنك كل العوائق التي تعترض طريقك». عندما انزلقت طاولة المكتب إلى الطرف الآخر من الغرفة، ارتمى التمثال الصغير وضرب الحائط وكُسر. شعر فجأة أنه قد فُرِّغ كما لو أن أحداً ما قد سحب له أمعاءه. كان مانغالام هو الآخر قد نشأ على الاعتقاد بالكارما. تدافعت في رأسه أفكار مماثلة لتلك التي كانت تتهمه مالاتي بها وهي تبكي. حاول جاهداً أن يرمي خرافاته جانباً، لكنها لم تكن تفتأ عن العودة مرة أخرى، متّخذة شكل لجام، لتكدّره بعمق.

لم يسبق لمانغلام أن عايش هزّة أرضية في حياته. لكنه كان قد سبق له أن جابه غضب امرأة وهي في كامل جنونها. أمسك مالاتي من كتفيها وهزّها بعنف حتى سكتت.

– لا تكوني حمقاء، قال لها بلغة التامول، بلهجة باردة كان قد

سبق له أن استخدمها سابقاً في مواقف مماثلة. إنها هزّة أرضية. الهزّات الأرضية لا علاقة للبشر بها. ثم أضاف قائلاً باللغة الإنكليزية:

– تمالكي نفسك وافعلي ما يمليه عليك هذا السيد.

لم يعجب كاميرون الطريقة التي هزّ بها هذا الموظف الشابة، ورغب أن يقول له شيئاً، لكن كان هناك حالة اضطرارية أخرى.

– هل لديكم مجموعة من الإسعافات الأولية؟ شعلة أو مصباح بطارية؟ حبوب باراسيتامول؟ هل يعمل الهاتف؟

– حاولت الخط الذي في مكتبي، أجاب مانغالام، لكن لا يوجد حرارة.

أعاد مانغالام على مالاتي بكل ما طلب كاميرون، مستعيضاً بعض الكلمات بأخرى لتبدو لها مألوفة أكثر ـ مصباح جيب، أسبرين، علبة ضمادات ـ حتى انتهت بهزّ رأسها دون الكثير من القناعة، وذهبت تفتش في خزائن المكتب.

بحالتها المشوشة تلك، لم يتوقع كاميرون أنها سوف تجد أي شيء. مع ذلك، بعد عدة دقائق، رأى خيطاً من ضوء يتقدم مهتزاً نحوه. وضعت مصباح الشعلة على الكوة، كما حقيبة من البلاستيك فيها مصباحا بطارية، وعلبة من المعدن الأبيض مرسوم عليها صليب كبير بالأحمر. في داخلها، وجد زجاجتي كحول، بعض الضمادات، علبة أسبرين، أدوية ضد الزكام، أنبوب من كريم مطهر، وخيوط للأسنان. كان هذا أفضل من لاشيء، لكنه يبقى غير كافٍ.

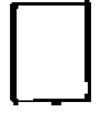
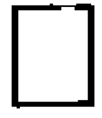
حاول أن يرتب في رأسه قائمة الأمور التي يجب عليه أن يقوم

بها. يجب في البداية التدقيق في كل زوايا الغرفة كي يتحقق من أنه لا يوجد أي مخرج. يجب أن يتأكد أن لا احد جريحاً باستثناء تلك الطالبة الشابة، ويسأل الآخرين إن كان معهم ماءٌ أو طعامٌ، ويحاول إقناعهم باقتسامه مع الآخرين. ويبحث إن كان يوجد حمام، وإلا، فيجب إيجاد خيار آخر. يجب أن يجوب الغرفة ليحاول إيجاد مكان ما تعمل فيه شبكة الهاتف المحمول. كما عليه أن يطلب من الآخرين أن يقوموا بالمثل. كان عليه أن يجرب فتح الباب عاجلاً أم آجلاً، خشية من أن يُدفنوا أحياء.

بدأ كاميرون يشعر بآلام في صدره. فالغبار لا يناسبه. قريباً، سوف يضطر لاستعمال جهاز الاستنشاق.

«هذا كثير يا سيفا، ليس باستطاعتي إدارة كل هذا». سمع من خلفه صوت احتكاك. قام بالالتفاف إلى الجهة المقابلة، والمصباح مصوّب أمامه كالسلاح. كانت مالاتي قد وجدت مكنسة وبدأت تجمع نثار الزجاج في كومات صغيرة. لم يكن باستطاعته رؤية نظرتها، لكنها بدت أقل رعباً من اللحظات السابقة. هذا أفضل، لأنه بعد قليل، سيضطر أن يطلب منها طلباً مزعجاً.

ترك أفكاره ترحل بعيداً عن اللحظة الراهنة. ترك نفسه يُسلب من حركة المكنسة على الأرض، التي أيقظت فيه ذكرى صورة جدته التي كانت قد نشأت كخادمة في أحد البيوت في جنوب أميركا والتي وُصفت له: كامرأة تهبط السلم، في ثوب حريري طويل.

3



نظرت إيما إلى يدها الشديدة التورم الآن، لدرجة لم تعد تعد ترى فيها عظمة معصمها. أعطاها كاميرون ثلاث حبات من الأسبرين وأُجبرت على ابتلاعها دون ماء، حتى أنها كانت على وشك أن تختنق.لم يكن للدواء أي مفعول على الألم الذي كان يضرب الآن كل ذراعها، وصولاً إلى كتفها، والذي كان مرتبطاً بشكل متين بالرعب الذي كانت تشعر به. كان تحت جلدها شيء ما بارز يمزق لها عضلاتها. تخيلت أنها عظمة، أو عدة عظمات مكسورة تحولت إلى مئات من القطع الحادة تقطع لها لحمها من الداخل. كانت تريد الهروب من هذه الغرفة الخانقة ـ فكرت بالمحيط، بوالديها، بالمعكرونة التايلندية التي كانت تنوي طبخها في المساء، لصديقها رومان الذي كان يقدم لها الشاي بالياسمين كل صباح ـ لكنها لم تستطع السيطرة على الهلع. هل كانت على وشك الموت من نزيف داخلي؟ هل يجب أن يبتروا لها يدها إن تأخرت فرق الإغاثة عن المجيء؟ اعتقدت دوماً أنها تمثل شريحة من هؤلاء الناس الذين كانوا يجابهون الأزمات بدم بارد، فاندهشت للسرعة التي حرمها فيها الألم من وسائلها.

اجتمع الجميع في وسط الغرفة نزولاً عند طلب كاميرون، ما عدا

الرجل الملتحي الذي بقي مستلقياً في المكان الذي سقط فيه بينما كان قد استرد وعيه منذ بضع دقائق. دار على جنبه كي ينظر إلى كاميرون. كانت عيناه الثاقبتان تلمعان ككرتين من زجاج أسود وسط ضوء المصباح اليدوي، ورأسه مائل في زاوية غير مريحة. بين موجتين من الألم كانت إيما تقول لنفسها إن في وسعها إعطاءه شيئاً ما ليضعه تحت رأسه، كحقيبة ظهرها مثلاً. لكن عادت فاجتاحتها موجة أخرى من الألم، فأصبحت غير قادرة على التفكير بأي شيء كان.

ذهب كاميرون ليتفقد الأشخاص فرداً فرداً، كي يسألهم إن كانوا مصابين. كانوا جالسين على كراسي، بهيئة رواقية، ينهضونكما الأطفال المطيعين عندما كان يوجه نحوهم مصباح الجيب الصغير. كان لدى الجميع تقريباً جروح أو ندوب زرقاء، بينما كان عند الجدة جرح بليغ فوق ساعدها ينزف بشدة. أعطى السيد والسيدة بريتشت ضمادات، ولصاقات، ومرهم ضد الالتهاب، وطلب منهما أن يبذلا جهدهما للتخفيف عمن يكون جرحه سطحياً. في غضون ذلك، كان الجميع قد عرّف عن اسمه باستثناء الرجل الملتحي، إلا أن الجميع كان يعرف اسمه، لأنه، وأثناء غيابه عن الوعي، سأل كاميرون السيد مانغالام عن الاسم. إنه يدعى طارق، اسم مسلم. تساءلت إيما إن كان لهذا علاقة بالعنف الذي صدر منه منذ قليل، ثم، لم تلبث أن خجلت بشدة من نفسها للتفكير بشيء كهذا.

نادى كاميرون على الفتاة المراهقة ليلي كي تمسك له بالمصباح بينما ينظف جرح جدتها، ويلفه بالشاش. شاهدت إيما ليلي تعض شفتها عندما انصبغ الشاش باللون الأحمر، لكن الفتاة لم تحوّل نظرها. كان كاميرون يرفع حاجبيه الداكنين، وقد اضطر لاستخدام لفافة كاملة من

الشاش ليتوقف النزف (من كان باستطاعته التصديق بوجود كل هذه الكمية من الدماء فيها؟ كانت إيما تكاد تموت رغبة في قول هذه الجملة لأحد بمقدوره أن يفهم تلميحها لإحدى مسرحيات شكسبير). أخيراً، مزّق حاشية سترته كي يربط بها ذراع الجدة، وطلب منها أن تستلقي دون حركة. ومن ثم ترك نفسه ينهار على الأرض. أصيبت إيما بالهلع لحظة رأته يسند رأسه على الكوة ويغمض عينيه. فتشت في جيبها، وأخرجت منها شيئاً وضعته أمام فمه، فضغط عليه.هل هو مريض؟ «يجب أن يكون قوياً، قوياً» صاحت في سرها بين أمواج الألم الذي كان ينبض حتى يصل إلى عظم وجنتيها.

خلال بضع دقائق، استعاد كاميرون قوته، وشرع في اكتشاف المساحة الواقعة وراء الكوة على أمل أن يجد باباً أو نافذة، يستطيعون من خلالها الخروج من هنا. ربما هناك سلّم بمقدورهم استعماله للوصول إلى فوهة التهوية الكبيرة التي قرب السقف؟ عندما لم يجد شيئاً، طلب من هؤلاء الذين يملكون هاتفاً خلوياً أن يجوبوا الغرفة طولاً وعرضاً - مع الحرص على الانتباه على الحطام - لمعرفة ما إذا كان باستطاعتهم التقاط الشبكة. كُلف مانغالام بالتحقق من خطوط الهاتف التي في المكتب بفاصل زمني محدد. لكنها هي الأخرى لم تكن تعمل. انتظر كاميرون أن تتسلل الحقيقة إليهم: وهي أنهم كانوا محاصرين هنا إلى حين وصول فرقة الإنقاذ، أو إلى حين يخاطرون بفتح الباب الذي أمامهم. طلب بعدها من الجميع جمع كل ما يملكون من طعام وماء، كي ينظموا حصصهم.

وضعوا على مضض، الوجبات الخفيفة فوق الكوة، كما زجاجات الماء التي بحوزتهم. إيما، التي لم تكن تملك أي شيء

لتشارك به، شعرت أنها خالية الوفاض مثلها مثل الزيز في قصة الكاتب لافونتين (لكنها كانت أيضاً مرتابة بالأمر، من الذي يمكن له أن يعرف إن لم يقم البعض منهم بإخفاء أشياء في حقائبهم، في جيوبهم أو في أحذيتهم؟) خلال ثانية، سمعت صوت والدتها تقص عليها حكاية قديمة بلهجة مغتاظة حين رفض النمل استضافة الزيز. في هذه اللحظة، في العالم الواقعي، كانت أمها تنام بهناء ممدة على فراش «دانلوبيللو» من النوعية الفخمة، جاهلة تماماً الوضع الذي توجد فيه ابنتها. لكن، ألم تكن والدتها تتجاهل بتكبر مشاكلها حتى ولو وهي مستلقية بالقرب منها، في سريرها، واضعة رأسها على وسادتها؟

– هل لدى أحدكم دواءٌ للألم؟ سأل كاميرون بين الكواليس. شيء ما ذو مفعول قوي؟ معصم هذه الشابة، الآنسة إيما، مكسور. أريد أن أعطيها شيئاً قبل أن أحاول إعادته إلى مكانه. لا يهم إن كان دواءً أو أي مادة أقل شرعية.

لم يُجب أحد.

التفت كاميرون ناحية مانغالام:

– أنا بحاجة إلى شريط عصابة من القماش وإلى مطاط. سيكون لزاماً علينا استخدام ساريها. قال هذا وهو يشير بذقنه ناحية مالاتي. سيتوجب عليك أن تشرح لها.

لكن عندما وجّه مانغالام حديثه نحو مالاتي، بأحرف طائرة ومتقطعة لم تتمكن إيما من فهمها، سارعت المرأة الشابة للاختباء خلف الكوة وعقدت ذراعيها حول صدرها.

«إيلاي، إيلاي» صرخت بلهجة لم تترك أي مجال للشك حول جوابها.

راحت بعدها تئن وتهمهم بكلمات غير مفهومة.

– تقول أن هذا يخدش حياءها الأنثوي. ترجم مانغالام.

بدا الموظف مهتاجاً. شكّت إيما بأنه لم يترجم كل ما قالته مالاتي. ولم تلبث موجة أخرى من الألم أن اجتاحتها، ففقدت تماماً تسلسل أفكارها.

– سيدتي، يجب عليك أن تتعاوني، أصّر كاميرون قائلاً. نحن في وضع لا تطبيق فيه للقواعد الاعتيادية. ليس بمقدوري العناية بالآنسة إن لم يكن لدي القماش الكافي.

التجأت مالاتي إلى زاوية بين خزانتين، في الطرف القصي للغرفة.

نبّشت إيما بيدها السليمة في حقيبة ظهرها وأخرجت سترة. كان الألم يصعد حالياً حتى رأسها ويجعلها تصاب بالدوار. سارت بخطوات مترنحة حتى خزانة الملفات، وقامت بجهد هائل كي ترفع يدها المتورمة، حتى تتمكن مالاتي من رؤيتها. كان جسدها قد أخذ لوناً بنفسجياً واضحاً بدأ يظهر حتى في الضوء الباهت للمصباح. بقيت مالاتي جامدة لعدة لحظات، ومن ثم، بعد أن ألقت بنظرة كراهية على إيما، انتزعت السترة من يدها وذهبت لتختبئ في مكتب مانغالام. بعد عدة لحظات، رمت بالساري الأزرق من فتحة الباب نصف المشقوق، وأغلقت على نفسها. سمعت إيما عندها طقطقة قفل الباب.

عندما أعاد كاميرون العظمة إلى مكانها، كادت إيما أن تغيب عن وعيها من شدة الألم، لكن بعد أن تثبّتت ذراعها وأُمسكت بالوشاح ـ كان كاميرون قد استعمل ببراعة مسطرتين من البلاستيك كي يصنع لها جبيرة ـ شعرت بقليل من التحسن. أخذت بيدها

حـبتي الأسـبرين اللـتين أعطاهمـا لهـا كـاميرون، التقطـت حقيبـة ظهرها واتجهـت نحـو طـارق. قبـل الشـاب أخـذ الحبـتين اللـتين أعطتهما له، هزَّ برأسه علامة عن الشكر، ومن ثم قام بتكشيرة وهـو يمسد رقبته.

– أأنت متألم؟ سألته

– ماذا تعتقدين؟

– أنا آسفة عما جرى.

هزّ كتفيه قائلاً:

– سوف أقتله.

فاجأت لهجته إيما فقد كانت لهجة هادئة وواثقة جداً.

– لا تقل أشياء كهذه. أجابته بجفاء.

أراد المتابعـة، لكـن السـيدة بريدشـت تبعتهمـا. وقفـت السـيدة المسنة في الغرفة بشكل لا يكون بمقدور أحد رؤيـة مـا تنـوي فعلـه. أخرجت من زجاجة دواء قرصين بيضاويي الشـكل يلمعـان كقمـرين صغيرين جداً.

–إنه «اكزاناكس» قالت. هذا يمكن أن يساعد.

نظر طارق نظرة احتقار نحـو الحبـتين، فاسـتولت عليهمـا إيمـا دون أي تردد. لم تكن تعرف حقاً مـا مفعـول هـذا الـدواء، لكـن في وضعها هذا، كل شيء بإمكانه أن يكون فعالاً.

أخذت السيدة بريدشيت، الـتي بادلتهـا نظـرة متواطئـة، هـي الأخرى حبة. انزلق الكزاناكس دون أي صعوبة على لسان إيما، فقد أصبحت متمكنة أكثـر فـأكثر مـن هـذه الطريقـة. كانـت تحـب لـو استطاعت أخذ جرعة من الماء كي تبعد الطعم المرّ الذي بقي عالقاً في

فمها، لكن كاميرون كان قد أعلن بأنه يُفترض بهم الانتظار ساعة أو ساعتين قبل تناول الطعام أو الشراب، ولم تكن تريد تعقيد المهمة.

سوف أستلقي. قالت دون أن تكون قد وجهّت الكلام إلى أحد بشكل خاص.

أخذ كاميرون كراسي لعرقلة مخارج الإنقاذ من الجهة اليمينية للكوة، هناك حيث كان السقف فاغراً فاه كفم حيوان متوحش. اتجهت إيما نحو الطرف الآخر من الغرفة، إلى المكان الذي تستلقي فيه المرأة الآسيوية على الأرض. بالرغم من الأرضية المتصدعة والموكيت الممزق، لكن لم يكن في هذه الزاوية حطام زجاج، كما بدت الأرض مصقولة. استلقت إيما على بطنها، وحقيبة ظهرها تحت رأسها على شكل وسادة. فبعد ما قاله الرجل المسلم، سوف لن تخاطر في اقتسام أي شيء كان معه. رغبت في أن تحكي لكاميرون عن التهديد، حتى ولو لم يكن الشاب يفكر جدياً بفعل ما يقول، فتحتَ ضغط الغضب والرعب، باستطاعة الناس قول كل أنواع الكلام الذي كانوا سيتأسفون عليه لاحقاً.

مهما يكن الأمر، فقد شعرت بعدم قدرتها على استجماع الطاقة اللازمة لتنهض.

كانت الحبوب قد ذابت في جسدها، وبعثرت مجسات صغيرة من الراحة في كل أنحائه، مطرّية عضلاتها. طوبى لتلك السيدة بريدشت، هذا الملاك غير المتوقع!

كان كاميرون يقطع على مهل الغرفة، ملوحاً بالهاتف الذي معه كما لو أنه عصا مستكشف. التفتت إيما كي تنظر إليه وهو على مستوى نظرها، كان هناك نوع من السلام ينبعث منه، لكن فجأة،

انفتحت أمام إيما بحيرة واسعة ضبابية راحت تجذبها بقوة لا تقاوم. تركت نفسها تنسحب نحو لجّتها، مصممة أن تحذره ساعة تستيقظ. من الآن لذاك الوقت، لا بد وأن النجدة تكون قد وصلت، ولن يعود هناك أي أهمية لمثل هذا الحديث.

قام طارق حسين بتكشيرة وهو ينظر إلى ساعته ذات الشاشة الرقمية. كانت الساعة السابعة عصراً، إنه وقت الصلاة، لكن ساعة صلاة العشاء كانت قد فاتت. كان قد تخلف عن صلاة الظهر، وتخلّف عن صلاة بعد العصر، عندما هاجمه هذا الجبان، هذا الرجل الأفرو ـ أمريكي من الخلف، وطرحه أرضاً. عند تذكر هذا الأمر، شعر بالغضب يقلب له معدته، الغضب والخيبة. لأن لو لم يوقفه هذا السافل وهو في اندفاعه، لكان في هذه اللحظة في الخارج هو وكل الموجودين هنا. فإن كانت قد فاتته صلاة الظهر، فذلك تماماً بسببه. كان طارق صادقاً بما يكفي ليعرف ذلك. لم يجرؤ على إخراج سجادته ولا قبعته السوداء المخصصتين للصلاة، ولا أن يركع في زاوية من الغرفة، خوفاً من لفت الانتباه إليه، سوف يقوم بالتكفير عن هذا الأمر لاحقاً.

حكّته لحيته من جديد. أمسك عن الرغبة في حكّها بكامل يديه، كان جلده حساساً جداً، يهتاج لأي حركة، وهو لا يريد الاهتمام بهذا النوع من المشاكل الآن. كانت آمي، التي لم تكن تحب لحيته، تطلب منه كل الوقت أن يحلقها. سخرية الموقف جعلته يضحك. خلال عدة سنوات، توسلت إليه آمي كي يهتم بالدين بطريقة جدّية أكثر، كانت قد بكت وأظهرت له استياءها كي يكون أكثر حذراً في

المدرسة، فقد كان لا يهتم إلا بشرب الكحول، وبالمشاجرات، التي كانت تسبب له الطرد من المدرسة. لكن عندما تغّير، أصبحت والدته أكثر حرصاً من أن تبتهج، ذلك لأن أميركا كانت قد تغيرت هي الأخرى: فالأشخاص الذي هم من أمثالهم كانوا مُلاحقين بعين حذرة في المخازن الكبيرة، وفي دور السينما، وقد يحضر البوليس إلى مكتبك، أو إلى بيتك، كي يطرح عليك بعض الأسئلة، وآمي كانت تتنهد بارتياح وهي تقول لصديقاتها اللواتي يحضرن كي يأخذن كأساً من الشاي في بيتها، أنها لم تكن مستاءة من ابنها لكونه أصبح متأثراً بالغرب لهذه الدرجة.

أولى علامات التغيير التي ظهرت عند طارق كانت المشاجرة مع زملائه (في ذاك الوقت، كانت أغلبيتهم من البيض) بشأن الهجوم على برجي التجارة، وتفجيرات الانتقام في أفغانستان، كما الهجوم على العقيدة الإسلامية. وكي يبرهن عن دفاعه بأدلة قاطعة، راح يقرأ الكتب التي لها علاقة بالموضوع، فأفرط في البحث في مواقع الانترنيت عن الأسماء الغريبة، وعن الأفكار المربكة، ويبقى ساهرا حتى تباشير الفجر في محاولة منه لحلها. بدأ يتبادل رسائل مع أشخاص متبايني الرأي كانوا يدعمون أقوالهم بأفعال. ورغبة منه، لا أكثر، في تجريب الأمور بطرق مغايرة، توقف عن شرب الكحول. في أحد الأيام وجد بين أشيائه القديمة لباساً تقليدياً، «سلوار كميص»[13] الذي كانت والدته قد اشترته له من الهند (والذي اندفع وقتها لرميه في أقصى الخزانة) وارتداه كي يذهب إلى الجامع. وبما

---

[13] طقم مؤلف من بنطال وسترة طويلة.

أنه قد استحسن نظرات الإعجاب الملقاة عليه من الفتيات، خاصة من إحداهن بالذات، ارتدى هذا اللباس في المرة التالية. نعم، من الأفضل أن نقر ونعترف: كانت النساء هن المسؤولات بشكل أو بآخر في تغييره لأفكاره السياسية.

عندما راحت صديقات آمي ينصحْنها بخلع حجابها، أجلس طارق أمه على الكرسي، وأخذ يديها بين يديه. قال لها بأنها يجب أن تتصرف كما يمليه عليها إيمانها وليس كما يقول لها الناس ممن حولها، خاصة، يجب عليها ألا تنقاد بدافع الخوف. لم يأتِ خطابه بالفائدة المرجوة. فقد طوت بعناية أوشحتها ورتبتها في الجزء السفلي من جارورها. مع ذلك، من وقت لآخر، كان يباغتها وهي على وشك إلقاء نظرة عليها وهي تسوي قبعة الصلاة أمام المرآة قبل أن تذهب إلى الجامع يوم الجمعة مساءً. كانت تمتزج على وجهها تعابير الفخر والذهول. وأحياناً، وبطريقة غير منتظرة إطلاقاً، كان هو الآخر يُصاب بالذهول نفسه. ما الذي غيّره؟ هل هو الحادي عشر من أيلول... أم فرح؟

تفكيره بفرح ساعده على النهوض. حاول أن يقف مستقيماً لكن الألم اخترق رقبته، فبصق بشتيمة على الرجل الأفرو ـ أمريكي. رتّب غضبه في جارور صغير مظلم، في عمق رأسه. لم يكن هذا بالوقت المناسب، يجب عليه الآن أن يُطهّر قلبه، ويمجد الله، ويسأله مساعدته وبركته، خاصة لأجل آبي وآمي، لتُحِطهم الملائكة وتحمِهم بأجنحتها. مدّ يده في العتمة حتى أمسك بمحفظة أوراقه الصغيرة التي كانت لم تزل موضوعة بشكل مستقيم كما تركها وهو جالسٌ على الكرسي، إلا أن الكرسي كان قد اختفى. كانت هذه

أعجوبة صغيرة يجب عليه التوقف عندها لاحقاً. فرد سجادة الصلاة، ووضع قبعته الصغيرة. حاول أن يتعرف على وجه القبلة، لكن العتمة والخوف قد أربكاه تماماً. (تخلص من غروره كي يتقدم أمام الله، فأقرّ بأن الخوف كان يزداد ويتضخم كل دقيقة في صدره، قاطعاً عليه نفَسه) قرر أخيراً أن يدير وجهه عن الباب الذي منعوه من فتحه.

– تمتم، «الله أكبر، سبحاااان اللهم بحمدك».

كان يحاول الاحتفاظ بالنعومة في كلماته التي كانت قد اجتازت القرون والقارات حتى تصل إليه. خلف شاشة أجفانه المحمّرة حاول تصور الكعبة حيث في يوم من الأيام، إن شاء الله، سوف يزورها أخيراً. (أحياناً، كانت الصورة تبدو شديدة الوضوح، محاطة بالفضة، كما سحابة عاصفة: ملايين الأشخاص الراكعين بتناغم، جباههم مستندة على الأرض أمام الحجر الأسود، كان هذا اتحاداً يكاد طارق أن يموت رغبة في معايشته). اليوم، كل ما يستطيع أن يراه، كان وجه فرح، مضيئاً بابتسامة ساخرة، طالما جعلته غاضباً في الماضي.

دخلت فرح حياة طارق بشكل غير مؤذ تماماً، كما قطاعة الورق تنزلق بين طيات مظروف، تفتحه، وتنشر مقتنياته السرية. اسمها كان آهة شاعر ملتهب بالرغبة، لكن حتى طارق، كان يعلم بأن لا علاقة لاسمها حقيقة بباقي شخصيتها. كانت نحيفة جداً وبالغة الطول كي تلبي مقاييس الجمال الهندية، ذكية وكتومة، لكنها تملك عادة مربكة في التحديق بمن يتحدث إليها مباشرة بعينيها الثاقبتين، المرسومتين بالكحل، بطريقة تعطي الانطباع عن

تصديقها حقاً لما يُقال لها.

فرح، ابنة أعزّ صديقات آمي، كانت قد وصلت إلى أميركا منذ عامين خليا، ضمن إطار تبادل مع جامعة مرموقة في دلهي. (طارق، الذي كان حتى الساعة، يتابع دراسات متفرقة، كان حينها في العام الدراسي الأخير للمدرسة الثانوية ويقدم المواد التي كان قد تركها في الفصل الدراسي السابق) كانت فرح لامعة، لكن كان من الأفضل لها ألا تأتي إلى أميركا. والدتها، المرأة الأرملة الجاهلة تماماً بكل ما كان يجري حقيقة بالحرم الجامعي في مدينتها، أُصيبت بالرعب لرؤية ابنتها تذهب إلى أحد تلك المهاجع الأميركية التي كانت تُدار من قبل الثالوث المؤذي للكحول، والمخدرات، كما للجنس. لم تسمح والدة فرح لابنتها بالمجيء إلا بعد مناقشات مبللة بالدموع مع آمي، ووفق شروط معينة: على فرح أن تعيش عند آمي خلال كل فترة إقامتها، ستذهب إلى الجامع مرتين أسبوعياً، لن تحتك إلا مع هنود مسلمين، وسوف تُرافق باستمرار من أحد أفراد عائلة حسين، أينما راحت أو غدت. ونتيجة انشغال آبا الشديد بشركة التنظيف خاصته - التي ازدهرت بسرعة كبيرة لدرجة أنه قام بتشغيل عدة عمال مؤخرا - ونهارات آمي الملأى بنشاطات نسائية غامضة، غالباً ما كانت هذه المهمة توكل لطارق الإنسان الطبيعي، أكثر منه أحد المتمردين.

منذ البداية، أرعبته فرح لأقصى درجة. بالرغم من أنها كانت تظهر شديدة التهذيب، لكن كان ينبعث منها نوع من الرفض الدائم الذي دفعه للتشكيك بأسلوب حياته التي كان يعتقد دوماً أنها كانت هادئة ومتوافقة مع آخر صيحات الموضة. عكس كل الهنديات اللواتي استقبلوهن في بيتهم، لم تكن فرح تهتم بآخر

أغـاني «الفـوغ» أو بـالأفلام أو بـالمجلات. لم تكـن تجـذبها آخـرٍ صيحات الموضة لا في الثياب ولا في التبرج. في يوم من الأيام، وعملاً بخلقه السامي، اقترح عليها الذهاب إلى أحد مراكز التسوق، وربمـا بعد ذلك، إلى إحدى علب الليل، هـذا إن وعدتـه بـألا تـأتي علـى سيرة ذلك أمام الأهل. كان يجب عليهـا أن تـرى مـا الـذي يجعـل «أميركا» تدعى أميركا. لكنهـا رفضـت مفضـلة الـذهاب إلى متحـف الفن المعاصر. وهكذا، أفسـدت عليـه بعـد ظهـره هـذا. كـان ينجّـر وراءها أثناء امتحاناتهـا، باهتمامهـا غـير المحتمـل، أمـام لوحـات مغطاة بخطوط ملونة، وأشخاص عراة وقبيحين.

في طريق العودة، كانـت تبـدو بحيويـة غـير اعتياديـة. لم تكـن تتوقف عن التحدث عن الغزو في الفن الهندي المعاصر مـع الفنـانين الإسلاميين الرواد كالفنان «رازا» و«حسين». شعر طـارق بنفسـه أنـه أحمـق، فهـو لم يسـبق لـه أن سمـع أحـداً يتحـدث عمـا يُسـمى «فنانين»، ولا حتى ذاك الذي يحمل اسمه نفسه. وكي ينـتقم، راح يعدد كل تلك الأشياء التي كرهها في الهند خلال كل فترات إقامته هناك، والتي كانت مفروضة ومجبراً عليهـا مـن قبـل أهلـه. كانـت غاضبة جداً، رأى هذا واضحاً من خلال رعشة منخريهـا. احتجـت قائلة: من السهل أن ترى مشاكل الهند، لكن هل أنت قـادر علـى رؤية مشاكل أميركا؟ كان عليه أن يذهب نحوجواب كلاسيكي لهذا النوع من المواقف فأجابها قائلاً: «إن كان هناك العديد من المشـاكل الأميركية، فما عليها إلا أن تعود أدراجها إلى بلدها». علـى الفـور، أدارت فـرح وجههـا نحـو واجهـة السـيارة الزجاجيـة. بعـد عـدة دقائق، مسحت دمعة على خدها. كانت يداها ملطخـتين بالكحـل.

مرّ زمن لم يشعر فيه أنه أخرق، بالرغم من أنه كان يصادف أن يقول أشياء قاسية للفتيات اللواتي كان يخرج معهن. ربما يعود السبب في أن فرح لم تكن تحمل منديلاً، وأنه ترجم ذلك كعلامة على أنها لم تكن تتوقع منه أن يجرحها. أوقف السيارة على طرف الطريق وقدم إليها اعتذاره. لم تجب، لكنها اكتفت بأن هزّت قليلاً رأسها. ذكّرته عظمة ترقوتها الدقيقة والرقيقة، دون أن يدري لماذا، بفرخ طائر هش. في هذه اللحظة بالذات شعر أنه قد وقع في حبها.

في اليوم الذي كان يتعافى بصعوبة من نزلة وافدة، جاءت فرح إلى غرفته حاملة له كأساً من الماء المحلى الذي جهزّته له آمي. وضعت يدها على جبهته لترى إن كان لم يزل محموماً، ومن ثم داعبت له لحيته غير الحليقة منذ يومين.

– إنها تليق بك كثيراً. قالت له.

كانت كل دفاعاته قد سقطت بسبب الحرارة، وتأثر من تغير نبرة صوتها، شيءٌ ما في جِرْسه كان يشده إليها. توقف عن حلاقة ذقنه منذ هذا التاريخ. في المساء، عندما كان والداه يضايقانه بالأسئلة عن السبب الذي دعاه ليأخذ هذا القرار الآن، في أسوأ الأوقات الممكنة، كانت فرح تخفض بصرها بهيئة وديعة. أضحت اللحية نوعاً من الشِفرة في ما بينهما. اليوم أيضاً، بعد عام من مغادرة فرح لتعيش في الهند (حيث كانت تنتظره للحاق بها). يكفي أن يغلق عينيه كي يشعر برقّة أصابعها المعبرة عن الرضا وهي تجوب فكّه.

– أعيروني انتباهكم، من فضلكم.

هزّ صوت كاميرون طبلة أذن طارق وجعلته يعود فجأة إلى الواقع. انتبه إلى أنه كان راكعاً وجبهته ملتصقة بالأرض. قام بصلاة

المساء دون أن يعير أدنى اهتمام للكلمات المقدسة. لم يعمل هذا الإحباط، مضافاً إليه اختفاء صورة فرح، إلا على زيادة حنقه من الرجل الأفرو ـ أمريكي.

– يجب أن نكون مقلّين في الطعام والشراب، شرح كاميرون، . هذا سوف يساعدنا على عدم الشعور بالجوع والعطش لاحقاً. إذا كان بالإمكان تشكيل رتل أمام الكوة، فسوف أعطي لكلٍّ منكم حصته اليومية. سوف تكون الكمية مخفّضة، فأنا أخشى حقاً...

نهض طارق بقفزةٍ واحدة عن سجادته، فضرب ركبته بأحد قطع الأثاث، كان هذا أيضاً بسبب الرجل الأفرو ـ أمريكي الذي كان قد أطفأ مصباح الشعلة الكبير. الضوء الوحيد الذي كان باقياً، هو ضوء مصباح الجيب الباهت. إنها إحدى الجوانب الصغيرة الإستراتيجية لإدارة كل شيء. قال طارق في نفسه، وصرخ:

– لمَ يجب عليك أنت أن تقرر ما يجب علينا فعله؟ بأي حق تعطينا الأوامر؟

رنّ صدى صوته عبر الجدران قوياً، حتى لأذنيه هو. رأى الوجوه تلتفت نحوه، مذعورة. عض لسانه كي يجبر نفسه على السكوت. يجب عليه أن يعي أن كاميرون كان على حق، وأن الجميع يقف معه. لكنه تابع قائلاً:

– هنا مكتب هندي، وإذا كان على أحد أن يعطي الأوامر، فهو مدير الخدمات.

لكن مانغالام، أحنى رأسه والشعر في عينيه. بدا في ضوء المصباح الشاحب تائهاً. كان يتحقق من خطوط الهاتف كل خمس دقائق وانتهى به الأمر بتقبل أن الاتصال قد قُطع بالفعل، وأنه سوف لن

يصلح بالتأكيد، قبل أن يمر وقت لا بأس به. هو لا يريد تحمل مسؤولية كل هذه الحيوات. في شبابه، قبل أن يأخذه الزواج والمركز الدبلوماسي إلى فخه، بوعوده الكاذبة بالتألق والكسب السهل، درس الكيمياء. كان كل شخص موجود الآن في الغرفة بمثابة أنبوب اختبار لديه، حيث يمكن للخليط فيه أن ينفجر إذا ما أُضيف إليه قطرة صغيرة من عنصر سيء. وقد كان المسلم الشاب في الواقع خير دليل على ذلك. لكن مانغالام لم يكن يريد أن يكون في الخطوط الأولى لحظة الانفجار، لم يشعر أنه يملك روح البطل. ألم يكن هذا هو السبب الذي من أجله كان قد وافق على قبول مركز في الغربة بالأحرى عن مواجهة السيدة مانغالام؟

– فقال: السيد كاميرون غرانت الحاضر هنا، خدم في الجيش الأمريكي. وهو معتاد على المواقف الخطرة. إنه يعرف ما الذي عليه أن يفعل أفضل مني. أنا أرتئي بأن نتبع تعليماته، ونتعاون معه.

خرجت أصوات أخرى توافقه الرأي، تاركة طارق وحيداً.

شعر الشاب في فمه بطعم الصدأ. أيها القميء، فكر وهو يحدق في مانغالام. هذا الرجل هو مثال حقيقي للهندي الشرير. يكفي أن يظهر غريب ما، حتى ولو كان أفرو ـ أمريكي حتى يقوم بالتبجيل والخضوع. راز طارق إمكانية عدم طاعة كاميرون، لكن قبل كل شيء هو محتاج إلى مناصرين.

صبراً علي، قال لنفسه. بعد أن تناول طعامه وطلب من الشابة ذات المعصم المكسور أن تجلب له حبتين من الأسبرين، سوف يتكفل بإسماع وجهة نظره. إنشاء الله، قد يمكن له أن يرى ممراً لم يستطع الآخر رؤيته، أو حلاً للخروج من هنا. بعون الله، سوف يكون طارق، هو من ينقذ الجميع.

4



قسّم كاميرون مؤونتهم الغذائية إلى حصص صغيرة: شطيرة من الحبش، ثلاث بيضات مسلوقة مع ملح مغلّف بمربعات من ورق الألمنيوم، وباقي سلطة كانت السيدة بريدشت بالكاد قد لمستها. أخرج تسعة مناديل ورقية (تلك التي تعلن بأسلوب موجع «سفراً سعيداً» بأحرف ملونة) ووضع فوق كل واحدة ورقة من الخس. قطّع البيض إلى تسع قطع بسكين الزبدة، باذلاً جهده كي يكون لكل قطعة الحجم ذاته، وضعها على ورقة الخس، ورش فوقها الملح. قطع أيضاً الشطيرة، لكنه وضعها جانباً لأنه لم يكن متأكداً أن الجميع يأكل اللحم. كانت هذه الحركات دقيقة وحذرة. كما لو كان هذا سوف يخلف أي اختلاف.

انتهى الأمر بمالاتي في الخروج من مكتب مانغالام، بعد أن قرعت ليلي الباب بهدوء شديد، متبعة تعليمات كاميرون، حتى لا تخاطر بهدم هشاشة بنيان الغرفة.

– كفي عن الحرد وتعالي لتتناولي الطعام، قالت لها ليلي بلهجة جافة.

ربما التوبيخ بهذا الشكل من قبل مراهقة، جعل مالاتي تعيد التفكير في تصرفاتها، وتخشى بأن لا تأخذ حصتها من الطعام.

مهما يكن الأمر، فقد خرجت، لكنها لم تتخلص من هيئتها المتبرمة. يداها متصالبتان فوق كلمات «إلى الأمام أيتها الدببة» المكتوبة على صدر السترة التي كانت ترتديها. كاميرون، الذي كان يجهز لسفره إلى الهند، والذي كان قد قرأ الكثير عن عاداتهم، فهم تماماً سبب خجلها. والسخرية في الأمر هو أن السترة التي كانت ترتديها كانت تغطي جسدها أكثر بكثير من وشاح الساري والقميص النسائي التي كانت ترتديه منذ قليل. لكن أعراف وتقاليد كل بلد تبقى غامضة أمام كل هؤلاء الذين لم يكونوا قد تعودوا عليها.

مع ذلك، كانت تنورة مالاتي التحتية التي كانت بلون أزرق سماوي محاطة بحاشية متحركة، تبدو أنيقة. كانت قد فقدت «البيدني»[14] الحمراء خاصتها - لا بد وأنها كانت عبارة عن قصاصة ورق لاصقة - وتطايرت خصلة من شعرها المرفوع واعترضت صفحة وجهها، فجأة، بدت كأنها أصغر سناً. كانت لم تزل رافضة التحدث مع كاميرون، وهو بدوره، مدّ نحوها بالمناديل الورقية وبالسكين دون أن يوجه إليها الكلام.

أوكل كاميرون مهمة توزيع الطعام إلى ليلي. كانت تلك طريقة لجعلها تنشغل.

حتى الآن ظهرت ليلي هادئة بصورة مدهشة في ظروف ترعب أي يافع. لم ترتجف يدها على الإطلاق وهي تمسك بها مصباح الجيب بينما كان كاميرون يضمد جرح جدتها، ويعيد عظمة رسغ

[14] Bidni: حلية على شكل قطرة، توضع فوق الجبين، للدلالة على الانتماء الديني أو الطبقي.

إيما إلى مكانها. اكتفت بسؤالها إن كانت صحة جدتها ستتحسن. بالرغم من كل ذلك، فقد كانت تشعر بنوع من نفاد الصبر الذي يغلي تحت جلد المراهقين. بعض الجنود اليافعين كانوا يتصرفون بالطريقة نفسها. لهذا كان لزاماً عليهم ملء وقتهم، فهم يجب أن يشعروا أنهم مفيدون، كان يجب أن يروا حسن سير العمليات، والتي بدونها يكونون معرضين للانهيار.

كان قد عهد بهذه المهمات إلى ليلي بسبب اتهامات طارق. اجتاحته ضحكة ساخرة عندما وجّه الشاب حديثه نحو الحشد. إذاً هكذا هو الأمر، يعتقد هذا الفتى بأنه هو، كاميرون، يعتقد نفسه أنه في مركز السلطة، ويحاول أن يسيطر؟ أراد أن يضع ساعده قرب ساعد طارق، ويظهر له إلى أي درجة جلده قاتم أكثر منه. يشرح له ماذا يعني أن تنشأ في لوس أنجلوس دون مال، وبجلد أسود. لكن مع ذلك، كانت هذه الاتهامات قد أثّرت فيه.

لمَ هذا الشعور بالذنب؟ هل لأنه ضرب طارق؟ أو كونه استخدم العنف عندما كان بمقدوره أن يجد ما قال عنه «رجل الدين» أنه الطريقة المثلى؟ عبرت كلمة «آهيمسا[15]» ذهنه، كان قد قرأها في كتابات غاندي. أبعد عنه هذه الفكرة وهو خجل قليلاً. إنه ليس وقت التفلسف، كان بإمكان طارق أن يقتلهم جميعاً لو أنه نجح في فتح الباب. لكن ذهنه، المخادع، جعله يتذكر في أنه قتل الكثير من الناس في حياته أكثر بكثير مما كان طارق سوف يقتل.

كي يبقي أفكاره بعيداً، شرع كاميرون يقدّر ما عندهم من ماء

[15] Ahimsa: تعبير سنسكريتي يعني «اللاعنف».

الشرب: أربع زجاجات صغيرة من الماء لم تكن أي منها ممتلئة كلياً. إن هو أعطى كل واحد منهم كأساً صغيراً منه، فسوق لن يبقى منه شيء. لكنه لم ير أن باستطاعته إعطاءهم أقل من ذلك.

كان السيد مانغالام يأكل قطعته من البيض بلقيمات صغيرة، ويتلذذ بها بعيون مغمضة. سأله كاميرون إن كان هناك شيء آخر قابلاً للشرب، ربما زجاجات كان قد نسيها؟ أسطوانة احتياطية في المستودع؟ بقايا شاي؟ فتح السيد مانغالام عينيه على مضض وقام بإشارة « لا » برأسه.

وإذ بمالاتي تقول: هناك غرفة الحمام.

تحت نور مصباح الجيب، كانت عيناها تلمعان، باردتين، بينما كانت تشير بأصبعها ناحية السيد مانغالام.

- غرفة حمّامه.

ارتاب الجميع فوراً بالسيد مانغالام لكونه أخفى عمداً وجود غرفة الحمّام هذه، لكن ربما لم يكن الأمر هكذا. فالهزّة الأرضية ونتائجها جعلاه ينسى كل شيء، حتى غرفة حمّامه. دون شك، كان سيتذكرها بعد عدة ساعات، مدفوعاً برغبة ملّحة، وسوف يكشف لكاميرون عن وجودها. لكن هذا النسيان كان له ربما أسباب فرويدية، لأن غرفة الحمام هذه كانت تشكل دوماً بالنسبة له منطقته الخاصة المُصانة جيداً.

هذه الغرفة الصغيرة كانت بناءً غير نظامي حيث لا يمكننا الدخول إليه إلا من غرفة مكتب السيد مانغالام، وقد كانت موضوعاً للثرثرة الدائمة بين مالاتي وزميلاتها في العمل، خاصة وهن في

طريقهن إلى غرفة حمـام السيدات، في نهايـة رواق طويـل ومهـدم، تفوح منه رائحة العفن. وبما أن ولا واحدة منهن قد سبق لهـا ورأت غرفة الحمام الشهيرة هذه، فقد أخذت في مخيلـتهن أبعـاداً مبالغـاً فيها.. كن يتخيلنها ملأى بهذه الأشياء التي كن يرينها في مجلات الزخرفة التي كـن يشـترينها بالمناسبات مـن كشـك الجرائـد عنـد خروجهن من محطة قطـار الأنفـاق. مرايـا عاليـة كالجـدران، فـوط ناعمة، صابون سائل معطر بزجاجات مـن الكريسـتال، جـاكوزي، وحتى بيديه. كن يتحدثن عن ذلك بحسد، لكـن دون أسـى، ففـي العالم الذي هن فيه، كان من الطبيعي جداً أن يملك رئيسهن حماماً خاصاً به، بينما كان يجب على المرؤوسين اجتياز المبنـى كلـه كـي يصلوا إلى حمام مشترك مع موظفي عدة أقسام.

كانت مالاتي واقعة هي الأخـرى تحـت تـأثير هـذه الرؤيـة مـن الأمور، حتى اليوم الذي بدأ فيه السيد مانغالام بالاهتمام بها. كلمـا كان هذا الاهتمـام الصـغير يـزداد، كلمـا كـان الأمـل يتفـتح داخـل صدرها. كانت تباغت نفسـها وهـي تفكـر إن كانـت حقـاً تعجبـه، وأخذت تحـدد أوقـات اسـتراحتها بمـا يـتلاءم مـع أوقـات السـيد مانغالام ضاربة عرض الحائط ثرثـرات زميلاتهـا. كانـت تـذهب إلى مكتبه عدة مرات في اليوم كي تسأله ما العمل مع بعـض الطلبـات، بينما كانت تعرف تماماً كيف كان يجب عليها أن تتصرف. كانـت تنتظر إجاباته، مستندة علـى بـاب الحمـام، في وضـعية مسـترخية تظهر بشكل واضح انحناءاتهـا. أسـفرت إسـتراتيجيتها عـن علبـة شوكولا، وعن قبلة اليوم، لكـن لم تسـفر عـن الكـلام الـذي كانـت تتحرق لسماعه: دعوة لاستخدام غرفة الحمام التي كـان بمقـدورها

كنس الابتسامة الوافية للسيدة مانغالام، وبذلك يبرهن لمالاتي بأنه لا يعتبرها مجرد غزو صغير عابر.

اليوم، وهي تتحصن في غرفة مكتب السيد مانغالام، انتبهت مالاتي إلى أن هذه ربما تكون الفرصة الوحيدة أمامها كي تستكشف غرفة الحمام الشهيرة. بمجرد أن تعودت عيناها قليلاً على العتمة، فحصت بدقة كل ركن من أركانها، فاكتشفت أن الحجرة لا تشبه في شيء تلك التي تخيلتها هي وزميلاتها. فقد كانت صغيرة جداً ومستطيلة الشكل حُشرت فيها دورة مياه ومغسلة. وكما باقي البناء، كانت الحجرة قديمة وبلا روح. بدت لها الحواف بالية وغير منتظمة تحت ملمس أصابعها، كان مكان تثبيت لفّة ورق الحمام مخلوعاً. الشيء الوحيد الشخصي الذي كانت تحتويه كان منتَج ممتص للروائح الكيميائية، وزجاجة من غسول الفم. غسلت مالاتي فمها بها بجرعات كبيرة. كان مانغالام وبقية العالم يدينون لها بذلك. كان غسول الفم مرّ الطعم ومنكهاً بطعم النعناع، كما الحب، قالت لنفسها. من ثم طقطقت بلسانها، غاضبة للفكرة التي عبرت ذهنها. في النهاية، عادت فرجعت إلى غرفة المكتب، وراحت تتظاهر أنها تفتش بين أوراق الملفات، دون أن تنتظر في الواقع اكتشاف أي شيء. لكن فجأة، وقعت يدها على شيء ما فابتسمت في العتمة. حالياً، سوف لن تقول شيئاً فيما يخص اكتشافها هذا.

عندما أدخلت مالاتي كاميرون إلى هذه الغرفة، بدا سعيداً كما لو كان قد فُتح أمامه جناح ملكي في فندق. فتح الصنبور ليسيل الماء قليلاً كي يتأكد أنه نظيف، وسأل مالاتي إن كان هناك أوعية يمكن ملؤها، وقد كانت موجودة. فلوازم حفلات القنصلية كانت قد

أرسلت. بالرغم من مذكرات الاعتراض المتعددة التي أرسلها مانغالام للأشخاص في الطوابق. كي تُخزّن في مستودع في أقصى المكتب الموجود وراء الكوة. عند التفتيش فيها، وجدوا طبقين للسلطة من البلاستيك المقلد للكريستال، مغارف، وقدراً كبيراً ذا مقبض لغلي ماء الشاي، وآخر لماء القهوة (يجب على الأخص ألا يخلطوا بين هذين الاثنين!) ومئات الطاسات المكتوب فوقها «سفراً سعيداً» المشتراة لأجل حفل الوداع الذي أُقيم على شرف المدير السابق لمانغالام. كان يوجد أيضاً عدة علب من الكبريت من «مادراس محل» وست عشر شمعة عيد ميلاد زرقاء، حيث أثار وجودها الجميع، حتى أشار إليهم ماركوس أنه من غير الوارد على الإطلاق إشعالها، بما أنه من المحتمل أن يكون هناك تهريب للغاز في مكان ما من المبنى.

بالرغم من كل هذا، فقد شعر الجميع أنهم أفضل حالاً بقليل، وراحوا يتبادلون الحديث وهم يصطفون بالدور أمام باب الحمّام. امتلأت الكوة خلال وقت قصير بالطاسات الملأى بالماء، كانت تلمع كبركة من الفضة عندما كان كاميرون يوجه فوقها ضوء مصباح الجيب مانحة الغرفة هيئة احتفالية غير منتظرة. أعطى كاميرون طاسة من «سفر سعيد» للجميع والتي كان من المكن ملؤها من مغسلة الحمام كلما شعروا بالعطش. «بهذه الطريقة، قال لهم، يمكننا الاحتفاظ بزجاجات المياه إلى حين، لكن بالتأكيد، سوف يكونون قد تخلصوا من هذا المأزق حتى ذاك الوقت».

لاحظت إيما أن كاميرون كان سعيداً لاستطاعته أن يقول أخيراً شيئاً ما كان الجميع بانتظار سماعه. مع ذلك، كانت هناك أفكار أخرى تدور في رأسه، لكنه كان يفضل الاحتفاظ بها لنفسه. سمعت إيما بصوت ضعيف هذه الأفكار: «قريباً قد ينفد ماء الصنبور، ومع

ما يبقى من طعام، سوف لن يعود بإمكاننا تقديم أي وجبة». كانت سعيدة بكونه لم يقل كل هذا وترك الجميع يستفيد من هذه اللحظة.

عندما جاء دورها لتدخل إلى غرفة الحمام، ألقت إيما نظرة على انعكاس وجهها في المرآة في ضوء مصباح الجيب الذي أعاره لها كاميرون (احتُفظ بمصباح الشعلة لأجل الاستعمال الجماعي، كما عند توزيع الطعام، أو في حالات الخطر). في ظل هذه المساحة الضيقة لشعاع المصباح، بدا وجهها شاحباً، وغريباً أكثر منه في أي وقت مضى. داعبت وجنتيها اللتين بدتا لها أكثر بروزاً، وأكثر مأساوية من العادة، وتساءلت ما الذي يمكن أن يدور في أذهان الآخرين عندما سينظرون إلى انعكاس صورتهم في المرآة. شربت ثلاث طاسات من الماء، وبللت رقبتها، مندهشة من الطبيعية التي انبثقت من هذه الحركة. لم يزل الألم يمضّ معصمها، لكنها كانت قد اعتادت عليه كما نعتاد على إحدى العمّات الخرفات. بقدر ما كان الألم يتضاءل، بقدر ما كان فضولها يعود ليطفو على السطح من جديد. أخذت تتخيل حياة رفاقها في هذه المصيبة، السيئ الحظ هؤلاء، وبالأسباب الخفّية التي من أجلها كانوا ينوون السفر إلى الهند.

نصح كاميرون الجميع بالخلود إلى الراحة. إن بقيت خطوط الهاتف كلها مقطوعة حتى استيقاظهم، فيجب عندها محاولة فتح الباب. سرت همهمة بين المجموعة، وشعرت إيما بقشعريرة تنزلق على طول رقبتها، خليط من القلق وحثيث الاستعجال. ومن ثم سرعان ما عاد ذهنها يتشتت من جديد حول قصص هؤلاء الذين كانوا يحيطون بها. هل سيحالفها الحظ بسماع البعض منها قبل أن يخرجوا؟ هذه الفكرة منحتها طاقة متجددة.

عندما عرض كاميرون أن على اثنين منهم أن يتناوبا الحراسة، تطوعت أن تقوم هي بذلك.

جلس السيد بريدشيت، المتطوع الثاني، مستلقياً فوق كرسيه، مثبتاً نظره في أقصى الغرفة. كانوا قد أطفؤوا المصباح؛ ففوجئوا بأنهم كانوا يرون بشكل جيد في الظلمة. هل اعتاد نظرهم على العتمة كمخلوقات المغارات؟ أم أنها كانت تلك مخيلتهم هي التي جعلتهم يرون الأجساد المستلقية، المنهكة من القلق، كما كل هؤلاء الذين كانوا يتحركون باضطراب غير قادرين على إيجاد الراحة؟ كان الجميع متقوقعين تحت الطاولات أو الكراسي، متكورين عكس بعضهم البعض في مجموعات صغيرة مدمجة. كان من بينهم من سعى إلى بعض الدعم من التقارب، وآخرون ناسبتهم الزوايا، فتمددوا فيها على طولهم. آه، على لغة الجسد، كان من المذهل رؤية إلى أي درجة يُظهر ما هو مدفون في كل رأس.

حاول السيد بريدشت أن يميز جسد السيدة بريدشت المستلقي بين كل هذه الأجساد. كان حريصاً جداً على النظر في المكان الذي كانت تجلس فيه عندما أطفأ كاميرون المصباح.لكنه لم يرها. مسح بنظره كل القاعة الغارقة في العتمة. أتراها قد غيّرت مكانها؟ تخيلها تحاول التنقل كما السرطان وسط الحطام كي تصل إلى فجوة في المكتب وتختفي بها. من ثم، لم يلبث أن تشوش من هذه الصورة الغريبة التي راودته. لكنكان الوضع هكذا، من اليوم الذي وطأت فيه قدماها غرفة الإسعاف. فعندما كان يجهل ما الذي هي على وشك القيام به، فإن عقله الشديد التنظيم والشديد العقلانية في العادة، يبدأ في التشوش.

ضغط أصابعه على القداحة الموجودة في جيبه. ربما كان تدخين سيجارة سيساعده في استعادة هدوئه. نفحة أو اثنين، لا أكثر. كان هناك علبة جديدة من الدنهيل في الجيب الآخر للسترة، لكن كان من المستحيل التدخين، والجندي الأفرو ـ أمريكي كان على حق، فالوضع جد خطير، قد يكون هناك غاز في الهواء.

– سيد بريدشت، همست الفتاة الشابة ذات المعصم المكسور.

كانت تفترش الأرض، على بعد متر عنه، مستندة على الجزء الأسفل من الكوة. كانت ذراعها مثبتة بقوة بوشاح من قماش بلون أزرق سماوي بلون بحيرة تاهو[16] في يوم طقس جميل. كان سبق له أن رأى هذه البحيرة وهو طفل، وتلك كانت هي العطلة الوحيدة التي قام بها هو وأمه.

– هل أنت بخير؟ سألت الشابة بصوت منخفض.

عبرته قشعريرة من الانزعاج. يا لهذا السؤال الغبي، بالطبع هو ليس بخير!

السيد بريدشت؟

شعر كمن أُسيئ إليه كونها تعرف اسمه، ولم يكن هو قد عرف اسمها. لكنه كان يجب أن يقّر أن هذا كان لطفاً منها أن تقلق لأجله، بينما كان يجب عليها أن تعيش دور الشهيدة. فالألم يجعل كل الناس أنانيين. أليس هذا هو ما حصل مع السيدة بريدشت؟

---

[16] بحيرة تاهو: بحيرة كبيرة للماء العذب في جبال سييري نيفادا في الولايات المتحدة.

– أنا بخير، أجابها بلباقة، وأضاف، ناديني لانس.

لو أن السيدة بريدشت بينهما الآن لرفعت حاجبيها دهشة. لم يكن من نوع هؤلاء الأشخاص الذين يفضلون مناداتهم باسمهم مباشرة. كان يحب الشكليات الرسمية. لهذا السبب كان يعشق عمله كمحاسب. حتى السيدة بريدشت هزئت منه في بداية زواجهما قائلة له أنه كان سيفضل دون أدنى شك لو أن الأزهار تنمو مرتبة بخط مستقيم متراص في حديقتهم، كما الأرقام في دفاتر حساباته.

– سألته الشابة : اسمك لانس؟ تُقرأ ككلمة لانس؟[17]

– إنها تصغير لاسم لانسولو. تفاجأ أنه أجابها.

خلال كل فترة طفولته، كان يصر، دون جدوى، كي يناديه الجميع «لانس». عندما دخل الجامعة، قدّم نفسه تحت اسم لانس، وعندما وصل إلى السن القانونية التي تسمح له بتغيير اسمه، غيّره.

– لانسلو، كما في بلاط الملك آرثر؟ استفسرت الشابة قائلة.

وانفجرت في ضحكة مرحة، دوّت صداها في الليل كما الجرس، أو غناء عصفور.

تساءل السيد بريدشت بينه وبين نفسه كيف بالإمكان الضحك في مكان كهذا. كان غير قادر على مثل... كيف يعبر؟ هذه القوة؟ هذه الخفة؟

– كانت والدتي تعشق قصص «كاميلوت»[18] أجاب وهو منزعج قليلاً، ومفاجئ حقاً، لأنه في الوضع الطبيعي لم يكن يتحدث أبدا عن أمه.

---

[17] Lance : تعني الرمح أو السنان.

[18] Camelot: فرسان الطاولة المستديرة في بلاط الملك الأسطوري آرثر.

– أنا أيضاً، قالت الشابة، أعشق الحكايات القديمة. حتى أني أحمل معي واحدة منها الآن. وربتت على حقيبة ظهرها، وتابعت:

– كان لانسلو فارسي المفضل.

– أنا لست مثله. ردّ السيد بريدشت بحسم.

وجد أنه من المثير للسخرية التفاخر بالرومانسية، زيادة على أنه لم يكن يحب المغامرات.

– يحدث أن نتغير ونأخذ صفة الاسم الذي نحمل، قالت الشابة. حتى أنك قد تفاجئ نفسك، أيها الفارس لانسلوت.

قد تكون على حق. عندما يفكر في هذا الآن. ألم يكن يشعر بالقشعريرة تصعد في داخله عندما كان يتلاعب بالأرقام ويتركها متوازنة على حافة السكين من القانون؟

اعترف قائلاً: مع ذلك، هذا الاسم مزعج جداً.

أراد أن يقول أكثر، أراد أن يقص عليها كيف كان أطفال المدرسة يسخرون من اسمه، وكيف وضعوا رأسه في يوم من الأيام داخل دورة المياه. من أين تخرج كل تلك الذكريات؟ كان مذهولاً من كل ما كان يرغب في سكبه في الحضن المريح للعتمة.

حرّك أصابعه، لافتقاره لوجود سيجارة بينها، وقال في نفسه يا لروعة عمل ذهن الإنسان، ونزعته في الرغبة بحماس لشيء ما لا يستطيع امتلاكه! في الأحوال العادية لم يكن يدخن أكثر من سيجارتين في اليوم، واحدة بعد الغداء، وأخرى في السيارة وهو في طريق عودته إلى البيت. لم تكن السيدة بريدشت تحب رائحة دخان السجائر، لهذا، ففي يوم العطلة، كان يخرج ليدخن في الباحة. وهي... ماذا فعلت هي بالمقابل؟ خانته محاولة الانتحار. هذا ما فعلته.

– أنا أعرف ما يعني هذا، همست الشابة، فقد أطلق والداي علي اسم آلهة. أنا في طريقي إلى الهند كي أراهما. وأنت، لماذا تريد الذهاب؟

لم يستطع التعبير بصيغة الحاضر المتفائل جداً بحسب رأيه: أرادت السيدة بريدشت رؤية الهند. أجابها، ولو أنه لم يكن الجواب الصحيح. كنا ذاهبين لقضاء العطلة في أحد تلك القصور.

– هذا رائع، هتفت قائلة، أنوي أنا أيضاً زيارة «تاج محل» عندما أصل إلى هناك، أنا على ثقة أنكما سوف تعشقان هذا البلد.

لم يكن السيد بريدشت مقتنعاً، تساءل عما كانت ستقوله تلك الشابة لو أنه قصّ عليها كيف جاءته فكرة هذه الرحلة.

بعد عودته من المستشفى، كانت السيدة بريدشت تقضي وقتها جالسة على الكنبة تنظر من النافذة. كانت مغرمة على الدوام بمنظر الجسر الذي أمامهما، وبالشمس الغاربة وراءه، والمنظر الكلي الذي كان محاطاً بأزهار الكاميليا التي قامت بزرعها بنفسها. انطلاقاً من هذه اللحظة، كانت تبقى هنا، ونظراتها تائهة، كما لو انه لا يوجد غير الضباب في الخارج. كانت حبوب الدواء التي وصفها لها الطبيب النفساني ترسم على وجهها ابتسامة غائبة كانت أسوأ بكثير من حزن مُعلن. كان السيد بريدشت يخشى تركها لوحدها، لكن، عندما لم يكن يذهب إلى العمل، ويبقى طوال الوقت إلى جانبها في المنزل، كان يبرز هذا السؤل الصامت ـ لماذا؟ ويخفق بينهما كالتهديد. كان يفتقد رائحة الفعالية والمطّهر في مكتبه، كما للأرقام المطيعة التي تتعاقب دون مقاومة الواحد تلو الآخر.

كانت مدام بريدشت دوماً امرأة باطنية تهتم بأدق التفاصيل، تتباهى بأنها كانت تدير وحدها شؤون هذا المنزل الكبير. الآن، هناك أطباق متسخة مكدّسة في كل مكان في المطبخ، الجرائد التي لم تكن قد قُرئت حتى، متناثرة على الأرض. كان هناك أكوام مزبدة من الغبار في كل الزوايا، تفوح منها رائحة اليأس، كانت مدبرة المنزل التي تأتي مرة واحدة في الأسبوع تحاول جاهدة إزاحة كل هذه الفوضى.

في مساء أحد الأيام، وبينما كان السيد بريدشت يحاول أن يرتّب قليلاً، وقع نظره على مجلة قديمة مخصصة للرحلات التي، ولا بد، كانت قد اشترتها السيدة بريدشت. كانت تحوي مقالاً عن القصور القديمة في الهند المتحولة إلى فنادق وقد امتدت على صفحتين صورة لغرفة نوم كبيرة جداً ذات أرضية من الرخام، سرير بقبّة مع وسائد طويلة حمراء، طاووس يجثم على حافة النافذة، وستائر ترتفع تحت تأثير نسمة ناعمة. لو أنه كان قد رأى هذه الصورة في يوم آخر، لكان اكتفى فقط بالقول أن كل هذا غريب ومستجلب من بلاد بعيدة. لكن في هذه اللحظة بالذات، دفعته نزعة ما ليسأل السيدة بريدشت إن كانت تريد الذهاب إلى هناك.

شيء ما لَمعَ في عيني زوجته، للمرة الأولى منذ عودتها من المستشفى.

– الهند؟ سألت.

مدّت يدها وأخذت المجلة. واليوم، ها هما محشوران هما الاثنين تحت عدة طوابق من الدمار.

لم تكن هذه غلطة السيدة بريدشت، لكن السيد بريدشت لم يتوقف عن ملامتها. لو أنه لم يقم بكل هذا لأجلها، لكان الآن

موجوداً في مكتبه، بجدرانه البيضاء، الباردة، وأثاثه المختصر، وإطلالته على الجسر الذي يجتاز الخليج، هذا الجسر ذو العوارض المتناسقة الذي كان يحب أن يتأمله عندما كان يعنّد على عملية حسابية مستعصية.

لم يقل شيئاً عن كل هذا، لكن كان لديه شعور أن تلك الشابة كانت تشعر بشيء ما. بحثت في جيبها وأعطته علكة. كيف كان بإمكانها التصرف بكل هذه البساطة؟ ألم تفهم أنه ربما لن يتم إنقاذهم في الوقت المناسب؟ احتفظ بالعلكة في كف يده، في العتمة كان هناك من يبكي بهدوء. ربما تكون المراهقة الآسيوية. وجهّت إليها جدتها كلاماً ناعماً ومهدئاً حتى استكانت.

شعر السيد بريدشت بكتلة تضغط على رقبته، لا بد وأن يكون هذا من التأثير الثانوي للصدمة. كان يريد أن يقول للشابة أنه خائف من الموت بطريقة بطيئة ومؤلمة، جوعاً أو اختناقاً. لكنه لم يشعر أيضاً بالحماسة لفكرة الموت السريع. عبرت ذهنه بشكل خاطف، ولعدة مرات، صورة جسده مسحوقاً تحت كمٍ من الركام. عوضاً عن التكلم عن هذا، نهض من على كرسيه كي يجلس وهو مرتدٍ بدلته قرب الفتاة الشابة، دون أن يتوصل إلى تذكر المرة الأخيرة التي جلس فيها على الأرض. أحس بالضيق لشعوره إلى أي درجة كانت ساقاه متخشبتين، حتى أنه شعر بالصعوبة من ثنيهما. هو الذي طالما كان معتدّاً برشاقته الجسدية، والذي كان باستطاعته الجري لمدة ساعة كاملة فوق شريط جهاز الجري في النادي الرياضي انتبه أن كل هذا لم يكن له أي أهمية. أخرج العلكة من غلافها

وعضَ عليها. ملأت نكهة الفاكهة فمه حتى آلمت حليماته.

– المس، همست الفتاة الشابة.

بيدها غير المصابة، استولت على يده اليسرى. أساء فهم نواياها، وجعلت الصدمة والاستثارة قلبه يطرق بشدة. لكنها قادت يده حتى الموكيت. كان رطباً. كان الماء يتسرب من تحت أقدامهم.

– آه، يا إلهي، هتف، سوف نغرق!

نهض بقفزة واحدة كي يحذر الآخرين، لكن الفتاة الشابة أمسكته من كاحله.

– هس! همست قائلة له. لا يصعد الماء أكثر من هذا المنسوب. لم أكن حتى أريد أن أقول لك، لكن هذا مريع أن أكون الوحيدة التي تعرف بالأمر.

نتيجة الهلع، أرسل ركلة إلى يدها. الحمقاء! سوف تقتلهم جميعاً.

– توقف! دفعته بجفاء قائلة. اتركهم يأخذون قسطاً من الراحة. فليس الأمر كما لو كان باستطاعتنا فعل أي شيء كان.

وقعت حقيقة هذه الكلمات بكل ثقلها عليه. عندما هدأت ضربات قلبه، سمع ضجيج النوم من حوله، الأنفاس التي تشهق وتزفر، كما الأمواج في خَور ما. شعر عندها برضا غريب، كما لو أنه كان يقوم بالحراسة لأجل رفاقه الفرسان المنهكين بعد المعركة. كان حارساً لأجسادهم.

5



عند استيقاظهم، كانت تفوح من الغرفة رائحة كلب مبلل.

كانت الموكيت قد تشرّبت بالماء، والمنسوب قد ارتفع. حتى وإن كانت المياه تصعد ببطء، فالضجيج الذي كان يصدر من تعاقب كل خطوة من خطوات أحذيتهم على الموكيت كان يدّوم في داخلهم أمواجاً من الرعب. لم تزل خطوط الهاتف مقطوعة، حتى الآن لم يحاول أحد إغاثتهم، مما يدل دون شك على أن الزلزال سبّب الكثير من الأضرار وأن السلطات كانت غارقة في الأعمال المتراكمة. شعر كاميرون فجأة أن رئتيه امتلأتا بالجليد. لم يكن من نموذج الرجل الورع الذي يصلي، لكنه أغلق عينيه، أخذ نفساً قصيراً (لم يكن باستطاعته أخذ نفس أكثر عمقاً) وحاول أن يشعر بمركزه، كما علّمه رجل الدين، ومن ثم بدأ يتحدث إليهم.

عندما سمع طارق كلام الأفرو ـ أمريكي الذي اعترف له أنه كان على حق منذ البداية، شعر أنه انتفخ فخراً. لكنه احتفظ برزانة مثيرة للإعجاب، مكتفياً بإرسال نخير ازدراء قبل أن يدفع الآخرين ويضع يده على بكرة الباب، كما لو أن هذا المكان يعود إليه وحده. كان الشاب قد استكشف كل الأمكنة ولم يجد مخرجاً آخر، لكنه في النهاية سوف يرى ضوء النهار، كان مقتنعاً تماماً بذلك. قام

بحركة للسيد مانغالام والسيد بريدشت أن يتبعاه على عجل. سحب الرجال الثلاثة مقبض الباب كلٌ بدوره، ومن ثم هم الثلاثة معاً، لكن دون جدوى. كان الباب عالقاً، فأرسل طارق ركلة إلى وسطه، والتي كانت لن تفيد في شيء ـ كما لاحظ السيد بريدشت ـ فتبادل الرجلان نظرات الريبة.

تبع كاميرون السيد مانغالام إلى المستودع، آملاً أن يجد أي أدوات من أي نوع ما. كان يعلم تماماً أنه يجب عليه ألا يركن دون حركة، لكن كان يستولي عليه نوع من الخمول. الصوت الذي كان يصدره حذاؤه على الموكيت اللين ذكّره بالصيف الذي قضاه مع أنسبائه في إحدى مزارع شرق تكساس، حيث كانت عمته قد أرسلته كي تبعده عن معاشرة رفاق السوء. لسوء الحظ، فشل هذا فشلاً ذريعاً. فقد واجه هناك أيضاً المشاكل. كان كاميرون من النوع المحب للمشاكل، كما كانت تقول عمته. اليوم، لم يكن حتى يتذكر ما الذي حدث وقتها بالفعل. لكن بالمقابل، كان يذكر تماماً المطر المنهمر فوق سطح توتياء المخزن، وأشجاراً من السنديان أُكلت من الطحالب، وطيناً أحمر تنغرز الأقدام فيه حتى الكاحلين إن كنا غير حذرين، وامتداد السماء الباهتة اللون التي كان بالإمكان رؤيتها من سقيفة مدخل المنزل، والتي تكاد تسبب الألم في الصدر. كان يقضي ساعات أحياناً جالساً تحت هذه السقيفة. كان أنسباؤه يسخرون منه ويسمونه «المديني المختل» لكنه لم يكن يهتم للأمر، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يشعر فيها بقوة جذب الطبيعة.

لكن كاميرون لن يستطع الآن أن يمنح نفسه رفاهية العودة للتفكير في الماضي. عاد ليركز مرة أخرى على مهمته: تفتيش

الرفوف بينما مانغالام يمسك بالمصباح. ملأ الموظفون الحمام برائحة غسول الفم، بدا وكأنهم رشوها من قمة رأسهم حتى أخمص قدميهم. حسناً، وإن يكن؟ يتفاعل الناس مع الأزمات أحياناً بطريقة غريبة. كان الأهم أنه لم يجد أي أداة يليق بها اسم أداة، عدا سكين الزبدة، ومغرفة الكعكة المحشوة.

«أنا على استعداد لأعطي أي شيء في سبيل إيجاد عتلة» فكر كاميرون وهو عائد إلى غرفة الانتظار. وكما لو أن هذه الفكرة كانت قد انقسمت فجأة إلى فكرتين في رأسه، سمع أحدهم يهمس له: «هل تعطي أيضاً سيفا؟».

كان يعرف كل متاهات هذا الصوت الذي بدأ بالتحدث إليه عندما كان في الحرب.

« لا» أجاب

«حتى ولو كنت على وشك الموت؟ ألحّ الصوت قائلاً: حتى ولو كان الجميع سيموت بسبب قرارك هذا؟».

تأمل طويلاً في السؤال الثاني.

«كلا»، انتهى قائلاً، ثم أضاف: لن أجيب على هذه الأسئلة.

«وحياتك؟ تابع الصوت دون ارتباك. هل تمنح حياتك في سبيل إنقاذ كل هؤلاء الناس؟».

– هل تعتقد أن هذا سيساعدنا لو أننا اقتلعنا بكرة الباب؟ سأل كاميرون مانغالام.

كان واعياً أنه تحدث بصوت مرتفع، وتابع قائلاً:

– نستطيع فك البراغي بسكين الزبدة. قد يصبح لدينا قبضة أفضل مع الثقب.

ابتسم الصوت، «سنلتقي قريباً» همست قبل أن تختفي.

بدا مانغالام مستغرباً أن يُطلب رأيه، لكن بعد لحظة تفكير، أجاب:

– لا، لا أعتقد أن هذا ينفع في شيء.

ومن ثم أضاف بلهجة مترددة:

– لكن إن... في النهاية إن تعلق كل هؤلاء الأشخاص غير المجروحين مع بعضهم البعض، وسحبنا كلنا في وقت واحد، كما في لعبة شدّ الحبل...

وهذا ما فعلوه. وقف الجميع، باستثناء جيانغ، جدة ليلي، وإيما، بخط مستقيم خلف طارق الذي أمسك بكلتا يديه قبضة الباب. عرضت السيدة بريدشت مساعدتها، لكن السيد بريدشت طلب منها أن تذهب لتجلس. أمسك كل واحد منهم بخصر الذي أمامه، وعند إشارة كاميرون، بدؤوا يشدون الباب بكل ما أمكنهم من قوة. عند المحاولة الثالثة انفكت قبضة الباب. نزع كاميرون البراغي بسكين الزبدة، وأمسك طارق بجانبي الثقب الذي تشكل. في الضربة التالية، فُتح الباب فجأة، وسقط الجميع الواحد منهم فوق الآخر. انطلقت ضحكة فرح بمجرد أن استعاد الجميع أنفاسه. نهاية الممر الذي على شكل « لـ » الذي كان بإمكانهم رؤيته الآن، كان بحالة جيدة ومكشوف. أطلق طارق صرخة انتصار وألقى بنفسه في الممر.

– انتظر! صرخ كاميرون محاولاً التقاط الشاب من ذراعه، لكن طارق قد كان قد أصبح في الرواق.

كان الجميع على وشك أن يتبعه لكن كاميرون مدّ ذراعيه وسدّ منفذ الخروج.

– انتظروا، يجب دوماً الانتظار بضع دقائق للتأكد من أن الباب لم يكن يسند شيئاً ما قد يكون على وشك التحرك في هذه اللحظة، ونغامر من أن يسقط فوقنا.

كانوا يدفعونه، مانغالام في المقدمة، وضوء المصباح موجه على كاميرون. أعمى الضوء الجندي. سمع همهمات عصيان وتمرد، ونفاد الصبر المتزايد كالبخار داخل قِدْر الضغط.

سرعان ما سوف يتجاهلون حرصه، ويضربونه بأقدامهم كي يلحقوا بطارق. وقد كان جاهزاً لهذا الأمر.

ثم، سمعوا هديراً قوياً آتياً من نهاية الرواق، وصراخ طارق.

لأجل عملية إنقاذ طارق، كان واضحاً للجميع ـ عدا الجدة التي فهمت الأمر وتشبثت بحفيدتها بكل قوتها كي تظهر رأيها ـ أن ليلي هي الخيار الأنسب، فقد كانت أصغرهم سناً وأخفهم حركة، وبمقدورها أن تتسلق كومة الحطام التي كانت تغلق عرض الرواق بأكمله، دون أن تتسبب بانهيار جديد أو تجعل أقساماً من السقف تعود إلى السقوط. بمقدورها أن تلقي نظرة عبر المساحة الضيقة التي لا تتجاوز أكثر من أربعين أو خمسين سنتيمتراً بين أعلى الركام والسقف، وتقول لهم ماذا يوجد في الخلف. أمُل كاميرون أن ترى طارق الذي، بحسب رأيه، كان يجب أن يكون محشوراً في زاوية تحت قطعة من السقف المنهار ليس بعيداً عن الرواق. لكنه لم يكن متأكداً من الأمر، لأنه عندما نادى بهدوء على الشاب باسمه، لم يسمع أي جواب عدا صوت سقوط كمية من الجص، كأنها مطر مقلق. سحبت ليلي بلطف يد جدتها من فوق كتفها وقبّلتها ومن ثم

دفعتها من مرفقها كي تعود إلى المكتب حيث كان كاميرون يطلب من الجميع الانتظار هناك، تحسباً من مشاكل أخرى. فوجئت من الإحساس ببشرة جدتها قرب فمها. كانت المرأة المسّنة أكثر تغضّناً مما هي في ذاكرتها، على الأغلب لأنه مرَ وقت طويل لم تقبّلها فيه. لاحظت بشيء من القلق أن ذراع جدتها ساخن حول جرحها. يجب عليها أن تخبر كاميرون بذلك فور عودتها. أخذت مصباح الجيب من يد الجندي الذي أمسكها من مرفقها وهمس لها قائلاً:

– تسلقي إلى نقطة عالية كفاية كي تستطيعي النظر من فوق الكومة، لكن ليس أكثر.

شرح للجميع أنه يتوجب عليهم التحدث بأخفض صوت ممكن في الممر، والأفضل ألا يتكلموا على الإطلاق. فالأصوات معّرضة لأن يتضاعف صداها فتثير بذلك انهيار الحطام.

– إذا لم تشاهديه، عودي إلى هنا بسرعة. هل أنت على ثقة أنك تريدين الذهاب؟

هزّت ليلي رأسها بسرعة، لكنها لم تكن واثقة تماماً. شعرت فجأة بقلبها ضخماً جداً ليبقى في صدرها. شعرت به يدّق حتى يصل إلى رقبتها.

– عاد فقال لها: ليس لزاماً عليك أن تفعلي ذلك. إنه جد....

لم تنتظر أن ينهي كلامه، وإلا فسيغير الخوف من رأيها ولن تذهب. وجّهت ضوء المصباح المرتجف على كومة أحجار البناء، وعلى صفيحات الجص والقضبان المعدنية المتكومة أمامها، وتقدمت بخطوات صغيرة مصمّمة. حاولت ألا تنظر إلى الثقب الفاغر فاه في السقف والذي منه سقط كل هذا الحطام ـ والذي من الممكن أن

يسقط غيره في أي لحظة ـ لكنه كان يجذب نظرها كمغنطيس عملاق. كان هناك ظلمة أكثر من أي مكان آخر، كان شديد الضخامة، ثقب أسود بإمكانه امتصاص الأنظمة الشمسية كلها. وما هذه الأضواء الصغيرة الحمراء في البعيد التي تلمع كعيون؟

وصلت ليلي إلى كومة الحطام. باشرت في تسلقها وهي تجسّ الأرض بحذر، كما سبق ونصحها كاميرون، كي تتلافى أن تجرح بمسمار والذي قد يكون صدئاً. تحركت كومة الركام، فتخشّبت ليلي، وتوقفت. من ثم عاودت صعودها عندما بدت الكومة أنها قد استقرت. في الوقت الذي استغرقته للوصول إلى الأعلى، كانت قد تبللت بالعرق، لكنها كانت مع ذلك قد استعادت إيقاعها، وبدأت تفهم الطبيعة الذاتية للحطام.

كانت الفتاة اليافعة تشعر بضيق، ونفاد صبر المجموعة، يلهب لها ظهرها كالحريق. لم يسبق لها أبداً كفتاة مراهقة أن طُلب منها أمرٌ مهماً كهذا، أمرٌ ما باستطاعتها هي وحدها أن تنفذه. شعرت فجأة أنها أصبحت أكبر سناً. دون أن تدير ظهرها همست بأنها ترى كومة أخرى من الحطام. ليس بعيداً عن هذا، ربما مائة أو مائة وخمسون متراً تجاوزت شكلاً ما غامقاً. لا بد أن يكون هذا فردة حذاء. كان عليها الاقتراب أكثر كي تتأكد.

– سوف أنزل للجانب الآخر، أعلنت قائلة.

– لا، همس كاميرون بصوت مذعور. هيا عودي. بما أننا نعرف الآن أنه موجود هنا، فسوف نمهد الطريق.

لكنه فهم بسرعة أنها سوف لن تطيع.

– إذن، كوني حذرة. لا تتركي المصباح. إن شعرت أنك على

وشك السقوط تكوري ولا تتحركي.

بقيت ليلي مستلقية لحظة على كومة الحطام، ويدها اليسرى تضغط على مصباح الجيب. توجب عليها في البداية أن تمرر قدميها فوق كومة الأنقاض قبل أن تنزل إلى الجهة الأخرى، ولم تكن تعرف ما النتائج التي سوف تترتب من هذا على كومة الحطام. أنا «جاليفر» قالت لنفسها، «وها أنا فوق جبال ليلبوت»[19]. تصور حكاية سيجعل لها الأمور أكثر سهولة. دارت ببطء وأدارت قدميها فوق تلة الركام حتى استطاعت أن تمدهما إلى الطرف الآخر. فوراً تقريباً، أحست بنفسها تنزلق، لم تصطدم قدماها بأي عائق. قبضت يدها الفارغة بإحكام على طرف قطعة خشب، لكنها انزلقت معها. تحركت الكومة كلها تحت قدميها. انجُرفت في انهيار صاخب من الجص والملاط «إنها ليست أكثر من جبل صغير» رددت لنفسها «إنه جبل صغير » ثم ما لبثت أن ارتطمت بالأرض بدويّ ـ هذه الأرض العجوز الطيبة ـ وغيمة من الغبار ترتفع من حولها. فوجئت من أن كومة الحطام لم تنهر فوقها. غطت فمها بكفها كي تخنق سعالاً متتابعاً، وتعربشت حتى المساحة المكشوفة بين كتلتي الحطام.

– قل لجدتي أني بخير قالت بمجرد أن استطاعت الكلام

سمعت سلسلة من الهمسات في الطرف الآخر: كان الآخرون يتناقلون رسالتها. تعربشت حتى البقعة السوداء التي كانت قد شاهدتها ـ كانت فعلاً فردة حذاء ـ وضعت يدها تحتها، وبحرص،

---

[19] مدينة الأقزام التي تخيلها الكاتب الانكليزي جوناثان سويفت.

مدت يدها على طرف الحذاء، وكتمت أنفاسها عندما شعرت بملمس كاحل. هل كانت للمرة الأولى في حياتها على وشك أن تلمس جثة؟ جعلتها هذه الفكرة تسحب يدها فجأة، بالرغم من أنها لم تكن تنوي ذلك.

- إنه هنا، همست.

- اطلبي منه أن يحرك قدمه، أجابها كاميرون.

وهذا ما فعلته، إلا أنه لم يكن هناك جواب.

وهنا، فجأة، انتبهت أنها محصورة في هذا الرواق مع جثة، وبأنها قامت بكل هذا العمل لأجل لا شيء. راحت تهتز بنوبة من البكاء. وعندما أدركت كم الأمر خطير، بدأت تشرق بالدمع.

- ستكونين بخير، همس لها كاميرون قائلاً، لقد تدبرت أمرك بشكل جيد، أفضل من أي منا. حاولي مرة أخرى مناداته، ومن ثم ارجعي.

أجبرت نفسها على ملامسة القدم الميتة. هزّتها. شعرت بعصارتها الصفراء تصعد على طول المريء. في اللحظة التي كانت على وشك أن يُغمى عليها، تحرك الجسد قليلاً.

- طارق! صرخت وقد نسيت تحذيرات كاميرون، أنا هنا!

- برافو! هتف كاميرون. عودي الآن كي نتمكن من تمهيد طريق.

شعرت ليلي بأنها قد طُمرت تحت هذه الكومة من حواف الأخشاب، والمعادن، وشظايا الزجاج المكسور فوق عمودها الفقري، وفمها مليء بالغبار. تخيلت أنها تشعر بملامسة يد حول قدمها، ومن ثم لم تلبث تلك اليد أن تركتها.

- سأنتظر هنا، قالت بصوت منخفض.

لم يكن هذا عملاً بطولياً. لكن كان جسدها يرتعش بالكامل من فكرة أن تتسلق من جديد كومة الحطام، وأن تشعر بالعوارض وقطع الجص تتوارى تحت قدميها.

لم يضّيع كاميرون وقته في محاولة إقناعها بالعودة. كانت تسمعه وهو يهمس بالتعليمات. بدأت برفع بعض الأنقاض على جانب الكومة التي كانت تغطي طارق، لكنها توقفت في اللحظة التي انزلقت نحوها قطعة من الجص، مهدّدة بالسقوط فوقها. فضلت أن تفكر ببيتهوفن. عندما جعله الصمم يغرق شيئاً فشيئاً في الصمت، لا بد وأن هذا الموسيقي قد شعر بأنه سيدفن حياً. لكنه نجح في إيجاد ومضة من نور وذلك بجعل الموسيقى تصدح في رأسه. في انتظار وصول كاميرون، راحت ليلي تربت على عقب طارق بإيقاع «رقصة القرويين».

لم يشعر مانغالام بأي خوف بينما هو يساعد كاميرون والسيد بريدشت في إزالة العوائق من الردهة. لم يرفع نظره مرة نحو السقف حيث لم تتوقف قطع صغيرة من الجص عن السقوط. ولا هو تساءل أيضاً ماذا سوف يحدث إن هم سحبوا القطعة الخاطئة من جص الركام الذي كان يهتز أمامهم كما برج «جينغا»[20]. (كان مانغالام يعشق الألعاب الأمريكية، وقد اشترى منها العديد منذ وصوله إلى الولايات المتحدة، وعندما لم يكن يجد لاعباً أمامه، فقد

[20] لعبة مشتركة تنطوي على تجميع قطع خشبية لتشكيل برج ومحاولة عدم جعله ينهار.

كان يلعب ضد نفسه). في هذه اللحظة كان عقله كقطعة أثاث حيث أغلقت فيها كل الدروج، عدا درج واحد. في الدرج الذي بقي مفتوحاً، لم يكن هناك غير ملف واحد، مكتوب فوقه «تنفيذ تعليمات الجندي» وعلى هذا كان تفكيره منصبّاً.

في الماضي، سمحت له هذه الموهبة بالاستفادة من اللحظات المتعة والمبهجة، والمحرّمة، دون أن يشعر بالقلق للنتائج. هذه الموهبة، كانت مدعومة بشدة اليوم بزجاجة من ويسكي «وايلد توركي» التي نجت بأعجوبة من غضب الطبيعة الأم، والتي خبأها في جاروره. خلال الساعات الأخيرة، قام بعدة زيارات إلى مكتبه، يتبعها المرور إلى غرفة حمامه، كي يغرغر بغسول الفم المطّعم بالشعور بالذنب. كان شعور الذنب هذا ذا حدين: أولهما، أنه قد نشأ في عائلة هندوسية محافظة جداً تتبع بالحذافير الأقوال التي تؤكد بشكل خاص على أن استهلاك الخمر هي أول ظاهرة من ظواهر الدخول في العصر المظلم لـ «كالي»[21]. ثانيهما، كان لزاماً عليه، حتى ولو لم يكن هذا من ضمن الطعام، أن يعطيها للجندي مع باقي المؤونة.

في الظروف العادية، لم يكن مانغالام ممن يهوون شرب الخمر. السبب الرئيس لوجود هذه الزجاجة في مكتبه، هو أنه قد تسلمها كهدية في الأسبوع الفائت من عميل ممتّن كونه حصل على تأشيرة دخول عن طريق خطٍ مختصر ليس قانونياً تماماً. كان في نيته أخذها معه إلى الهند، حيث كان يُتاجر بهذا النوع من الويسكي

[21] في الأوبانيشاد كالي يوجا هو عصر الظلام والدمار.

بأسعار فاحشة. لم يكن قد قرر بعد إن كان سيبيعها أو يقدمها هدية لشخصية معتبرة بإمكانها أن تعمل على تمديد منصبه في الغربة. لكن حالياً، خرجت الهند من رأسه تماماً، وكل ما كان يأمله، هو أن يأتي على الزجاجة قبل أن يجهز زلزال آخر عليها ويحولها إلى شظايا.

كان مانغالام يسحب أكواماً من حطام الجدران المتحولة إلى قطع صغيرة. شبيهة بأغصان «النيم»[22] التي كان أهله يستخدمونها لتنظيف أسنانهم، وجّه ضربة حادة على القضبان المعدنية، وبصق برواقية كاهن بوذي فتات الجص التي وجدت طريقها إلى فمه. كان يود لو أن السيدة مانغالام ـ السريعة جداً في انتقاد قدرته على تجزئة المخاوف في فكره، كدليل على جبنه وافتقاده للشجاعة ـ باستطاعتها أن تراه الآن وهو منهمك في العمل اليوم. وبما أن هذا كان مستحيلاً الآن، فلم يكن من العبثية من جانبه (أو على الأقل هذا ما فكر به) أن يأمل في أن تقوم مالاتي بملاحظة موقفه الرصين والمحب للغير. لكن، عندما بدأ يفكر بها، ضاقت كل الدروج التي في عقله. لم يكن أي منها بالوسع الكافي كي يضعها داخله. عاد ليفكر بالقبلة التي طبعها على فمها، على شفتيها الرقيقتين اللتين انفتحتا قليلاً تحت شفتيه. بلسانه الذي لم يزل معطراً برائحة حبات الشّمر التي لا بد وأنها قد لاكتها في فمها قبل الغذاء. لاحقاً، قبض عليها من كتفيها وهزّها بعنف. رأى رأسها يهتّز إلى الأمام وإلى الوراء، وتلك الهيئة المذهولة التي ارتسمت على وجهها

---

[22] شجرة سريعة النمو، دائمة الخضرة، يطلق عليها في الهند اسم صيدلية القرية.

قبل أن تأتي مشاعر الكره لتثقل على ملامحه. كان قد رغب في أن يقول لها أنه متأسف. لكن حتى ولو جاءت اللحظة المناسبة لذلك، فسوف لن يعتذر. إن أنت اعتذرت لامرأة، فسوف تستفيد من ذلك لتتسلم هي السلطة. وكان هذا من غير الوارد بالنسبة إلى مانغالام.

لزم لهم ثلاث ساعات لفتح طريق من أجل الوصول إلى طارق ولإخراجه. بقيت ليلي هناك خلال كل هذه العملية. قال لها كاميرون أنها تعَرض نفسها لخطر لا فائدة منه، وأنها سوف تسبب القلق الشديد لجدتها، لكنها وجّهت إليه حركة برطمة فتاة مراهقة عنيدة.

عندما كشفوا أخيراً يد طارق، تعلّقت بها كما لو أنها جزء من حياتها. كان يجب عليها تركها عندما كانوا يأخذون الشاب إلى الغرفة الرئيسية، مروراً بالقناة التي كانوا قد حفروها في جبل ليليبوت. لكنها عادت لتمسك بها بمجرد أن أصبحوا على الجانب الآخر. أثناء عودته إلى غرفة الانتظار، لم يقل طارق أي كلمة. كان واعياً، لكنه احتفظ بعينيه مغلقتين، ورفض الإجابة عن الأسئلة التي طرحها عليه كاميرون كي يتأكد من عدم وجود إصابة دماغية. كان الموكيت في غرفة الانتظار متشرباً كفاية بالماء بحيث لم يتمكنوا من وضعه على الأرض، لهذا فقد أجلسوه على كرسي. كانت ليلى تمسك بيده وتطبطب عليها من وقت لآخر. ساعدته مالاتي على الجلوس. وقامت السيدة بريدشت بتنظيفه قليلاً بقطعة قماش مبللة والتي كانت في السابق قطعة من ساري أزرق اللون. لكن لا هذه ولا تلك كانت مركزة على عملها.

– لماذا لا أحد يحاول أن يخرجنا من هنا. همست مالاتي للسيدة

بريدشت أتعتقدين بأنهم نسونا؟ هل تعتقدين أننا سوف نموت هنا؟

مسحت السيدة بريدشت وجه طارق دون الكثير من الانهماك، تاركة على جبينه بقعة كبيرة من الغبار في المكان الذي كان جلده قد خدش.

- إن الله لم ينسنا. قالت، ونظراتها تائهة في البعيد كما لو أنها على وشك أن تفك كتابة لوحة إعلانية سيئة الإضاءة. إنه يعرف قصة كل واحد منا، ماضينا كما حاضرنا، وهو يعطينا فقط ما نستحقه.

إن كان من المفترض في هذه الكلمات أن تحمل أي شكل من أشكال الدعم، فقد أخفقت.

تركت مالاتي نفسها تطلق همهمة تذمر ومن ثم انسحبت. وترك طارق نفسه ينزلق على الكرسي، كان على وشك أن يقع لولا إمساك ليلي بكم قميصه القطني ورمقت المرأتين بنظرة قاسية لكنهما لم تلاحظا ذلك.

هذه الحركة الفجائية أعطت دفعاً من الطاقة لطارق. عندما اقترب كاميرون منهما وبيده مرهم لالتئام الجروح، أشاح بوجهه وبقي على هذه الحال إلى أن رمى الجندي بالمرهم عند قدميه قاذفاً إياه بشتيمة. لذلك فقد تكفلت ليلي بمهمة وضع المرهم على وجهه، وعلى مقدمة يديه قبل أن تضمد له جروحه بأفضل ما استطاعت، وهي تلومه على تصرفه. بعد ذلك، فتشت في حقيبة ظهرها وأخرجت مشطاً من البلاستيك الزهري اللون وقامت بتسريح شعره. أما تسريحة شعرها، تلك التي تشبه عرف الديك، فقد هبطت وسقطت الخصلات الوردية على جبهتها مانحة إياها هيئة كئيبة. سألته إن كان بحاجة إلى شيء آخر، وانحنت فوقه كي تسمع

جوابه. همس لها ببضع كلمات وهو لم يزل مغمض العينين. ذهبت لتجلب له حقيبته الصغيرة وتضع له القرآن بين يديه. أعطته جرعة من الماء ونصحته أن يفتح عينيه.

– لا تخجل، كنا جميعاً سنقوم بالمثل، كلنا كنا سوف نركض للخروج من هنا.

ولأنه لم يحر جواباً، قالت له بتعجب:

– بالله عليك! كف عن التصرف كالأطفال! لا أحد ينظر إليك.

كان هذا حقيقياً. فقد كان كاميرون على وشك أن يحذّر باقي المجموعة بأن وراء كومة الركام، التي طمرت يد طارق، كان بيت الدرج مغلقاً من الأرض حتى السقف بأنقاض كانت من الضخامة بحيث يستحيل رفعها دون الاستعانة بآلات. كما قام بتذكيرهم بتحاشي الكلام والتنقل، ولم يكن متأكداً من نوعية الهواء في الغرفة وقد يقارب الأوكسجين على النفاد.

حاول الجميع أن يعتادوا على فكرة أن أملهم الوحيد للانضمام إلى الخارج، ورؤية ضوء الشمس من جديد، قد تبخر بصراحة. حتى اللحظة، كان الموت قد بقي مجرد غيمة مظلمة ومتوعدة في الأفق. لكنه كان بحدّ معقول وأيضاً بعيداً عنهم، وها هو فجأة قد أصبح موجوداً تماماً فوق رؤوسهم، وجاهزاً للانفجار. استسلم الجميع للرعب، وراحت أسئلة مالاتي «هل تعتقدون أنهم نسونا؟ هل تعتقدون أننا سوف نموت هنا؟» تدوي في صدورهم.

سمع طارق ما قالت له ليلي لكنه لم يفتح عينيه. كان الشاب قد جرح عزة نفسه لكونه قد تسبب بالكثير من المشاكل، وكونه محتاجاً إلى مساعدتهم ـ خاصة مساعدة ذاك الأفرو ـ أمريكي، بينما كان

يعتقد أنه سوف يحررهم وينقذهم جميعاً. لهذا السبب، كان عاجزاً عن التعبير لليلي عن امتنانه لكل ما قامت به لأجله في الرواق عندما تملكه الخوف، بالرغم من أنه كان يتوق إلى هذا بشدة.

أظهرت تلك الفتاة المراهقة شجاعة كبيرة، أكبر بكثير منه، هو الذي تباكى وذرف الدمع وهو تحت ثقل وعتمة الركام. حتى ولو لم يكن أحد يعرف بالأمر، لكنه هو، كان يعرف بذلك.

القرآن على ركبتيه، حاول أن يصلي. فالله هو الوحيد الذي بإمكانه التحدث معه، لأنه، وعبر مرور الزمن، كان قد شاهد بالتأكيد تصرفات مثيرة للشفقة أكثر بكثير من تصرفات طارق، وغفرها. لكن الشاب كان عاجزاً عن تذكر أي صلاة، فتوجّب عليه اختراع صلاة خاصة به. لم يعد يذكر المرة الأخيرة التي قام فيها بذلك. كان مرتبكاً وهو محرومٌ من الابتهالات القرآنية الأنيقة التي كان يرتكز في العادة عليها. ما الذي كان بإمكان المؤمنين قوله لخالقهم في هذه الحالة؟ أي لهجة يتخذون كي يرسلوا إليه بشكواهم والتماساتهم؟ كيف كانوا يشعرون؟ (لا يعني هذا أنه لم يشعر في هذه اللحظة بأي رغبة في شكره). حاول بالرغم عنه أن يصلي: يا الله، بدأ... لكن، حتى في رأسه، كان وقع الكلمة كالهجوم، لذا قرر الصمت.

عندما سمعت السيدة بريدشت أن الرواق مسدودٌ تراجعت إلى أبعد نقطة ممكنة عن المجموعة حتى اصطدمت بالحائط. كيف أمكن هذا؟ «كان يجب أن تذهب إلى الهند» شعرت بهذه الرغبة منذ أن دخلت الممرضة المناوبة إلى غرفتها في المشفى. وقد تعززت هذه الحاجة عندما مد نحوها السيد بريدشت ـ الذي كان يكره السفر الذي لم يكن بالنسبة له غير سلسلة متتابعة من التردد والغّم

ـ هذه المجلة وعرض عليها قضاء العطلة في قصر هندي. مع ذلك، في هذه اللحظة، تسلل الشك إليها وغلفها بذراعيه الباردتين، فانهارت على كرسي. ولعدم وجود أي إمكانية أخرى للهرب عدا خيالها، فقد أغلقت عينيها وتركت ذاكرتها تغرق فيه. كانت السيدة بريدشت (والتي لم تكن قد أصبحت بعد السيدة بريدشت) جالسة وراء منضدة من الفورميكا الصفراء في مطبخ والدتها، برفقة أعز صديقاتها ديبي، أمام كعكة من الدراق، أعدّتها كوصفة من اختراعها. كانتاهما الاثنتين في الثامنة عشر من العمر، وقد حصلتا للتو على شهادتيهما في نهاية المرحلة الثانوية.

كانت الكعكة شهية، فالعجينة كانت هشة وخفيفة، وكان مذاقها هو ذلك الطعم الذي يميز ثمار الدراق الناضجة، مضافاً إليها موهبة طباخة ممتازة.

مع ذلك، لم تكن الفتاتان قد لمستا شيئاً. كانتا شديدتيّ الإثارة، فلدى كل واحدة منهما سرّ، وبكشفه، سوف يتغير مجرى حياتها.

كان الأمل واضحاً في هذا المطبخ، كما طعم قشرة الليمون الطازج على طرف اللسان. كل الأحلام التي كانت السيدة بريدشت تحلم بها حتى الساعة ممكنة التحقق، لا بل كانت أكثر من الممكن. حتى الأحلام التي لم تكن قد حلمت بها بعد كانت بانتظارها بصبر، شبيهة بثمرة شهية على أغصانها في متناول يدها. إذن، ما الذي جرى منذ تلك الحقبة المباركة؟ كيف وصلت إلى هنا، حيث هي هنا الآن، مستندة على حائط كظبية مرعوبة من ضوء السيارات الكاشف. لو أنها في يوم ستعرف ولادة أخرى (كانت قد فكرت كثيراً بالتقمص منذ وجودها في المشفى) أتراها سوف تجد حماسة

الأيام السابقة؟ هل ستعرف ما الذي عليها عمله كي لا تنزلق تلك الحماسة من بين يديها؟

«نعم سوف أعرف» قالت السيدة بريدشت لنفسها. ظهرت أمام ناظريها مرة أخرى، الغرفة في القصر الهندي، والوسائد الطرية الجديرة بالآلهة. أعادت إليها هذه الصورة القوة، حتى ولو لم تكن تنوي الذهاب إلى هذا القصر عند وصولها إلى الهند، كان لديها مشاريع أخرى. مع ذلك، فقد ذكرتّها الصورة أن كل ما عليها القيام به حالياً، هو البقاء هادئة وسعيدة، وفي النهاية، سوف تصل الإغاثة.

شقّت طريقها إلى الكوة حيث كان الماء يلمع في الطاسات التي كتب عليها «سفراً سعيداً» تحت حزمة ضوء مصباح كاميرون. أخذت طاسة واتجهت نحو الكرسي الأكثر بعداً عن المجموعة. بالرغم من المسافة، شعرت باليأس ينبعث من الآخرين وهم يهرعون نحو كاميرون كي يسألوه عما سوف يحدث. ما الفائدة من كل هذا الهياج؟ كل هذه الطاقة السلبية لا تفيد إلا في جذب العين الشريرة. لكنها سوف لن تتنازل وتشرح لهم ذلك. سوف يتعلمون من تلقاء أنفسهم عندما يجتازون النار مثلها.

وضعت الطاسة على الأرض، أصلحت برشاقة ثنيات تنورتها ـ كانت تلك عادة قديمة ـ أخذت علبة زاناكس، ورمت عدة حبات في راحة يدها، نزل منها ثلاث حبات، أربع حبات، فلم تعدها إلى مكانها في العلبة، فالكون كان يريد منها أن تأخذها، فهذا سوف يساعدها على الأمل، وقوة هذا الأمل سوف تجعل المنقذين يأتون إلى هنا.

أعادت العلبة إلى جيبها وشربت جرعة من الماء. كانت على

وشكٍ وضع الأقراص في فمها عندما قبضت يد على معصمها ودفعتها بعيداً عن وجهها.

ماذا تفعلين؟ فحّ السيد بريدشت بصوت غاضب.

اتركني، قالت له وهي غاضبة أيضاً.

كان يجب عليه دوماً أن يُفسد كل شيء.

- لماذا تقومين بذلك؟ هل تجدين أننا لا نملك ما يكفي من المشاكل كي يتوجب علينا زيادة على ذلك أن نعتني بك؟

حدّقت به في العتمة. الأشخاص الذين قد أحببّتهم في السابق هم الذين يعرفون الطريقة الأمثل لجرحك.

- لست بحاجة لعنايتك. أستطيع تدبّر أمري جيداً وحدي.

بقي فاغر الفم، مندهشاً أمام جحود زوجته. فكر في كل تلك الساعات القيمة التي أضاعها وهو ينتظر في غرفة المستشفى حين كانت ممدّدة، وغير واعية، ولاحقاً، في كل تلك الساعات التي قضاها معها في البيت، كي يسألها ماذا تريد أن تشاهد في التلفزيون، ويجهّز لها وجبات لا تنتهي أبداً، ويعرض عليها الذهاب أيضاً لشراء الكتب من المكتبة.

كل هذا الوقت، وكل تلك الأموال التي أُنفقت للتجهيز لرحلة الهند هذه، كما بطاقات الطائرة التي اشتراها، كل ذلك كان بسبب البريق الذي رآه يلمع لجزء من الثانية في عينيها عندما رأت تلك الصورة الملعونة. كانت الكلمات على رأس لسانه ليقول لها: «لو لم أكن مجبراً على الاعتناء بك لما كنت محشوراً هنا الآن، وعلى وشك الموت، وكل ما عملت بجهد لأجله تلاشى». لكن، وبمجهود نستطيع أن نعرّفه بالبطولي (بالرغم من كون أحداً غيره لن يعرفه)

احتفظ بالجواب الفظ لنفسه. ففي حال قامت بأي حماقة أخرى في يوم ما، فلن يؤنبه ضميره. فاكتفى بالقول: «اشتغلت حياتي كلها كي أقدم لك كل ما ترغبين به.....

– أنت لا تعرف ماذا يعني الاعتناء بالآخر، قاطعته قائلة، العلاقة بين الكائنات البشرية لا علاقة لها بالمؤسسات، لا يكفي أن تكسب مالاً كي يسير كل شيء بشكل حسن. نعم، هذا صحيح، لقد استفدت حقاً من كل هذا، لكن لم يكن هذا ما كنت أريده، ما كنت أريده حقاً.....

أخفضت رأسها كما لو أنها كانت تريد أن تقول إنه غبي:

لا يهم ما الذي أريده. ختمت قائلة، كل ما أريده الآن هو أن تدعني بسلام.

كانت رعشة قد بدأت تمتد في داخله، لو كان بمقدوره فقط أن يدخن سيجارة، لغدا احتمال كل هذا أقل سهولة. حاول أن يجعلها تترك الحبوب الموجودة في قبضتها، لكنها بقيت محتفظة بقبضتها مغلقة بشكل جيد.

– توقف! صرخت كما في فيلم رديء. توقف عن الهيمنة على حياتي.

نظر إليها الجميع. فمشهد الشؤون العائلية هذا، صرفهم مؤقتاً عن مشاكلهم.

حقد عليها كونها جذبت انتباه الآخرين إليهم. كان يكره دوماً أن يكون وسط الاهتمام، وكانت تعرف ذلك جيداً. فجأة، شاهد شيئاً أوحى إليه بفكرة مذهلة. ترك معصم زوجته وأمسك بهذا الشيء الذي كان يشكل كتلة في سترة زوجته الصوفية، ولوّح به عالياً كما الغنيمة.

– أعدها إليّ. صرخت قائلة، والرعب بدا واضحاً في صوتها الآن.

حاولت أن تسترجع الزجاجة. لكنه رفع ذراعه عالياً كي لا تستطيع الوصول إليها.

– لا يحقّ لك مصادرة أدويتي.

– سوف أعيدها إليك. لكن فقط بحسب الجرعة المكتوبة وفقط عندما تكونين بحاجة لها. ليس عليك إلا أن تطلبيها مني. تركها وابتعد.

سمع بكاءً خلفه، كان كما صوت قماش يُمزّق، كان يستطيع فقط أن يعود أدراجه ويعيد لها العلبة. لكن جاءت تصرفاتها لتثبت أنها غير أهل للثقة. يجب عليه أن يصادر أقراصها فهذا لمصلحتها.

ماذا كانت تقول بين شهيقين؟ «لقد أفسدت كل شيء الآن». بعد قليل سوف تتهمه أنه هو المسؤول أيضاً عن الهزة الأرضية.

لانشغاله بهذا الأمر، لم يرَ مالاتي واقفة أمامه في العتمة، حتى وصل تماماً أمامها.

– عن إذنك. قال لها وهو يبعدها عن طريقه لكنها قطعت عليه طريق المرور بانتقالها هي الأخرى إلى الجانب الآخر.

– أعد إليها دواءها. أمرته قائلة.

حدّق فيها، متفاجئاً. كانت تلك هي الكلمات الأولى التي توجهها إليه، باستثناء بعض التعبيرات الموجزة التي كانت قد أعطتها له عندما كانت خلف الكوة بالأمس.

بحسب ما يذكر، هي لم تتبادل كلمة واحدة مع السيدة بريدشت، وها هي الآن تسدّ طريقه، يداها على خصرها، وشعرها منكوش حول رأسها، مرتدية تنورة مجعدة، وسترة ذهبية زرقاء.

– أعدها إليها. كررت قائلة، ليس لمجرّد أنك زوجها يحق لك أن تعاملها بهذه الطريقة.

لو أنه كان في ظروف مغايرة، لما شعر بالحرج إن هو طردها وقال لها بألا تتدخل في شؤونه، لكن البكاء المتواصل للسيدة بريدشت جعله أكثر حساسية. اندفع في شرح الحالة الهشّة للسيدة بريدشت، وحقيقة أن هذا سيشكل خطراً عليها، لكنه قوطع من قبل مانغالام.

كان الموظف قد عادمن إحدى رحلات حجّه بين الغرفة والحمام، وسمع كلمات مالاتي، فسحبها من ذراعها.

– لكن أنت مجنونة؟ همس لها بلغة ثامولية غاضبة. نحن لسنا في الهند، ليس باستطاعتك التدخل هكذا في حياة الأشخاص. اتركيهما بسلام.

– أنت اتركني بسلام. اعترضت عليه قائلة بالانكليزية.

حاول الإمساك بها مرة أخرى من ذراعها، لكنها هتفت بصوت عال:

– لا تلمسني!. لا تقل لي ماذا عليّ أن أفعل. من تحسبون أنفسكم أيها الرجال؟

شاهد مانغالام من طرف عينيه أنهما مراقبان. تقدمت الفتاة المراهقة نحوهما. رمتها جدّتها بكلام جاف وقاس باللغة الصينية، لكن الشابة تابعت تقدمها. محرجاً من الموقف، اتّخذ الموظف نبرة أكثر رسمية.

– مالاتي راما سوامي، قال بلهجة باردة عملت مفعولها بشكل جيد منذ قليل. بما أني مديرك يجب عليّ الإقرار بأني شديد الضيق من تصرفاتك (كان يستخدم اللغة الإنكليزية كي يتأكد من أن السيد بريدشت يفهم كل ما كان ينوي أن يقوله) تفضلي و أنعشي

وجهك قليلاً بالماء وعودي إلى رشدك قبل أن توجّهي الكلام من جديد إلى أحد زبائننا. أيها السيد بريدشت، أرجو أن تقبل الاعتذار عن التصرف القليل المهنية لموظفتي.

أحنت مالاتي رأسها. قال مانغالام في نفسه أنها ولابد قد هدأت. ثم وهو يدور على عقبيه، صرخت به قائلة:

– هل تريد مني أن أغسل وجهي يا سيدي؟ سألت باللغة الانكليزية، قبل أن تضيف بالثامولية «ربما كان يجدر بي أن أشرب القليل من الويسكي، مثلك، ألا تعتقد ذلك؟ وبماذا سيفكر زبائننا إن هم علموا إلى أي درجة هي تصرفاتك غير مهنية وراء الأبواب المغلقة؟».

صُدم لمعرفته أنها كانت على علم بزجاجة الوسكي. لابد وأنها قد فتّشت بفضول في مكتبه عندما التجأت إليه. شعر بالدوار وبقلق متعاظم، كان يجد صعوبة أكثر فأكثر بالتنفس. لكن ذهنه تشوش من الغضب، كان في نيّة مالاتي وضعه عارياً أمام كل هؤلاء الأشخاص الذين يهمه كثيراً رأيهم عنه، لأنهم سوف يكونون آخر الأشخاص الذين سوف يراهم قبل موته.

سوف تقول لهم بأنه يشرب الخمر، وبأنه قد تحرّش بها. سوف تتحدث عن قبلتهما، التي بالرغم من طبيعتها المشكوك بها من وجهة نظر فن التعامل، كانت شيئاً جميلاً، أول قبلة متبادلة بين رجل وامرأة، وسوف تعمل منها قصّة كريهة. كان هذا أكثر ما يغيظه بالأمر. ارتفعت يده التي تحرّكت قبل عقله، وضربت وجهها. شعر بالجلد يسترخي تحت تأثير راحة يده. أطلقت مالاتي صرخة ورفعت ذراعها، لكن الوقت كان قد فات كي

تستطيع أن تحمي نفسها. مجتاحاً من الغثيان والشعور بالذنب، تقدم نحوها كي يتفقد الأضرار التي خلفتها حركته، وكما رجع الصدى، سمع صرختين أخريين.

صدرت إحداهما عن السيدة بريدشت الجالسة على كرسي في جهة ما وراءه، والأخرى جاءت من ليلي، الواقفة أمامه في العتمة. رمت الفتاة المراهقة نفسها عليه مطلقة الشتائم في وجهه. كانت اللغة المستخدمة من شبيبة اليوم حقاً مخجلة، قال في نفسه. قبل أن يستدير كي يتفاداها، كانت قد خمشت له وجنته، مخلفة عليها علامة حارقة. وضع يده فوقها. أتراها ستخلف ندبة وراءها؟

كان دوماً شديد العناية بوجهه، فقد كان كل ما يملك، فهو الذي سمح له بالوصول إلى هنا حيث هو الآن. انسلت حياته من كل الجهات. إلهه، مهنته، سمعته، مظهره.... تحول كل شيء إلى فتات. دفع ليلي بعيداً عنه فسقطت على الأرض محدثة ضجة مخنوقة، ثم، لم يلبث أحد ما أن قفز عليه، وبدأ يوسعه ضرباً. هل أصبح الجميع مجانين؟ عبر اللكمات المنهمرة عليه، شاهد مانغالام وجه طارق مشوهاً بشدة من الغضب لدرجة كاد مانغالام ألا يعرفه.

- «أتجرؤ على ضربها وهي التي غامرت بحياتها منذ قليل». وتابع وهو يلهث بين لكمتين: «ألا تخجل من نفسك؟».

أراد مانغالام أن يقول له بأنه لم يفعل شيئاً، وأن ليلي هي التي انقضت عليه وراحت تهاجمه. ألا يحق للرجل إذن أن يدافع عن نفسه، تحت حجة أنه رجل؟ أراد أن يلفت انتباه طارق إلى أنه هو الآخر قد ساهم مع فريق الإنقاذ الذي أخرجه من الركام، وأنه هو أيضاً، بطريقة ما، قد غامر بحياته. لكن اللحظة لم تكن مناسبة

لنقاش منطقي. شنّ هجوماً معاكساً تجاه لكمات طارق، من جهة كي يحمي نفسه، ومن جهة أخرى كي يثبت لنفسه أنه قادر على فعل شيء ما. حاول الجميع التفريق بينهما. أعطاه الكحول نوعاً من الرشاقة الحماسية. كان يقفز من قدم لأخرى ويناول طارق لكمة جديدة. ثم، لم يلبث جسده أن خانه، فتعثر. ثبّته طارق على الأرض وأمسكه من رقبته.

– لا... تضربها... بعد الآن... أبداً. همس الشاب لاهثاً.

ظهرت فجأة أضواء متناثرة، بألوان فاقعة في عيني مانغالام. اعتقد أنه رأى مالاتي تلطم طارق بلكمات على ظهره، تشدّه من شعره، وتجبره على تركه. ألن يتوقف العالم إذن عن إدهاشه؟ سمع أحدهم، يجب أن تكون الفتاة ذات المعصم المكسور ـ ينفجر في البكاء.

– توقفوا! ما الذي يحصل معكم؟ يا إلهي أصبحتم جميعاً وحوشاً.

في مكان ما من أقصى الغرفة، كانت الجدّة تنشد نشيداً. لم يكن يفهم اللغة الصينية، لكنه عرف فوراً أنه غناء مأتمي. أين كان؟ أين هو هذا الجندي، ماذا كان يدعى؟ كان الضغط على رقبته قد أظلم ذاكرته. لو أنه فقط استطاع أن يصرخ باسم الجندي، لهرع إلى نجدته. كانت كلمات الأغنية المأتمية تسقط عليه، تغطيه برقتها بطبقة من الثلج. عندما عرضوا عليه الذهاب إلى أميركا كفرصة مواتية للبدء بكل شيء من جديد، أمُل أخيراً أن يرى الثلج، ويرفع وجهه نحو الندف كما كان قد شاهد في أحد الأفلام الأجنبية. لكن ظنه قد خاب عندما علم أن الثلج لا يتساقط أبداً في هذا الجزء من البلاد. كانت تلك آخر فكرة مرّت في ذهنه قبل أن تنطفئ الألوان المتراقصة في عينيه فجأة.

6



كانت إيما مستلقية على صف من ثلاث كراسٍ، وحقيبة ظهرها تحت رأسها كوسادة. كانت زاوية حادة ناتئة في الجيب الداخلي للحقيبة تزعجها على مستوى الرقبة. لابد وأن يكون هذا نسخة كتابها عن (تشوس). كان الألم يعود شيئاً فشيئاً، أخذت تشعر بأولى ضرباته في عظمها. بدأت ترتعش، لم تكن التدفئة تعمل منذ بدء الهزّة. كانت الغرفة قد بردت تماماً، وزاد عليها أن حذاءها كان قد تبلل.

حاولت أن تتخيل شيئاً جميلاً ودافئاً، ففكرت فوراً بتلك النزهة التي قامت بها مع رامون ذات صيف في الهضاب. لكن قبل أن يتسنّى لها التفكير في شيء آخر غير المر الضيق المفروش بالحصى البرتقالية اللون، والسلّة المصنوعة من أغصان الصفصاف، ومكان الاستراحة في نزهتهما. انفجرت ضوضاء في الغرفة كلها.

سمعت أصواتاً تتشاجر، وصدى صفعة واضحاً جداً. هل سيصبحون مجانين؟ هل نسوا إذن عدم استقرار وضعهم؟ عبرت ليلي أمامها راكضة. في الضوء المتمايل لمصباحِ الشعلة توجه كاميرون نحو الشجار، رأت مانغالام يرمي ليلي أرضاً بحركة نزقة، ثم طارق وهو يقفز على مانغالام، وقشور من الجصّ تتساقط من السقف،

والضيق يقبض على خناقها.كان الرجلان غاضبين بشدة لدرجة أنهما كانا يجهلان أنهما يعرّضان المجموعة كلها للخطر.

هرع كاميرون نحو الاشتباك، وتبعته إيما. كانت قلقة عليه، فبعد أن قام بإنقاذ طارق، أصيب بنوبات متتالية من السعال اضطر معها إلى استعمال جهاز استنشاقه. تذكرت أيضاً أنها كانت قد نسيت تحذيره من تهديدات طارق التي نطق بها ضده،

«سوف أقتله».

لسوء الحظ، كانت الأحداث تجري كما كانت تخشى، فعندما حاول كاميرون أن يحرر مانغالام من قبضة طارق، وجّه الشاب نحوه لكمة عنيفة. انبثق الدم من أنف كاميرون. كانت مالاتي تبكي وهي تشد شعر طارق الذي كان يدفعها بوحشية. لم يردّ كاميرون الصفعة إلى طارق (كانت إيما على ثقة أن باستطاعته طرحه أرضاً) لكنه حاول تثبيت ذراعيه. كانت عينا طارق كشخص مجنون، وجّه ضربة من رأسه نحو كاميرون، تراجع الجندي مقطوع النفس، كما في رواية «*أمير الذباب*»[23] فلم تستطع إيما أن تتركهما يستمران. رمت نفسها بدورها داخل هذا الاشتباك بالرغم من رعبها من فكرة تلقي ضربة على معصمها المكسور، وتشبثت بإحكام بكتفي طارق. استدار وهزّ قبضته حتى قبل أن يدري من الذي يتشبث به، فاصطدمت بأعلى ذراع إيما ـ الجهة غير المصابة ـ لله الحمد. لكنها تراجعت مطلقة صرخة ألم. متفاجئاً، أبطأ طارق من إيقاع ضرباته، فاغتنم كاميرون والسيد بريدشيت هذه الفرصة كي يقبضا على ذراعيه. بدأ يقاوم

---

[23] رواية *أمير الذباب*، رواية رمزية للكاتب الحائز على جائزة نوبل وليام غولدينغ.

ووجهه مشوه من الغضب. جاءت ليلي لمساعدتهما في الإمساك بـه، وهـي تهمـس في أذنـه بعنـف بكلمـات لم يسـتطع أحـد غـيره أن يسمعها، فتوقف أخيراً، تاركاً ليلي تقوده إلى زاوية الغرفة.

جلسا قرب بعضهما البعض ـ بعد أن أصرّ كاميرون علـى ذلـك ـ يتبادلان نظرات شريرة تحت نور ضوء باهت. وقع مصباح الشعلة على الأرض فتركه كاميرون هناك. مسح أنفه بكم قميصه، لكن الدم استمر في التدفق. شعرت إيما بالحاجة إلى النهوض. لم تكـن تـدري بعد ماذا ستحكي. لكن كان لزامـاً عليهـا أن تقـوم بعمـل شـيء مـا خلال لحظـة، راح قلبهـا يـدّق بجنـون. لم تكـن تحـب إطلاقـاً أن تخطب أمام العامة. حتى الحصـص الدرسـية الـتي كانـت تعطيهـا كمدرسة مساعدة، وتلـك الـدروس الجيـدة التحضـير، الـتي كانـت تعيدها مرات ومرات لحـد السـخرية أمـام المـرآة في غرفـة الحمـام، كانت تسبب لها تهيبـاً رهيبـاً. فجـأة، لم يلبـث أن غلّفهـا سـكون غريب، فالقليل من الأشياء يحسب حسابها عندما تكون على عتبة الموت، ورأي العامة عن خصائصك كخطيب من جملتها.

– اسمعوا، بدأت الحديث قائلة، نحن في وضـع صـعب، يبـدو أن هذا الزلزال شديد الخطورة. لا نعلم بعـد كـم مـن الوقـت سـوف نبقى محصورين هنا. أنا خائفة، وأعتقد أنكم أنتم أيضاً كذلك.

أدركـت لا أحـد لديـه الرغبـة ليسـمعها، فقـد أدارت السـيدة بريدشت رأسها. وكان السيد مانغالام يفرك رقبته، وعاد طـارق مـن جديد لإغلاق عينيه، ومالاتي تراقـب بدقـة أكمـام سـترتها. وليلـي التي كانـت تغلـق منخـري كـاميرون بقطـع مـن المحـارم الورقيـة، حدّجتها بنظرة قاتمة.

لكن كان يجب عليها أن تتابع.

- إن لم نكن أكثر حرصاً، فسوف تسوء الأمور أكثر، نستطيع متابعة عصبيتنا على الآخرين لحد المجازفة بأن ندفن أحياء. بينما بإمكاننا الاهتمام بأمور أخرى.

- مثل ماذا؟ أجاب السيد بريدشت، ليس هذا كما لو أننا نملك تلفازاً.

رفضت إيما أن تدعه يهدم فكرتها التي بدأت تتشكل في رأسها. مضت في تصميمها بشيء من الإثارة لأنها شعرت بنوع من القوة الكامنة وراء ذلك. قالت لهم:

- نستطيع أن نقصّ، كلّ بدوره، القصّة الأكثر غرابة في حياته.

اتخذ السيد بريدشت هيئة من أُهين.

- ليس هذا فعلاً وقت التسلية.

أطلق مانغالام همهمة للدلالة على انه يشاطره هذا الرأي، وصالبت مالاتي يديها على صدرها متخذة هيئة عنيدة.

- هذه ليست لعبة .

أجابت إيما، وضمّت حقيبة ظهرها نحوها. كانت تريد أن تقول لهم أي قدرة خارقة تملك القصص. لكن الجميع كان يرمقها كما لو أنها مجنونة القرية.

- وإن لم يكن لدينا شيئاً لنحكيه؟ سألت السيدة بريدشت بلهجة حائرة.

- طمأنتها إيما قائلة وهي تشعر بالراحة من أن أحداً منهم فكّر أخيراً باقتراحها: لدى كل واحد منا قصّة ما ليحكيها. من المستحيل أنكم لم تعيشوا، على الأقل، لمرة واحدة في حياتكم، حدثاً ما، غير قابل للتصديق.

سرت منها رعشة لحظة تلفّظت بالكلمة الأخيرة، نوع من الالتباس لشيء سبق لها وعاشته. أين سبق لها أن سمعت هذا التعبير؟

– لن تعرفوا حياتي، تنهدت السيدة بريدشت قائلة.

– لم يسبق لي أن حكيت قصة على الإطلاق، أعلن السيد مانغالام باستكانة.

دلّت لهجته على أنه لا ينوي أن يفعل ذلك الآن.

– هذا ليس صعباً، قالت إيما، أنا واثقة أنكم سوف تتذكّرون حكايات قصّها عليكم والداكم عندما كنتم أطفالاً.

بمجرد أن وصلت إلى كلمة (الوالدين) انهار وجه السيد مانغالام.

– لست موهوبةً بما يكفي كي أشرح، تمتمت مالاتي، ولم تكن هيئتها كمن اقتنع عندما عرضت عليها إيما مساعدتها كي تتمكن من إيجاد الكلمات المناسبة.

– وإن لم يستسغ أحد قصتي؟

كانت تلك ليلي. فما كان من إيما إلا أن وعدتها بأنها سوف تستسيغها. أغمضت الفتاة اليافعة عينيها، وراحت تفتش في حقيبة ظهرها متظاهرة بتصديق هذا الكلام.

فتح طارق عينيه وحدّق بإيما.

– ألم تفكري في أنه قد لا يكون لدينا رغبة بقصّ حكايتنا أمام كل الناس.

قبل أن تجد إيما الجواب المناسب، كان طارق قد عاود إغلاق عينيه.

أحد المتطوعين. همست إيما لنفسها، هـذا كـل مـا أنـا بحاجـة إليه. لكن حتى كاميرون، الذي كان يشكل أهميـة خاصـة بالنسـبة إليها، كان مشغولاً بقراءة خطوط كفّه.

ثم لم تلبث أن سمعت صوتاً مرتعشاً يتحدث بالإنكليزية بلهجـة هندية متكسرة.

- سأبدأ أنا.

كانت تلك جيانغ، جدّة ليلي.

رمقها الجميع بدرجات متفاوتة من عدم اليقين.

- لكن يا جدّتي، تدخّلت ليلي قائلة: أنـت حتـى لا تتحـدثين الإنكليزية؟

رفرفت جيانغ بعينيها تحت ضوء المصباح الذي وجهه كـاميرون نحوها، بدا لإيما أنها رأت تعبيراً ماكراً قد عبر وجـه تلـك السـيدة المسنّة. أتراها كانت تتظاهر، خلال تلك السـنوات بأنـهـا لا تعـرف التحدّث بلغة هذا البلد؟

قالت جيانغ، بلهجة مفخّمة:

- أنا جاهزة، سوف أقصّ حكايتي.

كانت القواعد المحـددة مـن قبـل إيمـا بسـيطة: لا مقاطعـة، لا أسئلة، ولا لوم، خاصـة مـن قبـل العائلـة الواحـدة. وسـوف يكـون هناك فترة استراحة بين كل حكايتين إن كان هناك ضرورة.

رتّبوا الكراسي علـى شـكل نصـف دائـرة. عـادت مـالاتي وهـي تحمل زجاجة فيها عصير بطعم الفاكهة (أين وجدت هذا الشـراب؟ هل كانت تخبئه حتى اللحظة؟ وما الـذي تخبئـه أيضـاً؟) سـكبت القليل منه في طاسـات المـاء المرتبـة بشـكل مستقيم علـى المنضـدة.

وضعت الطاسات فوق صينية وقدّمته كما ربّة منزل حقيقية. أعاد طعم السكر القليل من البسمة للجميع. لكن إيما قالت في نفسها أنه في النهاية سيكون لهذا مفعول سيء.

لا يهم! أطفأ كاميرون المصباحين. وبرغم العتمة الثقيلة التي كانت تنقضّ عليهم، شعرت إيما بحيوية جديدة عند رفاقها، كما لو أنهم قد قرروا ألا يشغلوا بالهم بما كان يخرج عن سيطرتهم. كانوا جاهزين للاستماع إلى بعضهم البعض بشكل تبادلي، لا بل كانوا جاهزين لسماع الحكاية التي كانت أحياناً تتجاوز ذلك الذي كان يحكيها.

عندما كنت طفلة، بدأت جيانغ كلامها قائلة، كنت أعيش في منزل سري.

من الخارج، في الزقاق المحاط بقناة تتجاوز القاذورات النوعية للحي الصيني في كالكوتا، لا يمكن للناظر أن يرى، إلا واجهة مخيفة مربعة لبناء مُصمت أحمر قرميدي، كباقي البيوت المجاورة. وسط هذه الواجهة، كان هناك باب صغير من الخشب السيئ النوعية، مطلي باللون الخضر. كان الباب لا يُفتح إلا نادراً، مرتين إلى ثلاث مرات في اليوم، للأطفال الذين كانوا يذهبون سيراً على الأقدام إلى المدرسة الكاثوليكية الصينية على بعد بضع شوارع منه، أو للوالد، الذي كان يأتي إلى البيت في تاكسي مشترك مع رجلي أعمال صينيين آخرين. أحياناً، في فترة بعد الظهر، كانت الجدّة تأخذ عربة «توك توك» كي تذهب عند صديقاتها اللواتي كنّ يقطنّ على بعد أكثر من كيلومترين من المنزل. قد يُصادف أيضاً أن يحضر بعض الزوار غير المنتظرين، فترسل الجدّة عندها الطباخة إلى السوق كي تشتري كاتو الصويا أو فاكهة الليتشي الطازجة. لو ألقى هذا

المراقب نظرة باتجاه الباب الموارب، فسوف لن يكون بمقدورة أن يرى غير حائط قرميدي آخر. كان هذا حائط الأرواح، الذي كان يبنى بهدف خداع نظر المترصّد.

لكن لا أحد كان ينظر على الإطلاق، قالت جيانغ، لم يكن أحد يهتم بالصينيين، أقلّه في هذه الفترة، كان الهنود يعتبروننا كقوم أدنى مرتبة منهم، لأن الغالبية العظمى منّا كانت تعمل في المدبغة، أو في مخازن الجلود. لكن كان هذا عندنا سيان. كنا بين أبناء بلدنا، وكان هذا كل ما يلزمنا.

إذا ما تجاوز هذا المترصد الباب الخارجي، والتف حول جدار الأرواح، فسوف ُيذهل. كان المنزل مؤلفاً من الداخل من باحة كبيرة وجميلة تشكل قلب المنزل، لأن كل ما بقي كان مشيداً حولها، كانت النوافذ والأبواب تطل على أشجار المانغا وشجيرات الورد، ونافورة الماء التي تتوسط الباحة تقرقر ببهجة. غالباً ما كان سيد البيت يقوم بالاستقبال في هذه الباحة، في الأمسيات المقمرة، مثلاً، حيث كانوا يشربون الخمر، ويتلون القصائد، بينما الأطفال يلعبون الغميضة بين تماثيل الأسود.

لم تكن جيانغ وأخوها يتحدثان على الإطلاق عن هذه الباحة، ولا عن باقي أجزاء المنزل المكونة من غرفة المأدبة وطاولتها المصنوعة من خشب الورد المحفور، والتي بوسعها استقبال أربعة وعشرين مدعواً. غرفة والدهما المعلق فيها صورة لوالدتهما المتوفاة، مؤطرة بقماش من الحرير المطرز بصورة مالك الحزين وسمك الشبوط والذي كان الزوجان الشابان قد اختاراه كجالب للحظ، غرفة العمل وفيها مجموعة من الكتابات القديمة، الصندوق الذي يضع فيه والدهما

القطع الذهبية ومجوهرات والدتهما التي كانت من حجر الجاد والذهب، حزم من الروبيات والوثائق المهمة (جميعها عدا وثيقة واحدة، أكثرها أهمية، لكنهما سوف يفهما هذا الأمر لاحقاً). لم يكن هناك من سبب يدعو للحديث مع الصينيين الآخرين بكل ذلك، بما أنهم يعرفونها مسبقاً. فالعديد من رفاق المدرسة كانوا يعيشون في بيوت مشابهة. أما بالنسبة لمن هم من غير الصينيين ـ الأشباح ـ كما كانوا يدعونهم، فقد تعلمت جيانغ وأخوها، كما باقي الأطفال، ألا يقتربا منهم، وألا، على الأخص يكشفا أمامهم أسرار العائلة.

– وكنت أول من كسر هذه القاعدة، قالت جيانغ.

كان هذا في يوم ربيعي من عام 1962 في كالكوتا، وجيانغ البالغة الخامسة والعشرين من العمر، تقف على عتبة مخزن والدها للأحذية، في شارع «نيو ماركت» تحت لافتة كُتب عليها «مخزن فينغ ـ أحذية ذات نوعية جيدة ـ» كانت الصبية جد فخورة بهذه الكلمات التي كانت هي من انتقاها. هذه اللافتة، مع ذلك، كانت السبب المباشر لعدة مشاجرات بينها وبين جدتها لأن هذه الأخيرة، كانت تؤكد بشدة أن إعلاناً كهذا، يدل على العظمة، يكون عِرضة لجلب الحظ السيئ. «انظري إلى لافتات المخازن الصينية الأخرى المحايدة تماماً: أوركيديا الحظ السعيد، جبل حجر الجاد، التنين الطائر. لا أحد منهم يلفت الانتباه إلى اسم عائلته بالإعلان الذي فوق واجهته».

لكن والدها وقف في صفها، كعادته بعد موت زوجته عندما كانت جيانغ لم تبلغ الخامسة من العمر بعد، ومنذ ذلك الوقت لم تكف الجدة عن توجيه اللوم إلى ابنها على رقته التي تجعل منه عجينة لينة بين يدي جيانغ.

لم تصّرح جيانغ بذلك أبداً بصوت عـال، لكنهـا كانـت تصـادق على رأي جدتها. نعم، كان والدها لطيفاً جًداً معهـا، فلـيكن! وإلا لما كانت هنا في هذا المخـزن الآن، محاطـة بعطـر جلـود الأحذيـة، رائحتهـا المفضّـلة، بـل سـتكون مجـرد امـرأة متزوجـة، كمـا كـل زميلاتها في المدرسة، مع طفل معلق على وركها. لكنهـا عوضـاً عـن ذلك، كانت تهتم بمنشـأة العائلـة، الـتي لم تكـن تـثير أي اهتمـام بالنسبة لأخيها طبيب الأسنان، الذي كـان يعمـل في مكتـب ضـخم في شارع «داهارماتالا». بالرغم من أنه كان مرضّياً جداً تجـاه عائلتـه ليتقبل هذه المهنة، لكن جيانغ كانت تشك في أنه كان يحتقرها.

ناسب هذا الوضع بشكل تام جيانغ، التي كانت تعشـق عملـها. كل صباح، كانـت تفـتح هـي المخـزن كـي يـتكمن والـدها - الـذي أصيبت قدمه بداء المفاصـل، مـن النـوم لوقـت متـأخر قلـيلاً. تقـرر النماذج التي سوف تطلبها، تتحقق مـن نوعيـة القطـع المرسـلة مـن قبل المصانع، وتعيد دون حرج تلك التي لا تناسـب ذوقهـا الصـارم جداً. كانت تقوم بجولة على المـدارس الكاثوليكيـة في كالكوتـا كـي تطلب من المسؤولين إرسال طلابهـم لينتعلـوا أحذيـة مـن مخزنهـا. (كانت الراهبـات والقساوسـة سـعداء بالتعامـل مـع مخـزن «فـانغ» فالنوعية كانت ممتـازة، وكـون مخـزن «فـانغ» يـزود رجـال ونسـاء الكنيسة مجانياً بالأحذية، فهذا لا يفسد للودّ قضية) كانـت تسـاوم رجال المدبغـة الصـينين دون رحمـة في تـانغرا، وتضـرب قـدمها في الأرض بعناد أمام نماذج الجلد التي يحضرونها لهـا. كانـت تصـعق بنظرة (كما كانت تفعل في هذه اللحظة) العاملتين اللتين كانت لهما نزعة للانفجار في الضحك أمام أي حدث.

هذه المرّة، كان سبب تصنعّهما الإغـراء هـو وصـول شـاب أمـام المخزن. لاحظت جيانغ أن هذا الشاب كان أكثر ضخامة من أغلبية الشباب الهنود، حليق الذقن، عكس كل نمـاذج الـذكور البنغـاليين المقتنعين بأن اللحية هي رمز للمفكرين. كـان قميصـه الأزرق مكويـاً بعناية، لكن أكمامه كانت مطوية للأعلى. هذا التفصيل الصغير كان يضفي عليه هيئة اللامبالاة والتي وجـدتها جيـانغ جذّابـة للغايـة، ربما لأن والدها وأخاها، كانا هما الاثنين تقليديين جداً، لا يقومـان مطلقـاً بعمـل شـيء كهـذا. قـررت أن تهـتم بـه بنفسـها، فصـرفت العاملتين بحركة من يدها.

كان الرجل بصحبة فتاة قد تكون في الرابعـة عشـر مـن عمرهـا، عيناهـا جاحظتـان تحملقـان بـه، ويكـاد يغمـى عليهـا مـن شـدة الإعجاب. تكهنّت جيـانغ أنهـا أختـه الصـغيرة. في اللحظـة الـتي دخلا فيهـا المخـزن، انحنـى وهمـس في أذنهـا بدعابـة ـ أو ربمـا ـ وجدت ما يقوله مضحكاً، فانفجرت في الضحك، ومـن ثـم وضـعت فوراً يدها على فمها محرجة، فسحبها قائلاً:

– توقفي عن فعل هذا يا مينا! فلك كل الحق في الضحك!.

ذُهلت جيانغ أمام هذه الكلمات. لم يسـبق لأحـد في عائلتهـا أن شجّعها على الاسترسال هكذا في الضحك. حتى والـدها الـذي كـان يحبها بشـدة بقـي معهـا رجـلاً حصـيفاً، والسـماح لهـا بالعمـل في المخزن كان من أكثر القرارت مجازفة سـبق وأن قـام بـه في حياتـه. وكانت تلك جرأة مؤقتة، لأنه عاجلاً أم آجلاً، كانت جدتها سوف تتغلب عليه، وتزوجه مرة أخرى. أما بالنسبة لأخيها، فقـد كانـت جيانغ تتخيله في سترته البيضاء النقية، بقناعه أسفل وجهـه (كـي

يتلافى الجراثيم وروائح السمك الذي يقول أنها كانت تفوح من أفواه كل البنغاليين) منحنياً فوق أحد المرضى. تركت تنهيدة غيرة تنطلق من صدرها تجاه هذه الفتاة، ومن ثم، لم يلبث جانب امرأة الأعمال أن عاد ليفرض نفسه عليها مرة أخرى. إنه مجرد أخ محب جداً يريد أن يشتري حذاء من نوعية جيدة لأخته الصغيرة، قالت في نفسها، وليس لزاماً عليه أن يبحث عن تجارة رابحة.

كما توقعت، فقد جاءا لشراء نموذج من الأحذية الموحدة لـ «لوريتو هاوس» إحدى المدارس الكاثوليكية الأكثر كلفة في كالكوتا. اتجهت الفتاة نحو الجهاز المستخدم لمعرفة نمرة الحذاء، لكن جيانغ كانت قد طلبت مسبقاً من العاملة أن تأتي بالنموذج آ 22 و23، وآخر س أو 602 قياس 36. وصلت أربعة أزواج من الأحذية، اثنان بلون أسود وبربّاط لأجل أيام المدرسة، واثنان بلون أبيض مع بكلة صغيرة فضية لأجل باقي الأيام. ناسبت كل هذه الأحذية الفتاة اليافعة. نظرت العاملتان إلى جيانغ بنظرات الدهشة، وحتى الشاب لم يُخفِ تأثره بالأمر. فاختار نموذج آ 23، وس 602، الأكثر ثمناً، وفي اللحظة التي قادته جيانغ نحو الصندوق، قال بأنه يرغب في شراء حذاء آخر لأجل مينا، حذاءها الأول بالكعب العالي. هل باستطاعة جيانغ أن تتكرم وتنتقي لها شيئاً ما ملائماً بما أنها تتمتع بالذوق الجميل؟ ألقى نظرة على قدميّ جيانغ، على حذائها الأنيق ذي الكعب العالي المربع باللون الأزرق الغامق، المناسب تماماً لتنورتها الرصاصية اللون. لكن نظره لم يتوقف هنا، بل تجول (لكن ليس دون احترام، حكمت على الأمر) على تنورتها، التي كانت تبرز صورتها الرشيقة والهيفاء، وعلى قميصها الدانتيل ذي الكمين المنفوخين، على رقبتها، وذقنها، ثم أخيراً في عينيها.

لم تكن جيانك تفتقد الخبرة في التعامل مع الرجال. فقد حضرت العديد من الاجتماعات المعقودة من قبل «النادي الصيني» حيث سنحت لها الفرصة بصرف العديد من مدّعي الزواج. لكن اليوم، وبينما هي تطلب أن يجلبوا لها لـ 66 و ب 24 ذو اللون البيج الغامق، شعرت بغصّة في الحلق. جرّبت مينا الحذائين، نصحتها جيانك بأن تختار نموذج ب 24 وأعلن أخوها بأن هذا اختيار مثالي.

بينما كانت مينا مبتهجة، تتجوّل بخطوات لم تزل مترددة في المخزن، وهي واقفة على كعبها العالي، مدّ الأخ بطاقته إلى جيان. نظرت إلى المستطيل الأبيض الموضوع في راحة يدها ـ الثقيل والأملس ـ كي تكتشف أن الرجل يدعى موهيت داس، وأنه مدير ـ لم يزل شاباً وهو مدير! ـ للبنك الوطني والغرندليز. شكرها على مساعدتها، وسألها إن كانت تحب أن ترافقه غداً بعد العمل عند «فلوريز»[24] لتناول قهوة وكاتو، سألها عن رقم هاتفها وعن اسمها، جيانغ؟

عدنما كرّره، شعرت المرأة أن اسمها اتخذ أكثر أناقة، وأكثر غرابة من أي وقت مضى. توقف عند باب الخروج، وأشار نحوها بحركة من يده. مرّ كل شيء بسرعة لدرجة أنها ـ من دهشتها ـ لم ترد على تحيته. لكنها توصّلت في النهاية إلى أن تردها بالرغم من ذلك. رفعت يدها ـ التي كانت لم تزل ممسكة بالبطاقة ـ وابتسمت له.

عندما تعيد التفكير في ذاك اليوم الشهير، كانت جيانغ تفكر على الأخص بالطعام، بالمذاق الهشّ لعجينة اللوز، ولطعم الكعك الصغير تحت لسانها. ثم لاحقاً، «البراتها»[25] المحمّص جيداً، كما

[24] فلوريز: مقهى للشاي شهير اُفتتح في كالكوتا عام 1927.

[25] Paratha: خبز هندي غير مخمّر.

بالمطاعم الرخيصة حيث كانا يأكلان في «غرفة عائلية» معزولين عن باقي الزبائن بستارة. وعندما كانا يشعران بالراحة أكثر، كانا يرتادان كافيتيريا كولج ـ ستريت يحتسيان القهوة، ويأكلان يخنة الخضار، جالسين بين الطلاب، ثم «شاآت»[26] الأرز والبطاطا المشتراة من البائعين المتجولين لأنه كان يريدها أن تتذوق ما يأكله البنغالي الحقيقي. كانت الشاآت حرّيفة الطعم لدرجة جعلت الدمع يطفر من عينيها، لكن بعد أن تربت على وجهها بمنديل موهيت، كانت تقرّ أن هذا الطعم يستحق حقاً بضع قطرات من الدمع.

– بالتأكيد... وقعتُ في الحب، تابعت جيانغ. فكل ما هو ممنوع مرغوب. كما هو الحال بالنسبة إلى الأمور المختلفة، وخاصة إن كانت للمرة الأولى. اجمعوا كل ذلك معاً وسوف يكون الناتج شراباً مسكراً.

مهما كانت نيّة موهيت، إلا أنه استسلم هو أيضاً لهذا الخليط المسكّر. عندما كان يشاهد أحياناً جيانغ وهي تعمل «كان يتجرأ أحيانا في المجيء إلى المخزن» يتأثر من إحساسها العالي بالعمل، مفاوضاتها على السعر دون هوادة، ذكائها في اختيار النماذج الأكثر ملاءمة لكل زبون. وهناك أيضاً حكاياتها التي كانت تحكيها عن البيت الذي ترعرعت فيه، والذي شكّل في مخيلته، قصراً كقصر «المدينة المحظورة». هل بإمكان كالكوتا أن تحوي كنزاً مخبأ كهذا؟ يجب عليه أن يرى ذلك بأم عينيه. لهذا، بعد عدة أشهر من اللقاءات السرّية، والقبلات الطائرة في المطاعم، ودور السينما، والممرات المغبرّة وسط المكتبات الجامعية، تزّود بعلبة كبيرة من

[26] Chaat: نوع من الفطيرة المقلية.

الكاتو بالكريما، اشتراها من عند أفضل بائعي الحلويات في المدينة، ونجح في إقناع جيانغ لتأخذه إلى والدها كي يطلب يدها، وليحصل ما يحصل. أثارت جدة جيانغ فضيحة وهدّدت بالعودة إلى الصين «لكن لم يأخذ أحدٌ هذا الأمر على محمل الجد، فالعائلة كانت قد هاجرت إلى الهند منذ عدّة أجيال، ولم يعد أحد قادراً على تذكر اسم بلدته الأم» لكن الذي فاجأ جيانغ أكثر، كان والدها، الذي كان يستجيب بالعادة لكل رغبات ابنته، وها هو الآن يعارض وبشكل قاطع هذا الزواج.

– قال لي بأن زواجي سيكون فاشلاً، تابعت جيانغ قائلة: وعندما قلت له أني أحب موهيت أجابني: «وهل يمكن لسمكة أن تعشق عصفوراً».

في النهاية، ولأنه لم يستطع تحمل دموع ابنته، سمح لجيانغ وموهيت بمتابعة لقاءاتهما، فإن بقيت مشاعرهما بعد عام من الآن هي نفسها لم تتغير، فسوف يفكر من جديد بالأمر.

أظهرت عائلة موهيت صرامة أكبر. فهم كهندوس مخلصين، وبنغاليين مستقيمين، صعقوا لرؤية ابنهم الوحيد، آخر من يحمل اسم العائلة التي شكّلت الفخر لعدّة أجيال يرتبط بامرأة صينية متوحشة، مجرد فكرة أن يكون لديهم أحفاد بعيون مشدودة، آكلي الإخطبوط، جعل ضغط والدة موهيت يرتفع وتلازم السرير. أجلس والد موهيت ابنه وبدأ معه حديثاً من رجل إلى رجل، والذي من خلاله أعلن بأنه لن يسمح أبداً لهذا الخزي أن يحلّ في العائلة. «لابد وأن هذه الفتاة قد قامت بعمل السحر لك»، قال له، لدرجة جعلتك تنسى فيها مهامك كابن وأخ. سمعت أن للصينيين سحرة

خاصين لهذا النوع من الأشياء. كيف بإمكاننا تزويج مينا من عائلة كريمة المحتد إن أنت أصرّيت على هذه الفكرة المرعبة؟ ثم أضاف لاحقاً: «خذها كعشيقة كي تخرجها من رأسك، إن كنت متعلقاً بها لهذه الدرجة، بعدها سوف نبحث لك عن زوجة مناسبة، امرأة لن أخجل من تقديمها ككنتي أمام العائلات الرفيعة المستوى في كالكوتا».

ذاك الثائر الذي ترك بيت والديه كي يذهب للسكن في نزل مع صديق له من الجامعة كان هو، موهيت. بعد ذلك بوقت قصير، حضر ثلاثة رجال إلى مخزن السيد «فانغ» ليقولوا له بأن مصيبة سوف تحدث لابنته إن هي لم تترك موهيت وشأنه. منع السيد فانغ ابنته وهو مرعوب من مغادرة المنزل. بدأت جيانغ، وهي محبوسة وهائجة تكره هذا المنزل الذي كانت قد أحبته بشدة حتى الساعة. لم تكن تستطيع أن تتصل بموهيت إلا مرة في اليوم، وبالكاد لمدة بضع دقائق بينما تكون جدتها تأخذ حمامها.

أقسم لها موهيت على حبه. سوف لن يستسلم لضغوط والده. سوف يفرّان معا، ويغادران نحو دار جيلينغ أو غويا. طلب منها أن تحزم أمتعتها القيّمة و تبقى جاهزة على الدوام.

لكنها تكهّنت من نبرة صوته أنه كان مهموماً. كانت تعلم أنه يفتقد عائلته وفهمت أنه يشعر بنفسه ممزقاً. وبينما هي تخبئ تحت سريرها حقيبة قديمة، وضعت فيها بعض الثياب والمصاغ التي كانت تملكها، تخيلت وجه والدها عندما سيكتشف غيابها وشعرت أنها غارقة في الشعور بالذنب. في الليل، وهي مستلقية في فراشها بعيون مفتوحة، كانت تحلم بحياتها مع موهيت في مدينة

جبلية أو منزل على شاطئ البحر، محاط بنبتة الجهنمية. كانت تشك أنه في يوم من الأيام، سوف يرمي أحدهما المسؤولية على الآخر بما كلفتهما هذه الحياة.

من كان يعلم كيف كانت الأمور ستسير إن نجح مشروعهما في الهرب؟ أخذت جدة جيانغ، ووالدة موهيت تتضرعان إلى المشيئة الإلهية عندما شعرتا بالخراب الوشيك الذي سيحل على عائلتيهما المحترمتين. أشعلت الجدة أعواد البخور في معبد «كيوان ين» وقدّمت والدة موهيت أكاليل زهور الخبيزة للآلهة كاليغات. وهما الاثنتان قدما الصلاة نفسها: «فلتعمل الآلهة على إنهاء الارتباط بين جيانغ وموهيت، وليتزوج كل منهما بشخص محترم من مستواه الاجتماعي».

منذ آلاف السنين لم يتوقف الناس عن الشكوى من بطء استجابة الآلهة، لكن في هذه الحالة بالذات، بدأت الآلهة بالعمل فوراً، حتى ولو لم يكن تماماً بالطريقة التي تخيلتها المتضرعتان.

بعد ثلاثة أيام من تقديم الصلاة، هاجمت فرقة من الجيش الشعبي الصيني الحر دورية هندية في مقاطعة «أكساي» غرب الهيمالايا.

أطلق هذا الحدث الحرب الصينية ـ الهندية عام 1962. نزل عندها الجيش الصيني للتحرير الشعبي نحو الجنوب، ومن هناك إلى ما وراء خط ماك ـ ماهون، وسط الأراضي الهندية، ناشرين قواتهم غرب الهملايا، واقتربوا من كالكوتا، واحتلوا ضفتي نهر «ناماكشو». كانت المعلومات الأولية المنقولة تردد أن الصينيين ينظمون صفوفهم عند الحدود. راحت تجتاح الجرائد إعلانات عن خطف وقتل شبان هنود. أغلقت السفارة الصينية أبوابها، وأخذت الإشاعات حول نية «ماو» بتفجير كالكوتا تصبح شيئاً فشيئاً أكثر

جدية، وانتشر الرعب في المدينة كالنار في الهشيم.

عندئذ، توقف الهنود عن الذهاب إلى الشركات الصينية. هُدمت المخازن. أُحرق أحد المطاعم الصينية على الرغم من شعبيته، لأن مجموعة من الزبائن أُصيبوا بحالات من التسمم الغذائي، وكان الجميع مقتنعاً بأنها مؤامرة تهدف إلى قتل كل الهنود. أشهرت البنوك الصينية إفلاسها، وبدأت تظهر خربشات حمراء وقرمزية اللون على جدران منازل الصينيين معلنة أسماء الجواسيس. أمرت الحكومة الهندية الأشخاص الذين من أصول صينية بالتقدم للتسجيل عند السلطات، وتقديم أوراق تثبت هويتهم. كانت جيانغ وأخوها محظوظين، فقد وُلدا هما الاثنين في مستشفى، وبالتالي فقد كانا يملكان شهادة ميلاد هندية. لكن كثيراً من الأشخاص الآخرين، الذين كانت عائلاتهم تعيش في البلد منذ عدة أجيال، لم يفكروا على الإطلاق في طلب أوراق ثبوتية. وكان والد جيانغ واحداً منهم.

تمّ تعيين مكان إقامته، تابعت جيانغ قائلة. كان لزاماً علينا إغلاق المخزن، وصرف العاملين. لم تكن لدينا أدنى فكرة عما سوف يحل بمنزلنا، أو بنا. واجه أصدقاؤنا المشاكل ذاتها. أُجبر فانسان على إغلاق عيادته. لم يعد هناك من أحد يثق بطبيب أسنان صيني. كنا نقضي وقتنا مسجونين بين جدران البيت، مترصدين الأخبار في المذياع كي نعرف المصير الذي سوف يحل بنا. انتشرت إشاعات مخيفة، وترك الكثير من الأصدقاء ثرواتهم وغادروا إلى وطنهم. كان مرفأ كالكوتا يحتشد كل يوم بالصينيين الذين يحاولون الحصول على مقصورة بأي باخرة.

لم أتوقف عن الاتصال بموهيت، لكن لم أستطع على الإطلاق أن

أجده. في يوم، رفع أحد زملائه سماعة الهاتف وقال لي بأن موهيت اضطر للمغادرة كي يعتني بوالدته، التي كانت صحتها قد تأزمت. سألني عن اسمي، فلم أجب، لكني شعرت تماماً بأن لديه شكوكاً بالأمر. بعد ذلك، خشيت الاتصال، لكني لم أستطع أن أمنع نفسي عن معاودة الكرّة، فإن أجاب شخص آخر فسوف أضع السماعة فوراً. ثم، ذات صباح، اتصل بي موهيت من إحدى كبائن الهاتف. طلب مني مغادرة كالكوتا بأسرع ما أستطيع، فقد سمع أقوالاً عن إرسال كل الصينيين إلى معسكرات الحجز. وأضاف أنه لم يعد يستطيع أن يراني، أو يهتف لي، فقد تلقى تهديداً من أشخاص كانوا يعرفون بعلاقتنا. كان يخشى اعتبار عائلته كمناصرين فيلحقوا الأذى بهم، وقد جعلت الخشية والدته أكثر ضعفاً مما هي عليه. «سامحيني، قال لي، أنا أحبك، لكن ليس بمقدوري أن أحارب بلداً بحاله». وأغلق الخط.

انتابني إحساس بانهيار العالم كله. لم أستطع أن أصدق أن بإمكان موهيت التخلي عني هكذا. لم أكن أجرؤ حتى على القول أمام عائلتي إلى أي درجة كنت أتعذب، فقد كان لديهم ما يكفيهم من المشاكل التي تنتظر الحل.

بدا أن شكوك موهيت كانت صحيحة. فبعد عدة أيام، تلقّت عائلة جيانغ الأمر بمغادرة البلاد، وإلا فسوف تُرسل إلى معسكر الحجز في راجستان، في الطرف الآخر من الهند، ومن لا يمتثل للأوامر فسوف يُرحّل إلى الصين. بالنسبة لوالد جيانغ، كانت العودة إلى الصين التي تحت اسم «جونغ» التابعة لشيوعية ماو مستحيلة. فلاجئوا أعوام الخمسينيات كانوا قد حكوا له قصصاً عن

معسكرات العمل المجتاحة بالمجاعة والأمراض، وعن ذبح كل من كان يعتبره الحزب خائناً. وهو في الوقت نفسه لم يعد يثق بالحكومة الهندية، هذا البلد الذي ارتكب خطأ التعلق به، واعتبره كبلده. حاول جاهداً إخراج ولديه من الأراضي الهندية نحو فانكوفر، البرازيل، أو سان فرانسيسكو، سيدني، أو حتى فيجي. أي مكان لا يهم (كان واثقاً تماماً، أنه ووالدته، لن يستطيعا الخروج طالما أنهما لا يملكان أوراقاً ثبوتية) لكن «الخروج» الصيني كان على أشده، ولم يعد هناك أي بطاقة طائرة جاهزة، ولا أي كابينة باخرة شاغرة. كان السيد فانغ جاهزاً لدفع أي مبلغ كان، لكنه أدرك بسرعة أن الآخرين قد قاموا بدفع أضعاف المبلغ الذي دفعه، وأن كل الأمكنة قد حُجزت.

قبل يومين من إجبار العائلة على الصعود إلى القطار المتجه نحو «ديولي»، وهي مدينة جافة وغير مضيافة، توصّل فانسان أن يستدل على مكان صديق ـ الحقيقة هو مجرد معرفة ـ كان قد قابله عدة مرات في نادي أطباء الأسنان الصينيين. كان كيرتي شان عازباً، وقد نجح في الحصول على كابينة في باخرة متّجهة إلى أميركا، سكانت ستبحر في صباح اليوم التالي. في المساء نفسه، ودون أن يُعلموا جيانغ، رشا فانسان ووالده الحارس الواقف أمام البيت كي يتركهما يمران ويذهبان عند كيرتي شان. أخذا معهما صورة لجيانغ، وحزمة من الدولارات التي حصل عليها السيد فانغ بطريقة ما، وعدّة لفائف لمخطوطات خاصة ونادرة، وكل مجوهرات السيدة فانغ.

كان كيرتي شان رجلا عملياً. في هذا اليوم بالذات، كان قد تقدّم إليه أكثر من عائلتين كانت بناتهما في عمر الزواج، وفي اللحظة

التي كان على وشك أن يتصل فيها بإحدى تلك العائلتين، قرعت عائلة فانغ الباب. لكن ربما كان هناك القليل من الرومانسية في قلب هذا الفتى، أو شيء من حب الفن وإلا، فلماذا بعد أن تفحّص صورة جيانغ، واللفائف، قبل بعرض السيد فانغ، بينما كانت إحدى تلك العائلتين قد عرضت عليه مالاً اكثر، زيادة على المجوهرات القيّمة وحقيبة «كروغيرانتس»[27] من الذهب؟ عاد فانسان إلى المنزل كي يأتي بأخته، بينما أسرع السيد فانغ والسيد شان ـ من المستحسن مناداته بالسيد، لأن هذا ما كانت سوف تكتشفه جيانغ قريباً، وقد كان أكبر سناً بكثير من أخيها وتقريباً أصلع ـ إلى معبد بوذي في تانغرا.

– وهكذا في بضع دقائق أصبحت متزوجة. تنهدت جيانغ قائلة.

في الحالات الطبيعية، كانت جيانغ ستعارض ما قرر والدها بشأنها، ورميه لها بين ذراعي رجل خمسيني، مكرش، لم يسبق لها أن رأته في حياتها، دون أن يأخذ برأيها. لكن منذ أن تلقت اتصال موهيت، لم تعد إلا ظلّاً لنفسها، تتجول في المنزل متبلّدة الإحساس تماماً، تترنح من وقت لآخر تحت نوبة من البكاء. للحظة، تمنّت لو أن قنبلة تسقط وتهدم كالكوتا، أو على الأقل منزل موهيت. في اللحظة التي تلي ذلك، تعود بالذاكرة لذاك اليوم القدري حيث كان باستطاعتها مغادرة المخزن قبل وصول موهيت وتلافي كل هذه المعاناة التي حملها الحب إليها. في مرات أخرى، تتخيّل أن موهيت قد جاء حتى باب منزل فانغ كي يخطفها

---

[27] Krugerrands: قطع من النقود الذهبية غير متجانسة ورقيقة جداً، ما يحسب فيها وزنها وليس شكلها.

ويأخذها إلى أحد الأماكن ذات الجذور الصينية التي لا تشكّل بالنسبة إليهما أية مشكلة.

وقفت هنا في المعبد البوذي متأرجحة من تضارب الأفكار، تحت ظلال متوعدّة للهب شمعة وحيدة منعكس على الجدران. (كان كالكوتا تحت منع التجوّل) وأطاعت تعليمات الكاهن كما لو أنها دمية متحركة.

لم تنتبه للخطأ الكبير الذي اقترفته إلا صباح اليوم التالي، في اللحظة التي كانت الباخرة «سيلاك» ستغادر المرفأ. رمت نفسها بين ذراعي والدها وقالت له بأنها لن تذهب وأنها أيضاً تفضل أن يموتوا معا.

كان يجب على أخيها وعريسها الجديد، أن يبذلا جهدهما كي يستطيعا جعلها تعبر المعبر، بينما كان والدها هو أيضاً يبكي، محاولاً مواساتها قائلاً: «كل شيء سيكون على ما يرام. سوف أعود إلى المنزل بمجرّد أن تسوي السلطة كل هذا، ومن ثم سوف آتي لرؤيتك في أميركا. سيلحق بك أخوك قريباً. سيأخذ باخرة أخرى خلال بضعة أيام». لكن لاشيء من هذا قد حصل كما وعد. في أقل من شهر مات بأزمة قلبية في معسكر الحجز، ووالدته، وقد هدّها الحزن، لم تتأخر عن اللحاق به. أما بالنسبة لفانسان، فقد أبحر بعد بضعة أيام، بعد جيانغ، لكن في باخرة متجهة إلى استراليا، وقد استغرق منهما الوقت عدة سنوات، هو وهي، قبل أن يلتقيا مرة أخرى.

– وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي رآني فيها أبكي. قالت جيانغ.

دام السفر شهراً كاملاً، بدا لها كأنه بلا نهاية. كانت محبوسة

في مقصورة صغيرة جدا مع زوج آخر من العرسان الشباب (في لحظة الإبحار، اكتشفوا أن القبطان، مستفيداً من الظروف، باع البطاقات مرتين) فهم السيد شان والسيد لو بأن ليس أمامهما خيار آخر فقاما بجهدهما كي يتأقلما مع هذا الوضع. قسّما المساحة الصغيرة بمدّ غطاء عبر الغرفة، وضعا سريراً مرتجلاً على الأرض، وتبادل الأزواج النوم بين السرير الحقيقي والسرير المرتجل. أسفر هذا التدبير عن نتيجتين: أولهما الصداقة المتينة التي نمت بين السيد شان والسيد لو، وثانيهما، حمْل جيانغ في نهاية السفر.

بماذا كانت تفكر وسط هذه الأحداث الجديدة؟ هل كانت تفكر بالفرح يجتاحها كلما كان الطفل يكبر في داخلها؟ أم أنها كانت مرعوبة بشدة من فكرة أن يكون لديها طفل في بلد لم تكن تعرفه، ولا يوجد فيه أحد كي يساعدها أثناء حملها ويساندها في التصرف في أولى أيام أمومتها؟ هل تعلّقت بوالد الطفل، هل كانت على وشك أن تصبح عاشقة؟ هل تحقد عليه كونه سجنها في هذا الجسد المنتفخ بشدّة والذي لم يعد يدخل فيه أي من الثياب الجميلة التي كانت قد اشترتها في كالكوتا؟ هل كانت تقارنه برجل آخر؟ بذاك الذي كان قد قبّلها سابقاً بحنان؟ أو بالأحرى كانت تتحمّله، مستسلمة، لأنها كانت تعرف أن لا خياراً آخر أمامها؟

في أمريكا، بقيا يتنقلان من مدينة إلى أخرى حتى اقتنع أخيراً السيد شان أن شهادته كطبيب لم يكن لها أي قيمة في هذا البلد. انتهى بها الأمر ببيع مجوهرات جيانغ كي يشتري مخزن بقالة صغيراً في حي صيني. كانت جيانغ تساعده في المخزن، وتقسّم وقتها بين الزبائن وبين الأطفال. في البداية كان طفل واحد ثم

اثنان، كانا يلعبان في الحديقة الخلفية الصغيرة للمنزل. كانت جيانغ موهوبة جداً في إدارة الأعمال، لدرجة، أنه، في الوقت الذي كبر فيه الطفلان، كان المخزن قد تحوّل إلى متجر كبير، وعاشت عائلة شان في شقة مريحة فوقه. اشترت العائلة متجراً ثانياً ثم ثالثاً، أرسل الطفلان إلى مدارس خاصة، وانتقلت العائلة إلى شقة فاخرة وواسعة في مسكن محاط بحديقة.

كان يوجد في الحي الصيني كل ماتحتاجه جيانغ من الحاجات اليومية: الأسواق، دور السينما، منازل أصدقائها، ومدرسة أبنائها. هل كانت تحتاج إلى شيء آخر؟ بالطبع نعم، لكنها كانت قد دفنت حاجتها تلك في أعماق نفسها. ضمن هذا المحيط المغلق لم تكن بحاجة إلى التكلم باللغة الانكليزية، لذلك فقد نسيتها. كما نسيت أيضاً إلى جانب هذه اللغة التي كانت جد فخورة بها وتتكلمها بطلاقة في يوم من الأيام، ذاك الجزء من ماضيها حيث لعبت فيه اللغة الانكليزية دوراً مهمّاً. في الوقت الذي ولد فيه أحفادها لم تعد تتحدث مطلقاً بغير لغة «المانداران».

كان السيد لو، الذي أصبح أرملَ، يزور شيان أحياناً في المساء، وكانت جيانغ تقدّم لهما الشاي «والديم سوم»[28] لكنها لم تكن تشترك مع استحضارهما للماضي الحزين. رفضت أن تغرق في الذكريات حتى مع أخيها فانسان، الذي نجح أخيراً في الاستدلال على مكانها، والذي كان في استراليا، حيث بعد عدة سنوات من العمل الدؤوب أصبح ـ ولسخرية القدر ـ مدير أحد مصانع الأحذية. كانت جيانغ سعيدة لرؤيته مرة أخرى، بالرغم من مفاجأتها بهيئته

---

[28] Dim sum: طعام صيني تقليدي يقدم بقطع صغيرة.

(فهذا الرجل المحني ذو الشعر الذي بلون الملح المخلوط بالبهار، والذي يمضغ التبغ، كان على بعد آلاف الأميال من ذاك الفتى الذي كانت قد تركته في مرفأ كالكوتا، وهو في قميصه الأبيض النقي المزرّر حتى أعلى الرقبة) عندما تحدّث عن طفولتهما، واستحضر بأسلوب شاعري المنزل السرّي، حيث فيه ترعرعا، لم تشاركه حديثه. وحدها النفوس الفقيرة تجترّ هكذا الماضي. مع ذلك، تغيّر شيء ما في داخلها عندما سمعت زوجها وأخاها يتناقشان مع بعضهما البعض عن أيام زمان. بعد رحيل فانسان، ذهبت لتجلس قرب النافذة في غرفتها، ونظرها تائه في الفضاء. لم تكن ترى الشوارع المكتظة للحي الصيني، إنما باحة دخلية، وورود تتعربش على مقعد من الحجر، وأطفالٌ يركضون حول نافورة ماء، وهم يضحكون. يظهر القمر، فيخترق جماله قلبها، ووالدها يلقي أشعارا لشعراء أقدمين، وهي تدندن أحياناً الأبيات معه. كل يوم كانت تشعر برائحة عطرِ أشجارِ المانغا بشكل جلي أكثر فأكثر. راح الفراغ يحفر داخلها شيئاً فشيئاً، حتى اليوم الذي شعرت فيه أنها ليست أكثر من بامبو مجوف. لهذا، فعندما مات السيد شيان واستلمت رسالة من أخيها فانسان، يعلن فيها نيته في العودة إلى كالكوتا، كي يسكن ربما فيها، انتابتها نزعة لاشعورية ـ هي التي اعتقدت دوماً أنها قد تخلصت من تهورها منذ سنين طويلة ـ أنها سوف تلحق به إلى مدينة طفولتهما.

– لماذا أريد الذهاب إليها؟ قالت جيانغ، هزّت كتفيها ورفعت ذراعيها، وقالت لا أعرف. هذه هي نهاية الحكاية.

7



في الصمت الذي ساد بعد حكاية جيانغ استسلم كل فرد منهم إلى أفكاره الخاصة. تفرّغ الجميع لمهامهم التي كان قد وكّلهم بها كاميرون أو أملاها عليهم جسدهم، لكن الحكاية بقيت تشقّ طريقها بينهم. كانت تضيء وهي تدور دون نهاية حول نفسها، كالحجر النيزكي في فيلم بطيء.

حرّكت مالاتي طاسة الماء التي سكبت فيها بعض الشراب المحلّي تحت النور الباهت لضوء الشعلة، التي أعاد كاميرون تشغيلها ـ بضع دقائق لا أكثر، حذّرهم قائلاً ـ وهي تعيد التفكير في اللحظة التي كان يجب على جيانغ أن تغادر فيها والدها.

هذه الواقعة أعادت إلى السطح ذكريات بغيضة: إلى اللحظات التي رأت فيها عائلتها للمرةٍ الأخيرة، أمام رواق الأمن في مطار «شيناي» فقد سامحاها أخيراً، وتحمّلا مشقة السفر في القطار من «كوامباتور» كي يودّعاها بالرغم من اعتراضهما للأمر. كانت شديدة الخجل من ملابسهما ذات الألوان الصارخة، ومن لهجتهما القروية. منظر والدتها الباكية التي عانقتها ورفضت أن تتركها، ونصائح والدها، الذي كان يوصيها أن تكون فتاة مرضيّة وألا تجلب إليها المشاكل. أختاها اللتان طلبتا منها أن ترسل لهما كمّاً من

الأشياء من أمريكا. كل هذا، جعلها في ذلك الوقت أكثر سعادة برحيلها. والآن، قد لا يكون مقدّراً لها أن تراهما مرة أخرى. في اللحظة التي فرضت هذه الفكرة نفسها عليها، عادت إليها قائمة طلبات أختيها كاملة (قائمة كانت قد نسيتها حتى قبل صعودها إلى الطائرة) عادت إلى ذاكرتها بدقة مربكة: شوكولا ماركة هيرسنيز، صابون دوف، أحمر شفاه ريفلون، مجلات نسائية، ودفتر يوميات أنيق مع قفل صغير ومفتاح يناسب كلاً منهما.

ثم، فكرت مالاتي بالسهولة التي غيّر فيها موهيت قراره، ووجدتها ذكورية تماماً. شعرت بالغضب يعتريها، وكادت أن توقع الطاسات التي كانت تحملها.

لم يتحرك طارق قيد أنملة، حتى لم يكلّف نفسه مشقّة وضع قدميه على حاجز الكرسي، بالرغم من نصائح كاميرون. بدأ الماء في الصعود، وأخذ يهدد بالتسرب إلى داخل حذائه. كان الشاب هو أيضاً يفكر، بجبين متغضن. لابد وأنه نظر إلى هاتفه المحمول إن كان يعمل، لكنه الآن كان يفضل التأمّل في طبيعة السُلطات. لم يكن بالإمكان الوثوق بهم. هم دائماً يقفون ضدّه في اللحظة التي لم يكن ينتظرها، هم المواطنون الأشراف، الذين يسجنونك كما لو كنت مجرماً. لمَ هو مضّطر للعيش في بلد جعلت والده يتلقى فيها معاملة كهذه؟

أمل مانغالام أن يسمع حرارة الاتصال تعود إلى أحد هواتف المكتب، لكن جزءاً فقط من عقله لاحظ بأنها لم تزل معطلة، بينما الجزء الآخر كان يفكّر في العشق الجنوني الذي شعرت به جيانغ نحو موهيت، في هذا العشق المتجمّد ضمن لانهائية القدر. عشق، بحسب

الرعشة التي اعتقد أنه شعر بها في صوت المرأة المسنة لم يكن قد انطفأ. كانت جيانغ تلعن القدر لأنه فرّقهما. لكن ألم تحظ بطريقة أخرى بالحظ؟ لو تزوجا، لكان عشقهما قد اتخذ على أحسن حال، صيغة مريحة كما متعة الشعور بقياس زوج من الأحذية، أما في أسوأ الأحوال، فسوف تكون حياتهما مشابهة لحياته. (كان مانغالام في البداية يحب زوجته، كان يتذكر أنه عرف الحب معها، لكنه لم يعد يتذكر بماذا كان يشعر. هذا الجزء من الذكريات بالذات قد اختفى تماماً، كملف يُمحى من قبل فيروس في الحاسوب) الحب، عندما يكون نابضاً وحياً، هو عبارة عن إكليل من الزهور، فكّر في نفسه. لكن بعد أن يموت هو مجرد مضغطة[29]. شعر مانغالان بالرضى عن نفسه لهذا التشبيه الذي وجده للتو.

كانت ليلي وإيما تساعدان كاميرون في التحقق من وضعية السقف.

قالت ليلي بينما كانوا يجتازون الغرفة كي يذهبوا نحو المخزّن: نجحت جدّتي خلال كل تلك السنين بالتظاهر أمامنا بشكل جيد بأنها لا تفهم الإنكليزية كي تجعلنا نتحدّث اللغة الماندارية! وكل تلك الأمور التي حصلت معها...

أطلقت صفرة وعيناها تلمعان في الضوء الشاحب للمصباح:

– بي رغبة الآن أن أصطحبها إلى الهند وأرى ذاك المنزل الشهير.

– أنا أيضاً أحب أن أرى ذاك البيت. أضاف كاميرون.

إن أردنا مقارنة الأشخاص بالمنازل، قالت إيما في نفسها، فإن كاميرون كان أكثر غموضاً من منزل جيانغ القديم. من تراه كان يقطن في غرفه الداخلية المُغلق عليها بالمفتاح؟ ضمن الأسى الذي

[29] هي خشبة تدخل في وتر المنشار لتشدّه.

يغلف حياة إيما، كان غموض كاميرون يعطيها شيئاً ما تستطيع التعلق به، كان يقدم لها إمكانية الاستكشاف. أما بالنسبة لرامون، فقد كان منزلاً يابانياً تقليدياً، بحواجزه التي من ورق الأرز حيث الضوء يتسلل عبرها، ويُظهر صوراً ظليلة. ربما هذا ما شدّها إليه، الشفافية. لم يخبئ عنها شيئاً أبداً، حتى قوة حبه نحوها.

لكن، لماذا كانت تفكر فيه بصورة الماضي؟

أغلقت السيدة بريدشت على نفسها الحمام، حتى وإن لم تكن بحاجة للذهاب إليه. فاللهجة العملية لجيانغ، طريقتها في التحدث عن الحب كمن يتحدث عن رسالة مليئة بالأخطاء نرميها في الهواء، عائلتها المشتتة كالأبواغ في أصقاع العالم، كل ذلك قد هدّأها وذكّرها بشيء ما. فتّشت في الجيب الداخلي لحقيبتها، وأخرجت كيساً صغيراً من البلاستيك كانت قد وضعته منذ عدة أسابيع، يحتوي على عدة أقراص من الزاناكس، احتفظت بها للحالات الطارئة. هنأت السيدة بريدشت نفسها في كونها استطاعت خداع زوجها. كانت على وشك أن تبتلع قرصاً، إلا أنها لم تلبث أن غيرت رأيها. من الأفضل الاحتفاظ به لوقت آخر، يجب عليها الآن أن تفكر ملياً في قصة جيانغ.

بالنسبة إليها، عنصر واحد في قصة جيانغ التمع في عقلها كما المنارة في ليلة عاصفة. كان هذا صالون الشاي، المكان الأول للقاء فتاة هيفاء، وشاب يرتدي قميصاً بأكمام مرفوعة، على طريقة من يقضي عطلة بعيداً عن بيته. «فلوريز» تمتمت، وهي تنظر لانعكاس صورتها في المرآة. اسم جذاب يذوب فوق اللسان كما قطعة هشة من الحلوى. هل كان هذا الصالون كبيراً مضيئاً، مزخرفاً على الطريقة القديمة، في

مبنى فخم من الطراز الاستعماري، مع أعمدة وشمعدانات؟ هل كانت واجهته محمية من الشمس الحارقة بواسطة إفريز ذي خطوط منتظمة؟ أو بالأحرى كان مكاناً عصرياً مسوراً بالمعدن البارد؟ كانت تأمل ألا يكون كذلك. إذا ما انتهى بها الأمر وذهبت إلى الهند، فسوف تذهب إلى مقهى «فلوريز» وتقدم لهم خدماتها. وإذا ما صادف ورفعوا وتيرة احتجاجاتهم، ستجهّز لهم عندئذ عرضاً من موهبتها في تحضير الحلوى ـ كانت تأخذ الوصفات معها في حقيبتها ـ وتصنع لهم وجبة مخبوزة من كعكاتها التي لا تقاوم من الشوكولا البيضاء وجوز «الماكاداميا»[30] التي تحتفظ بسر تحضيرها.

قام كاميرون بعرض تقرير مختصر أمامهم عن الوضع .لم يأخذ على نفسه مشقة تجميل الأحداث، فلم يكن هذا من طباعه: ـ «لم تزل خطوط الهاتف مقطوعة، ولم يكن هناك شبكة تعمل بالنسبة للهواتف المحمولة، منسوب الماء يرتفع ببطء، ونوعية الهواء تبدو جيدة، بقي من الطعام ما يكفي لوجبة واحدة». هذا الخبر الأخير قوّض الحالة النفسية للجميع، لكن لاحظت إيما، على عكس ما جرى منذ قليل، أنهم لم يتجمعوا حول كاميرون كي يلاحقوه بالأسئلة. عندما سألتهم إن كان لديهم رغبة في المتابعة في قص الحكايات، عاد الجميع فوراً إلى مقاعدهم.

– من سيأخذ المبادرة التالية؟ سألت إيما.

– قبل ذلك، يجب علي أن أضيف شيئاً أخيراً، أعلنت جيانغ أمام دهشة الجميع، شيئاً لم أحكه منذ قليل لأني كنت أشعر بالخجل. لكن من دونه، لن يكون للحكاية طعم.

---

[30] جوز سميك القشرة.

في الليلة الأولى على السفينة، كنت أنا والسيد شيان مستلقيين على السرير المرتجل على الأرض. لم أكن أستطيع اعتباره كزوجي، ففي كل مرة كنت أغلق فيها عينيّ، كنت أرى وجه موهيت. وكنت متأكدة أن موهيت لم يكن يفكر بي.

كان السيد والسيدة «لو» على السرير، من الجهة المقابلة للستارة، وكنا نسمعهما. وضع السيد شيانيده عليّ، فأبعدتها. شعرت أني أكاد أتقيأ. قلت في نفسي: إن هو حاول أن يجبرني، فسوف أرمي نفسي غداً من أعلى الجسر.

لكنه لم يجبرني. وضع يده على رأسي، وداعب شعري. فهم أني كنت مغرمة برجل آخر! لم يكن أغلب الصينيين يوافقون على الزواج من امرأة لديها عشيق. بدأت في البكاء، فلم يقل شيئاً، لم يطلب مني حتى التوقف عن البكاء، اكتفى فقط بمداعبة شعري. وذلك لمدة سبعة أو ثمانية أيام.

ثم، ذات مساء، قبّلته، فكرت: كان لطيفاً جداً معي، ويجب أن أمنحه شيئاً بالمقابل، وماذا أملك غير ذلك كي أمنحه؟ عندئذ، بالرغم من عدم محبتي له قمنا بممارسة الحب. وفكرت ساعتها أن الأمر لم يكن بهذا السوء، وأننا نستطيع العيش مع رجل طيب دون أن نكون نحبه.

أخيراً وصلنا إلى أميركا. لم يستطع ممارسة مهنة طب الأسنان بالرغم من رغبته الشديدة في ذلك. كنا نعمل ليل نهار في البقالية، وكنت في أغلب الأحيان مريضة بسبب الحمل. في بعض الأيام نكون منهكين لدرجة نكون فيها غير قادرين على تبادل أي كلمة مع بعضنا بعض. لم يكن لدينا الوقت الكافي لنخصصه لأشياء تافهة كالحديث عن القمر، والورد، والحب.

مرّت أربع سنوات. في إحدى الليالي، كان مريضاً جداً، وكان الزكام في ذاك الوقت، قد حصد الكثير من الضحايا. كنت شديدة القلق. أعطيته دواء، ووضعت منشفة صغيرة مبللة على جبهته. كانت حرارته مرتفعة جداً، وكان يهذي. فجأة، تصلب جسده، وانقلبت عيناه. اعتقدت أنه ميت لا محالة. شعرت بقشعريرة خوف تسري في جسدي، صرخت: «لا تمت...لا تمت! أنا أحبك».

ربما يكون قد سمعني. التمعت عيناه لفترة، رفع يده، فأمسكت بها بإحكام، لكنه حاول أن يدفعها. فهمت مراده. أراد أن يداعب شعري، فانحنيت كي أدعه يفعل ذلك. في اليوم التالي، انخفضت حرارته. وفي ظرف أسبوع، كان قد شفي تقريباً.

لاحقاً، قلت في نفسي بأني لابد وصرخت تلك الكلمات تحت وقع الخوف، أو لأن هذا ما كانوا يقولونه للرجل وهو على سرير الموت في الأفلام. لكني لم أكن خائفة، فقد كان باستطاعتي الاعتناء بالبقالية وبالأولاد، مع أو بدون زوجٍ. والأفلام لا تقص علينا الحقيقة. هنا، عرفت بأني أحبه فعلاً.

متى وقعت في حبه؟ بعودتي إلى الوراء، لم يكن باستطاعتي القول متى حدث ذلك. وهذا ما كان يشكل أمراً غير قابل للتصديق. يمكن لنا أن نتغير حتى دون أن نلاحظ ذلك. نعتقد أن المعاناة تجعلنا قساة وباردي العواطف كالحجر. لكن الحب يخترقنا بتكتم كإبرة، ليتحول فجأة إلى بلطة ويقطعنا إلى أجزاء.

لزموا الصمت خلال بعض الوقت. ربما حاولوا التفكير فيما لو كانوا هم أيضاً قد وقعوا يوماً ما في شراك الحب، وإن كانوا قادرين على إظهار صراحتهم كما فعلت جيانغ. أخيراً، أعلنت ليلي:

– إنه دوري

– هل باستطاعتك الانتظار قليلاً يا حبيبتي، قاطعها كاميرون قائلاً.

كانت تلك أول مرة تسمع إيما كاميرون يستخدم تعبير «حبيبتي» لكن جاء وقع الكلمة في فمه طبيعياً بشكل غريب «حبيبة قلبي» كانوا يقولون في عصر «تشوسر» تعبيرٌ كان يجمع قلبين محبين في جسد واحد.

– سنحتاج لقصتك لاحقاً.

لو كانت ليلي في وضع طبيعي آخر فسوف لن تدع أحداً يناديها «حبيبتي». أظهرت ابتسامة صبيانية وكأنها تقول:

– ما الذي يجعلك تعتقد أنها سوف تكون بمثل هذا النوع من الحكايات. لكنها اكتفت بهزّ رأسها. لابد وأن الحلقة التي كانت تضعها في ثقب أنفها قد سقطت أثناء الاشتباك. بدت دون تلك الحلقة أكثر قابلية للنيل منها. مع ذلك وفي أثناء انحنائها لتداعب شعر جدتها، بدت عليها فجأة هيئة أكثر نضجاً، قالت لكاميرون بصوت مرعوب:

– إن ذراع جدتي ساخنٌ جداً.

عاين كاميرون ذراع جيانغ، فلاحت تقطيبة قلق على وجهه. أعطاها قرصين من الأسبيرين وهو يعرف أنهما لن يفيداها في شيء فقد كانت تحتاج إلى مضاد حيوي.

– هيا لنعاود قصّ الحكايات. قال بشكل مباغت.

أصلحت السيدة بريتشت من جلستها وأخذت نفساً عميقاً، لكن قبل أن تبدأ طواعية بالحديث، تدخّل السيد بريتشت قائلاً: أنا أودّ أن أبدأ أولاً.

8



في أول ذكرى من ذكريات صبي، أمه، التي كانت تنام كل الوقت، كما في حكاية «*الجميلة النائمة*» في الألبوم الذي اشترته من مخزن معزول. الصبي الصغير يحب كثيراً والدته - كان يحبها بشدة لدرجة كان يضيق معها نفَسَه، كما عندما نحاول نفخ بالون جديد - هو يعلم تماماً أنها ليست بكل هذا الجمال - تنام مسترخية، على الكنبة الرمادية القديمة التي كانا يثبتانها بعدد من تقويم سنوي لأن إحدى قدميها كانت مكسورة. تضع قدميها على مسند لأنهما في نهاية يوم عملها تكونان دوماً منتفختين، وأحياناً، عندما يتأكد الصبي أنها فعلاً نائماً، يضغط بأصبعه على ظنبوب[31] والدته وينظر إلى التجويف الذي يتشكل من جرّاء ذلك. كان فمها نصف مفتوح، وأطرافه متهدّلة قليلاً كما لو أنها قد تلقّت للتو مفاجأة غير سارّة. تشخر ببطء. وكان صوت هذا الشخير يشكّل مقوّياً للصبي، لأنه مألوف ويسبب له الراحة، وأيضاً لأنه يفضل أن تشخر من أن تتوقف عن التنفس خوفاً من أن تموت وتتركه وحيداً.

---

[31] ظنبوب: عظم الساق الأكبر ويمتد من الركبة إلى الكاحل.

كان يوجد هناك أحياناً زجاجة من شراب التفاح المسكّر على الأرض، بجانب ذراع والدته المتدلي من الكنبة. لكن يصادف أحياناً (نادراً في تلك الفترة، لأنها لم تكن قد بدأت بعد بشرب الخمر الحقيقي وهذا ما لن يتأخر كثيراً عن الحدوث) أن تكون هناك زجاجة من البيرة، من شدّة ما كانت كريهة الطعم والرائحة، كان يتساءل كيف يرغب المرء في احتساء شراب كهذا. لكن في أغلب الأحيان، لم يكن هناك شيء، لأن الوقت الذي تعود فيه والدته من مطعم «ميكيز دينير» حيث تعمل، تكون متعبة لدرجة لا تستطيع الوصول فيها إلى البراد. تخلع رداء العمل في هذا المكان، تماماً قرب الكنبة. لم تكن تملك رداءين للعمل، والغسالة الآلية بعيدة وكلفتها مرتفعة لا يمكن الذهاب إليها لأكثر من مرة في الأسبوع، ومن ثم كانت تكره الغسيل، لهذا، تنتظر دوماً حتى اللحظة الأخيرة، وهذا ما كان السبب في إعطاء الصبي لقباً غير حسن عندما بدأ يذهب إلى المدرسة في العام التالي. كان يقع على عاتقه لملمة البنطال والقميص البني، ووضعهما على ظهر الكنبة. إن لم يكن الطقس بارداً جداً، كانت تنام في ثيابها الداخلية إن لم يذهب ليجلب لها قميص النوم. تتعارك مع القطع القطنية البالية التي تشدّ عليها أكثر فأكثر عند الإبطين (كانت والدته تقوم بمعركة منهكة وخاسرة مسبقاً ضد زيادة الوزن) عندما تنجح في ارتدائه تضمه بين يديها كي تشكره لكونه صبياً لطيفاً.

في لحظات كهذه كان صوتها يسبب رعشة في كل جسد ابنها، وكانت هذه الخاصيّة بالذات هي من يعطيها صفة الحسناء النائمة. أحيانا في العطلات الأسبوعية، عندما تكون بمزاج جيد، تقرأ له

كتباً، أو تغنّي له أغنية تتحدّث عن سيدة بأكمام خضراء، كانت تلك أغنية قديمة من مئات السنين.

يعرف الصبي الصغير كيف يخلع ويرتدي ملابسه، وكيف يغسل أسنانه (في المغطس، لأنه لم يكن بالطول الكافي كي يصل إلى المغسلة) ويجهّز وجبته، التي تكون في العادة عبارة عن رقائق الحبوب التي تعوّد حتى أن يأكلها وحدها إن لم يكن هناك حليب في المنزل. إن أحسّ بالشجاعة في نفسه يقوم بتجهيز السندويش من زبدة الفستق والمربى، لكنه كان يجد صعوبة في دهن الزبدة والمربى، وغالباً ما كان يمزّق الخبز. تأكل والدته في العمل - كانت تلك أحد ميزات العمل في المطعم - وتجلب له أحياناً الهمبرغر والبطاطا المقلية التي تحصل عليهما من هناك، أو بقايا معجنات، تكون قد خبأتها في غرفة المهملات الكبيرة المخصصة لنقل أشياء كهذه.

يأكل الطفل وينظر إلى والدته وهي نائمة، إلى صدرها الذي يرتفع وينخفض عند كل نفس، إلى خط الزغب الذي يجتاز حفرة نهديها وصولاً إلى سروالها الوردي الباهت اللون.

كان جسدها ينقبض من وقت لآخر، كما تلك الحيوانات التي يراها في التلفاز في البرنامج الوثائقي عن الحياة البريّة، البرنامج المفضل لديه، والذي كان يحبه أكثر من الرسوم المتحركة، وقد يحصل أن يتشاجر مع زميله جيمي لأجل ذلك. إن سُئل عن أجمل شيء في العالم يريد الحصول عليه لأجاب دون تردّد: كلب. حتى ولو لم يكن حقيقياً تماماً. كان سيفضّل نمراً عوضاً عن الكلب، لكنه كان قد فهم مبكراً بأن علينا الاحتفاظ ببعض رغباتنا في أعماقنا وألا نكشف عنها أبداً.

عندما يتأكد الصبي بأن أمه تنام بعمق، يطفئ التلفاز. هي تحب أن تشاهد خصوصاً مسلسل (أحب لوسي[32]) الذي كانت هزليته تربكه (عندما كبر، انتبه لأمر: وهو أن ما كان يضحك الآخرين لم يكن يسلّيه هو) يذهب حتى آلة التسجيل القديمة التي تعمل ومن ثم تُلف ثانية، مع بكرات أكبر من رأسه، ويضعها بعناية شديدة من جهة قسمها السفلي. يتقوقع بعدها على الأرض، ملتحفاً بغطائه، ويسمع «لاسي المخلصة[33]» الذي قامت والدته بتسجيله لأجله في الأسبوع الذي جرحت فيه قدمها ولم تتمكن من الذهاب إلى العمل. هناك سرير في نهاية الغرفة، لكنه يفضّل الاستلقاء هنا ليحرس بنظره أمه وتنفسها المشوّش وهو يتابع لاسي، التي تركض آلاف الكيلومترات المحفوفة بالمخاطر، مصممة على إيجاد سيدها الصغير. غالباً ما ينام في وسط الموسيقا وهو يشعر بالثقة لكونه يعرف تماماً أنه من الآن لحين استيقاظه ستكون المخلصة لاسي قد أنهت بحثها.

هل كان هذا الطفل تعيساً؟ كلاّ. فعندما نكون لا نعرف إلا شيئاً واحداً في الحياة نجد هذا الأمر طبيعياً. حتى اليوم الذي أعطته ماري لو كتاب الرياضيات المسليّة. اكتشف عندها ماذا تعني السعادة.

يتذكّر الصبي تماماً ذاك الصباح، ضجيج ماري لو وهي تقرع باب الشقة منادية اسم والدته «هاي، بيتّي، هل متّ أم ماذا؟» ومن ثم والدته تتعثّر حتى الباب، وهي لم تزل بثيابها الداخلية، بعيون منتفخة من النعاس، تتمتم بشتائم بصوت منخفض كي لا يسمعها

32 أحب لوسي: مسلسل هزلي أميريكي كان يعرض في الخمسينيات.

33 لاسي المخلصة: تسجيل موسيقي لفيلم «لاسي عودي إلى البيت» عام 1943.

ابنها. يتسلل جيمي من الباب المشقوق ويصرخ «لـ. لـ انظر ماذا لدي هنا!» يسمع من خلفه ماري لو تقول:

– يا إلهي لك هيئة جثة يا بيتّي، من الأفضل أن تذهبي لرؤية طبيب.

يشعر الصبي بقلبه ينقبض:

– لا تبدئي ماري لو، أنا بخير، إنه التعب، بسبب كل تلك الساعات من العمل المتواصل.

– يشدّه جيمي من ذراعه: انظر! انظر! هيا انظر!

جيمي هنا لأن والدة الصبي وماري لو، التي تقطن في الجوار، وتعمل في مقصف مدرسة الحي الابتدائية، تعتنيان دورياً بالطفلين. يحب الصبي الصغير كثيراً جيمي، يحب كثيراً اللعب معه، حتى وإن أراد جيمي أن يُظهر دوماً للصبي الصغير أشياء كان يراها هذا الأخير مهمة جداً. زيادة على ذلك، فماري لو التي يأكل عندها أحياناً عندما يتوجّب على والدته أن تعمل ساعات إضافية، هي طبّاخة ماهرة، واللزانيا التي تحضرها هي أفضل من أي طعام يمكن لوالدته أن تجهّزه (لكنه لم يكن يبوح بذلك أبداً، حتى ولو عذبوه بشوكة الماشية، كما شاهدهم يفعلون في مسلسل «شرطي السهول»[34]). والدة الصبي، التي كانت موهوبة بوجبة الإفطار، كانت تقدّم إليهم في العادة حساء جاهزاً معلّباً ونقانق مغلّفة بقطع من فتات الخبز. في اليوم الذي يلي قبض الراتب، كان يحقّ لهما

---

[34] **شرطي السهول**: مسلسل تلفزيوني أميريكي يحكي عما حدث في كنساس بعد حرب الانفصال.

بقطعة حقيقية من الهوت دوغ وأخرى من التفاح.

في الطقس الجميل، كانت والدته ترسلهما للعب في الخارج، وتوصيهما ألا يبتعدا عن مجال نظرها، وألا يلعبا بعيداً عن الرصيف. بينما هما يلعبان لعبة الشرطة والحرامية يتابع الصبي دوماً بنظره والدته تتحدّث في الهاتف وهي تدخّن، في حين كانت قد قالت لماري لو أنها سوف تقلع عن التدخين.

– بانغ! بانغ! يصرخ جيمي. لقد متّ.

– لا... لم أمت.

– بلى، لقد متّ! لقد أطلقت الرصاص على رأسك. انفجر دماغك، وها هو يتناثر في كل مكان على الأرض.

في الأيام الباردة جداً، يتفرّجان على الكتب التي كانت ماري لو تحملها إليهما من المدرسة حيث تعمل، كتباً، لنقل أن الإدارة كانت ترميها في الزبالة.

– أيوا، هذا هو! تقول أمه وهي ترى الكتب، لكن ليس بصوت عال كي لا تسمعها ماري لو.

كانت تحبّ الكتب هي أيضاً. وكانت أحياناً بين مكالمتي هاتف تجلس قرب الصبي على الكنبة وتندهش من أشياء لم تكن تعرفها وكان يوجد منها الكثير. ذات يوم، كان يقلّبون كتاباً مطبوعاً تحت اسم «***نتسلّى بالرياضيات***». حيث مرموط[35] يعلّم السناجب عمليات الجمع والطرح باستخدام حبات من البندق. بعد صفحتين منه سئمت والدته، وجيمي بعد خمس صفحات، لكن

---

[35] مرموط: حيوان من القوارض.

الصبي كان مغرماً بهذا الكتاب. بدأت الأحرف في رأسه تأخذ مكانها بشكل طقطقات صغيرة، وارتعش جسده كما لو أن تياراً كهربائياً قد عبره، فاختفى المرموط. لم يكن بحاجة إليه كي يفهم ما يجري. طلب من جيمي أن يحتفظ بالكتاب، وذاك المساء، بدلاً من الإصغاء إلى «لاسي» قام بعمليات الجمع والقسمة. لم تكن الصيَغ مألوفة لديه، ومع ذلك، في بضع دقائق فقط توصّل إلى حلّ المسألة في رأسه قبل أن يصل بزمن إلى الصفحة التي يكتب فيها المرموط الجواب على لوح أسود معلّق على شجرة.

في عطلة نهاية الأسبوع، ينام الصبي وأمه حتى ساعة متأخرة، وعندما يستيقظان، ممددين جنباً إلى جنب في السرير، ملتحفين بغطاء ذي صور مكانس زرقاء مرسومة فوقه، تقصّ عليه الحكايات.

إن وُجد الوقت كي يمرّا قرب المكتبة تكون الحكايات جديدة، وإلا، ففي أغلب الأحيان، تعيد عليه حكاية الملك آرثر وفرسان الطاولة المستديرة، تقرؤها من كتاب قديم قاس، مكتوب بأحرف صغيرة دون صور والذي لم يكن فعلاً كتاباً للأطفال. لكنه كان يحب تشابك قصصه، والطريقة التي كانت الأسماء المألوفة تتدحرج على لسان والدته: جينيفر، بارسوفال، المتوحش كلاابيساند، وخاصة اسمه هو، الفارس لانسلوت، وكانت تقبّله في كل مرة تلفظ فيها هذا الاسم.

في وقت متأخر من النهار، يذهبان إلى البقالية في سيارة ماري لو القديمة التي كانت تصدر أصواتاً مضحكة عندما تسير فوق نتوء ما أو تقف عند إشارة المرور. في طريق العودة، يتوقفان عند المخبز، وتشتري لهم والدة الصبي فطائر مقلية محلاّة. لم يكن جيمي يأكل أكثر من لقمة منها، لكن الصبي الصغير كان يلتهمها كلّها بصمت،

بلقيمات صغيرة، كي يبقى يأكل فيها حتى وصولهم إلى المنزل. في المقعد 156 ـ الأمامي للسيارة، كانت والدته وماري لو تتناقشان بأمور حدثت معهما، ويضحكان ضحكات صاخبة تجعله يبتسم هو أيضاً بالرغم من عدم فهمه لما يقال. لكنه كان يعلم أنه بخصوص الخروج مع أحد ما. كان هذا يحصل عندما ترتدي والدته تنوره جميلة وصدّار دون أكمام (كان الأفضل لديه ذاك الذي باللون الأسود مع دانتيل من الأمام) تضع عطراً، وأحمر شفاه، وتُدخل قدميها بالقوة في حذاء ذي كعب عال، كانت تشتكي منه لاحقاً بأنه يؤلم أصابع قدميها. لكن في الفترات الأخيرة لم تعد تلبس الكعب العالي، فمارفين، كان قصير القامة، وهذا الأمر كان حسّاساً.

بعد أن تضحكا لفترة، تهدأ المرأتان. تديران الراديو وتتابعان حديثهما، لكن بطريقة هامسة. لم يكن الطفلان يسمعان ما كانتا تتحدثان به. لكنهما كانا يعرفان بأن الموضوع يخصّ الشكوى من التقدم بالسن، وصعوبة إيجاد رجل يقبل الارتباط مع امرأة مثقلة بالأمتعة. كان الولد الصغير يريد أن يسأل عن أي أمتعة تتحدثان، لكنه لم يكن يجرؤ على ذلك، كان يخشى من أنه يعرف مسبقاً الجواب.

لم يكن الأمر يزعجه حقاً حين كانت والدته تتركه عند ماري لو، عندما يكون لديها موعد ما. لكن عندما يكون عند ماري لو هي الأخرى موعد، كان يبقى عند السيدة غروغان هو وجيمي، وكان هذا أسوأ بكثير، لأن السيدة غروغان لم تكن تملك تلفازاً ــ فقط مذياع يعلوه غطاء صغير من الدانتيل. كما لم يكن لدى السيدة

غروغان أسنان، لهذا لم يكن الولدان يفهمان بشكل جيد ما كانت تقوله، وكان هذا يغضبها. زيادة على ذلك، كان يفوح من شقتها رائحة البول، لكن عندما كانا يشتكيان إلى والدتيهما، كانتا تجيبان دوماً: «نحن أيضاً سوف نشيخ في يوم ما، مثلها، إن كان لدينا سوء الحظ بالعيش طويلاً». لن يكون لوالدة الصبي سوء الحظ هذا، فذات يوم وهي في المطعم، سوف تنهار في العمل، ضحية خثرة دموية، وستموت حتى قبل وصول الإسعاف لنقلها إلى المستشفى. لاحقاً، سوف يبحث مطولاً عن معنى كلمة «سوء الحظ» في القاموس، لكن سوف لن يساعده هذا على الفهم.

عندما كان الصبي في الخامسة والنصف من العمر، تركتهما ماري لو كي تذهب وجيمي للعيش في ممفيس في القسم الآخر من البلاد. ذهبا كي يعيشا مع والدة ماري لو بالرغم من أنها كانت تقضي وقتها بالتحدّث بالسوء عن ابنتها، لأن ماري لو لا تستطيع تدبير شؤونها بنفسها، وأنها متعبة من المحاولة. كانت تحكي هذا لوالدة الصبي وهي تبكي، وعندما تمسح دموعها، يسيح كحل العين على وجهها المفعم بالحسرة. لا تتفوه والدة الصبي بأي كلمة لكنه يرى شيئاً ما يلمع في عينيها. يفكر أنه الغضب نحو ماري لو، التي تجرأت على مغادرتهما. لكنه لاحقاً سوف يقول أنه ربما الخوف، وهذا ما كان يرعبه هو أيضاً. ثم تذهب ماري لو وجيمي، وتتحول ذكراهما من سيء إلى أسوأ.

في لقطة أخرى، بعد ظهر أحد الأيام، كان الصبي في الثامنة من العمر، شعره طويل ومشربك وثيابه لم تكن نظيفة. يلعب وحيداً

وراء البناء في قطعة الأرض البور التي تحولت إلى مكان تفريغ للمكبّات على بُعد عدة أمتار. كان الذهاب إلى هناك خارج الحدود المسموح بها للطفل ـ تجد والدته من الخطر الذهاب للعب هناك ـ لكنها في العمل، وسوف لن تعلم أبداً بالأمر. مارفين، الذي يعيش معهما من الآن وصاعداً، يعلم أن الصبي لا يطيع أمه لكنه لم يكن يقل شيئاً، لأنه إن فعل، فسوف تصرّ الوالدة على أن يبقى الصبي في الشقة بعد المدرسة، ومارفين لم يكن يحب ذلك. في فترة بعد الظهر، وأثناء وجود والدته في العمل، كان أصدقاء مارفين يأتون إلى الشقة، لم يكن الصبي يعلم تماماً ماذا كانوا يفعلون، حتى وإن سببت له الرائحة الناعمة المتطايرة من الشقة بعد رحيلهم شعوراً مبهماً. مهما يكن من أمر، كان يلعب وحده على بقعة الأرض التي غزاها العلّيق، بسبب عدم وجود أطفال آخرين في سنّه في الحي. وإن وُجد فهم بالتأكيد سيرفضون اللعب معه، كما أطفال المدرسة الذين كانوا يسخرون من اسمه، أو يدفعونه أثناء الفرصة، عندما لا يكون الأستاذ ينظر إليهم، أو ببساطة يتجاهلونه في أغلب الأوقات.

يتخيل الطفل أنه روبنسون كروز، وحيداً على جزيرته، وآكلو اللحوم يطاردونه. كان يراهم يضحكون بأسنان آكلي اللحوم الحادّة وهو مختبئ وراء برّاد مرمي يراقبهم بمنظاره. لكنهم كانوا غير قادرين على الإمساك به، فقد كان يعرف الجزيرة كجيبه. يعرف كل المغاور، وكل طرقات الجبال الضيقة التي كان يجب عليه المرور فيها كي لا يقع في الوادي. كانت لديه بندقيته نصف الآليه، مع مئات القذائف. كان يعرف كيف يتحرك دون أن يصدر صوتاً. يرفع

سلاحه ويتقدّم خطوة إلى الأمام، ثم، لا يلبث أن يقفز صارخاً لأن شيئاً مغطى بوبر ناعم قد لامس ربلة ساقه. كان ذلك قطاً صغيراً.

كان القطّ صغيراً جداً، جائعاً، ويموء بصوت عال: تظهر من فمه المفتوح أسنان حادّة كتلك التي لآكلي لحوم البشر، ولسان صغير وردي اللون. ابتعد عندما اقترب منه الصبي، لكنه ترك نفسه ليُمسك به. كانت مخالبه قاسية هي الأخرى، لكن الصبي لم يهتم بذلك. وجد أن الهرّ الصغير كان يشبه نمراً مصغراً، ضمّه إليه وراح يداعبه، بينما كان الهر يُقاوم في محاولة منه للهرب. يتذكر الصبي شيئاً كان قد قرأه في أحد الكتب. وضع الهرّ على الأرض، كسر غصن علّيق وهزّه من الأعلى الأسفل. حاول الهر الصغير التقاطه، وهو مستثار جداً. بقيا يلعبان هكذا لفترة، ثم عاد القط للمواء. لابد أنه جائع، كان الصبي واثقاً من ذلك. عندئذ، وضعه داخل قميصه ـ كان يخشى أن يفقده إن هو تركه هنا ـ وعاد إلى الشقة. في الداخل، كان أصدقاء مارفين الذين يخيفونه قليلاً، يراقبونه عبر غيمة من الدخان. ناداه أحدهم، وطلب منه أن يجلب له زجاجة بيرة. احمرّ الصبي خجلاً. فانفجر أصدقاء مارفن بالضحك. حاول أن يعود أدراجه، لكنه شعر بالقط يتسلّق داخل قميصه، و ذيله يدغدغ له صدره. قوّم كتفيه وغادر الغرفة حتى وصل إلى البراد دون أن يعيرهم نظره. تذكر أن هذا برّاده، وشقته. سكب الحليب في طاسة، ويداه ترتعشان فأسقط القليل منه على المنضدة الدبقة. حمل الطاسة وأخذها إلى الأرض البور.

لعق القطّ الحليب ولحس أصابع الفتى. كان ملمس لسانه خشناً كورق الزجاج فوق جسم الصبي. فانتفض من اللذة. لعبا مرّة أخرى

بالغصن، الصبي يشده نحوه، والهر يقفز فوقه بشراسة لدرجة قرر في لحظة أن يسميه «شيرخان» كما اسم النمر في كتاب الأدغال. استمرّا باللعب لمدة ساعة من الزمن حتى بعد مغيب الشمس، والصبي يرتجف من البرد وهو في سترته الصغيرة جداً. انتهى الأمر بسماعه الصوت الذي كان ينتظره، هدير الشاحنات. كان أصدقاء مارفين على وشك الرحيل، وعندما ألقى نظرة إلى زاوية الشقة أدرك أن مارفين قد ذهب معهم. بعد ذلك كان الأمر بسيطاً جداً، فقد أخذ جارور المطبخ القديم الذي وجده مرمياً في المكب، وأخفاه وراء الكنبة حيث مكان نومه الحالي، قرب الكرتونات التي رُتّبت فيها ثيابه وقميصه. نفض قاعدة الجارور بقميص قديم، وضع القطّ داخله، وأمره أن يبقى هادئاً لحين الانتهاء من وظائفه. تلهف القطّ للخروج من الدرج، وقفز إلى مقعده وتسلّق ركبتيه. وبهذه الطريقة قام بكتابة وظائفه هذا المساء. التفّ القط ككرة على بطنه وهو لم يجرؤ على الحركة من خشيته على إزعاج نومه.

لم يكن قد أحب أحداً كما أحب هذا القط. وسوف لن يحب أحداً على الإطلاق بهذه الطريقة دون أن ينتظر مقابلاً. عندما سمع صوت المفتاح في القفل أغلق عينيه بقوة وصلّى أن يكون القادم والدته، ومن عجيبة العجائب أنها كانت هي. يضع القط في قميصه ويذهب ليجلب علبة من الصودا لوالدته. عندما مدّت يدها كي تداعب شعره، قصّ عليها كل شيء بسرعة لأنه يعلم أنه لا يملك الكثير من الوقت قبل وصول مارفين.

– هل يمكنني الاحتفاظ به؟ أرجوكِ؟ أرجوكِ؟ سوف أعتني به أنا، ولن يكلفك الأمر شيئاً.

– ليس لدينا مكان له، ثم، إن مارفين لا يحب الحيوانات.

تدفقت كل الضغينة المتراكمة داخل الصبي حتى الآن دفعة واحدة.

– لماذا يجب علينا أن نعمل ما يريد؟ هذا ليس بيته هنا. ثم، لماذا يعيش معنا؟

كانت غاضبة. رأى ذلك من طريقة تمدد منخريها، وبالعلامات الحمراء الصغيرة التي بدت على وجنتيها. لكن فجأة خارت كتفاها وأجابت:

– إنه يدفع جزءاً من الإيجار. وهو يحميك في فترة بعد الظهر في حال حدوث طارئ ما، لا أحد يعلم.

كان الصبي على وشك أن يحتجّ، لكنها تابعت قائلة:

– هكذا، لا نكون بحاجة لندفع لأحد كي يبقى معك. ثم... أخفضت رأسها وتابعت «أوه! سوف لن تفهم هذا».

أراد أن يقول لها أنها هي التي لم تكن تفهم، وأنهما كانا أفضل حالاً بكثير وحدهما، وهما متكوران تحت الغطاء مع رسومات المكنسة فوقهما، وصوتها الخشن في الصباح، وتقرأ له القصص يوم السبت مساءً، وأن هذا لم يعد إلا ذكرى. الآن، كان يسمع في الليل وهو ينام بشكل سيء على الكنبة، أصواتاً تأتي من الغرفة وتمنعه من النظر مواجهة في عينيها في الصباح التالي.

فُتح الباب دفعة واحدة، فاصطدم بالكرسي، وانتهى الأمر، لم يعد يستطيع إضافة أي شيء. لوّح مارفين بقبضته في الهواء لحظة رأى الهر، صرخ بأن لديه حساسية من القطط وبأن الصبي يريد قتله. بسبب خوفه من الصراخ تبوّل الهر بين يدي الصبي. لم يهتم

للأمر، لكنّ القليل من البول نقّط على لباس العمل لوالدته، وها هي تصرخ هي أيضاً، فأجبر على نقل الهر إلى الرواق، حيث وضعه في الجارور وطلب منه ألا يتحرك، غطّى الجارور كيفما استطاع بقطعة من الكرتون. لكن نهاية قطعة الكرتون كانت صغيرة جداً وخشي أن يتمكن الهر (الذي كان أصلاً، يخمش وهو مرعوب تماماً، الجانب الداخلي للدرج) من الهرب. انكمش على نفسه بجانب الجارور، باذلاً جهده كي لا يبكي، وسرت رعشة في كل جسده. كره مارفين، وتمنى موته. ولأول مرة في حياته، كره والدته وأراد أن تموت هي الأخرى. عندئذ سيستطيع الذهاب للعيش عند عائلة أخرى، ستجعله يحتفظ بالهر. شعر بالكره أكثر لحظة نادت عليه والدته طالبة منه الدخول إلى البيت قبل أن تصيبه نزلة برد، وقبل أن يتحرك مارفين كي يشده من ياقة قميصه طالباً منه أن يُطيع والدته. تضخمت كراهيته وامتدّت حتى أحلامه فرآهما قد قضيا نحبهما في ذاك المساء.

سوف لن ينسى أبداً هذا الحلم.

في اليوم التالي، أسرع كي يرى إن كان الهر لم يزل في مكانه، لكنه كان قد غادر. في المدرسة، كان غير قادر على التركيز، حتى في درس الرياضيات. بمجرّد أن نزل من الباص، ركض إلى الخلاء، وبحث في أكوام القمامة، فوجده أخيراً تحت دغل صغير يرتجف. بينما هو يضمّه إلى صدره المختلج، كاد يشعر بالكراهية تغلي داخله.

تذكر هذه الكراهية في اليوم الذي توفّت فيه والدته. فقد اخترق الشعور بالذنب صدره كما القذيفة بالرغم من كل مجهوده ليدافع

عن نفسه، ليقول لنفسه أنه غير مذنب: كان يكفيه أن ينظر إلى مارفين، الذي لم يزل واقفاً على قدميه، بصحة جيدة، بالرغم من كل أمنياته نحوه.

سيُرسل بعدها عند إحدى العائلات المضيفة. زوجان أكبر سناً من والدته، دون أطفال، شخصان صارمان قليلاً، لكن نظيفان ومنظمان. سوف لن يقدما له حيواناً لرفقته ـ هذا الذي لم يعد يؤلمه كثيراً، وإلا لكانت القذيفة قد اخترقت تماماً صدره ـ كانا يعملان بشكل يصل فيه من المدرسة على الوقت، يقوم بشكل جيد بواجباته، يأكل بتوازن، يأخذانه إلى متحف الرسم، وإلى حفلات موسيقية كلاسيكية. سوف لن يوبّخاه أبداً على قلّة اهتمامه في كافة الأصعدة. سوف يكتشفان موهبته، ويسجّلانه في مسابقات للرياضيات ـ في البداية على المستوى المحلّي ثم على المستوى العالمي ـ بدّلت المكافآت التي كان يحصل عليها من هذه المسابقات قليلا من صورته عن نفسه.

كان يعلم تماماً أن والدته لم تكن لتتصرف هكذا معه. إذن لماذا، وهو مستلق في المساء في غرفة خاصّة به، مكسوّة بورق الجدران المزخرف بالتنين الطائر، الذي كان قد اختاره بنفسه، ـ غرفة لم يكن بإمكانه حتى أن يحلم بالعيش فيها وهو في بيته القديم ـ، يبكي بحرقة؟

بعد مرور بعض الوقت من تلك الأمسية الشديدة الألم، والتي تخيل الصبي فيها موت أمه، جرت الأمور نسبياً بشكل جيد. نظّف الصبي جهاز تبريد مهمل في مكب النفايات وفرشه بألبسة قديمة. كان يحتفظ بداخله بطاسة من الماء ووعاء من طعام القطط

الذي اشتراه بالمال المسروق من حقيبة والدته ومن محفظة مارفين - في البداية دولار واحد كي لا يثير الشكوك - كان كل يوم بعد المدرسة، يأخذ «شيرخان» للطرف الآخر من مكب النفايات ويلعب معه مترقباً وصول أمه ومارفين، لأنه لم يكن يريدهما أن يعرفا بالأمر. عندما يحين الوقت لعودته، كان يعيد «شيرخان» إلى البراد، ويتمنى له أمسية طيبة قبل أن يثبّت عصا تحت الغطاء، كي يتمكن الهر من التنفس، من دون أن يتمكن من الهرب. وهكذا، فالكلاب والراغوندين[36] التائهة في الخلاء عند سقوط الليل لن تتمكن من الإمساك به. بدأ الهرّ يتعرّف على الصبي. يرمي بنفسه على صدره بمجرد أن يفتح له غطاء البراد، ويموء بقوة لدرجة يهتزّ فيها جسده كله. يزيد الصبي قليلاً من المبلغ المسروق - كيف يتصرّف بشكل آخر إن لم تكن أمه تعطيه مصروفه - كي يشتري طابة لـ «شيرخان» لم يستطع منع نفسه من الابتسام من كل قلبه عندما كان يرى الهرّ يلعب بالكرة.

لكن في يوم من الأيام، عند عودته من المدرسة، اكتشف أن العصا المخصصة لتثبيت الغطاء كي يبقى نصف مفتوح مرمية على الأرض، والبراد مغلق. عندما فتحه، اكتشف أن الهرّ قد مات مخنوقاً.

لم يقل شيئاً عن الموضوع لوالدته. ومنذ ذلك الحين، بدأ يتحدث معها أقل ما يمكن. في البداية، حاولت أن تدخل بنقاش معه، ثم انتهى بها الأمر بالسخط. لم يكن لديها الوقت لتضيعه بأمور تافهة. بعد هذا الصمت غير المفهوم، بينما هي ترهق نفسها بالعمل

---

[36] راغون دين: حيوان من الثديات في أمريكا الجنوبية.

كل الوقت لأجله، وجد مغرفة للحلوى في درج المطبخ، حفر حفرة في المكب، ودفن جسد الهر المتخشّب، وهو بالكاد يجرؤ على لمسه. لم يستطع ابتلاع الطعام خلال النهار كله، ولا في اليوم الذي تلاه، لكن لا أحد لاحظ ذلك بما أنه كان يحضّر طعامه بنفسه. في الليل يبقى ممدداً وعيناه جاحظتان، يعيد مرات ومرات المشهد الذي ثبّت فيه العصا تحت غطاء البراد للمرة الأخيرة. كيف استطاعت نهاية قطعة الخشب أن تنزلق؟ هل كان مستعجلاً جداً ولم يبذل اهتماماً كافياً؟ هل تبعه أحد وسحب العصا؟ من الذي بإمكانه فعل شيء كهذا؟ لم يكن يملك أيا من الأجوبة لهذه الأسئلة، لهذا بكل تأكيد، لا يفتأ هذا السؤال يدور في رأسه. عندما كان الناس يتحدثون إليه، يعود السؤال لينبثق فجأة، فيصبح عاجزاً عن التركيز. وهذا ما سبّب له المشاكل في المدرسة لدرجة تساءل بعضٌ من أساتذته إن لم يكن يعاني من تخلف عقلي، لكن بسبب شدة انشغالهم، ونظراً لأنه لم يكن ولداً مشاغباً، فقد تركوه وشأنه. في البيت، ترى والدته مارفين وهو يضرب الصبي، وهذا يفجر مشّادة عنيفة بينهما. سابقاً، كانت حوادث من هذا النوع تُسعد الصبي، لكن اليوم، كان بالكاد ينتبه إليها.

اللحظات الوحيدة التي كان يتوصل فيها إلى نسيان الملمس الناعم لفراء القط بين يديه، طريقته في تقديم رأسه وهو يطلب مداعبة، هي اللحظات التي كان يقوم بها بالعمليات الحسابية. لهذا فهو لم يتوقف عن القيام بها، ويطلب أوراق تمارين إضافية من أساتذته كي يأخذها إلى المنزل. عمليات قسمة، أعمال عشرية، مسائل تتحدث

عن تانت أغاث التي تذهب إلى بوسطن بسرعة محددة، والمطلوب حساب المسافة وساعة الوصول... وعن مغطس ماء حيث بالوعته صغيرة جداً ويجب ملؤه، وحساب الوقت الذي يتطلبه ذلك. تتحول الكلمات إلى أرقام تصطف وراء بعضها كما البهلوانات في السيرك، أرقام جديرة بالثقة، تقوم دوماً بفعل ما يجب عليها فعله. بدأ الصبي يعرف طبيعتهم، إنهم قدماء وخالدون، ليسوا هشين، فلا ينكسرون أبداً، طالما يعطيهم كل انتباهه، لن يتركوه أبداً. تتغنى له بأجوبتها، فيشع ضوء مسكن في عقله وهو يكتبها.

انبعث من رواية السيد بريدشتنوع من العري، ومن الهشاشة،وإحساس بجرح لم يندمل بعد. ربما لهذا لم يتفوه أحد بكلمة. فكرت إيما. أم تراهم يحتفظون بطاقاتهم وحصتهم من الأوكسجين للحكاية التي سوف يحكونها؟

ازداد صوت الماء، كان أقل انتظاماً، عبارة عن صوت بلوك، بلوك، يليه صمتٌ متبوع بقرقرة. حاولت إيما أن تتخيل ما الذي على وشك أن يحصل. نصحهم كاميرون أن يطووا أسفل البنطال، أو يرفعوا التنورة، ويخلعوا الحذاء والجورب قبل النزول عن الكراسي.

– عندما تخلعون جواربكم، البسوا أحذيتكم كي لا تجرحوا أقدامكم بالزجاج المكسور. احتفظوا بجواربكم في جيوبكم مع هذا - ومدّ نحوهم بقطعة من قماش أزرق، كانت البقايا الأخيرة من ساري مالاتي - يجب أن نذهب خلف الكوة، ونجلس على الطاولات هناك. فالسقف ينهار من هذا الجانب.

رفعوا نظرهم نحو الثقب الفاغر فاه فوق رؤوسهم. في العتمة، لم تتوصل إيما لرؤية الأشياء التي كانت تزداد سوءاً.

- استعملوا قطع القماش كي تجففوا أقدامكم قبل انتعال أحذيتكم. أشار عليهم كاميرون. حاولوا أن تحتفظوا بأنفسكم غير مبللين قدر المستطاع كي لا تصابوا بنزلة برد.

تبع الجميع تعليماته. كان يجب أن يشعروا بالامتنان نحوه، لأنه يمدهم بكل تلك الإيماءات الصغيرة، والتي كان بمقدور الجميع تنفيذها بنجاح. عندما نزعت إيما جوربيها بيدها السليمة، بطريقة خرقاء، كانت النتيجة أن فقدت من جراء ذلك إحدى الفردتين. وهي تنحني لالتقاطها، صدمت الكرسي بيدها المكسورة. اخترقها الألم من جانب إلى الجانب الآخر، فأطلقت شتيمة. عندما وقفت، لاحظت أن الماء قد وصل حتى كاحليها. هذا الصعود الغير رحيم، مضاف إليه الألم والبرد، حرّض لديها الرغبة في البكاء.انتقلت المجموعة نحو الطرف الجديد الآخر ودفعوا بالطاولات كي يشكلوا مثلثاً، تاركين بعض مساحات الفراغ بين الطاولات كي يتمكنوا من المرور.ساعدت ليلي جيانغ، التي كانت تمسك بذراعها المتورمة، في الصعود إلى الطاولة، ثم أشارت إلى طارق أن ينضم إليهما. تعربشت إيما على الطاولة الثانية. جفف كاميرون قدمها وساعدها على ارتداء حذائها.

كانت إيما تعتقد أن السيدة بريدشت ستنضم إليهم،لكنها استقرت على الطاولة الثالثة، حيث كان زوجها. تساءلت الطالبة إن كانت قصة السيد بريدشت هي ما دفعها للقيام بذلك. وقفت السيدة بريدشت على طرف الطاولة كي تترك مكاناً في الوسط لمانغالام.

اقتربت إيما من كاميرون كي تفسح مكاناً لـلاتي الـتي كانت

تتسلق الطاولة. كان الجميع محشورين قليلاً، كل ثلاثة على طاولة واحدة، لكن سمح لهم هذا الوضع بالقليل من الدفء. سأل كاميرون إن كان أحدهم يعاني من مرض السكري. فلم يجب أحد.

كان مانغالام يحمل حقيبة من البلاستيك ممتلئة بأكياس صغيرة ورقية من السكر. عندما أشار إليه كاميرون برأسه، مرّر له الحقيبة. أخذت إيما ثلاث قطع، وبما أنها كانت جائعة فقد مزقت طرف أحد الأكياس بأسنانها وسكبت القليل من السكر على لسانها. كانت متلهفة لتشعر بطعمها. لكن السكر كان شديد الحلاوة، مما سبب لها الغثيان. أعاد إليها ظلم هذا الموقف الرغبة في البكاء.

كل شيء كان يعطيها الرغبة في البكاء. فكرت برواية السيد بريدشت، ورأت أنه بالرغم من مشاكل والدته وانشغالها، كان يجب عليها أن تعتني بشكل أفضل بابنها. ثم، لماذا كان ابنها يحمل لها كل هذا الحب بالرغم من كل المعاناة التي سببتها له؟ فكرت إيما بوالدتها التي سهرت عليها بحب لا حدود له. حب كانت قد تقبّلته بطيب خاطر في طفولتها، ثم، ما لبث أن رمته تماماً في مراهقتها. نستهين بما يأتي إلينا جاهزاً، ونطلب المستحيل.

اختفى كاميرون في القبو وعاد محمّلاً بأغطية من الورق. وزّعها على المجموعات الثلاث كي يستخدموها كغطاء مشترك. لم يكن هذا سيحمل لهم الكثير من الدفء، حتى ولو وضعوا عدة طبقات منها فوق بعضها بعض. لكن كان هنا جانب مشّجع، فكرت إيما، شيء ما بريء وطفولي ليتقاسماه معاً.

في منتصف قصة السيد بريدشت، كانت زوجته لاهية عنه

بالتفكير بذكرى ما. منذ سنين خلت، وعندما تأكدت أنهما لن يحصلا على طفل أبداً، طلبت من زوجها إن كان بوسعها أن تجلب كلباً. رفض بشدة تحت حجة أن الكلب قد يتلف الموكيت الجديد، ويتطلب الكثير من العناية، ولا وقت لديه ليساعدها في العناية به. ثم، كيف سيتصرفان إن هما قررا السفر في يوم ما؟ لكنها توسلت إليه، وتوسلت، لأنها كانت تشعر بالوحدة. استسلم أخيراً ورافقها إلى مأوى للحيوانات.

بعد بضع دقائق من وصولهما إلى المأوى، قبل حتى أن تُخرج السيدة بريدشت أحد الكلاب من قفصها، اشتكى السيد بريدشت من صعوبة في التنفس، وسارع في الخروج إلى خارج المبنى. وعندما لحقت به، وهي قلقة، وجدته جالساً في سيارته المرسيدس، مسنداً جبينه على المقود. أمسكت بيديه، كانتا رطبتين تماماً.

ذهب تفكيرها إلى حساسية خطيرة. فقبل أن يصلوا إلى مكان الكلاب، كان عليهم المرور بغرفة مليئة بأقفاص القطط.ربما يكون هذا هو السبب الذي أطلق هذه الحساسية. هذا ملائم جداً! قالت في نفسها، وهي حانقة قليلاً، ثم خجولة من تفكيرها بهذه الأنانية. فتحت النوافذ على مصاريعها، وذهبت لتجلب له كأساً من الماء. رمت خيبة الأمل هذه جانباً، إلى جانب خيبات أخرى، وراحت تهتم في العناية بحديقتها، وفي دروس الغولف التي كانت تأخذها كي تتمكن من التسجيل في النادي المحلي، وبالمآدب التي كانت تحب أن تهتم بها. شعرت اليوم أنها ممتلئة بالحزن والغضب: بالحزن للطفل الصغير الذي كان عليه زوجها، والغضب لأنه لم

يثق بها كفاية كي يقص عليها الحقيقة.

غارقين بأفكارهم، ضائعين في الخرخرة المنومة للماء، فوجئوا جميعاً عندما قالت ليلي:

– أنا سعيدة لأنك اخترت الرياضيات أيها السيد بريدشت، فهذا يصنع منك شخصاً مميزاً عندما يعتقد الجميع عكس ذلك.

نظرت إلى كاميرون:

– هل أستطيع أن أحكي حكايتي؟

– انتظري قليلاً. أجابها.

لقد كان ينتظر ردة فعل ما. راقب الوجوه التي تحيط به، أرادت إيما أن تقول شيئاً بخصوص غدر الذاكرة، كيف باستطاعة حادث مؤلم أن يحل محل كل الأشياء الجميلة التي سبق وحدثت معه.

لكن، سُبات الخطر الناتج عن الجوع والبرد، استولى عليها ومنعها من الحديث. كان يجب على أحدهم أن يقص حكايته قبل أن تغرق في هذا الخمول.

سمعت بارتياح صوت مالاتي يعلن:

– سأحكي حكايتي، لكن بما أن لغتي الإنكليزية ليست جيدة، سأطلب من السيد مانغالام أن ينقلها من اللغة التامولية.

رفع مانغالام رأسه فجأة، مقطب الحاجبين. كانت هيئته كمن يريد الرفض، لكن مالاتي بدأت في الكلام قبل أن تأخذ موافقته.

– ليس من مصلحتك أن تغير أي كلمة، قالت له. أنا أعرف الإنكليزية كفاية كي أكتشف الأمر.

9



مالاتــي

عندما رسبت في الصف العاشر للمرة الثانية قال والداي بأن إنفاق المال لأجل دراستي لا يفيد بشيء وبأنه من الأفضل أن يزوجاني، لم أكن معارضة لهذه الفكرة وفي جميع الأحوال لم يكن لديّ الخيار. وبما أن لديهما التجربة مسبقاً بالزيجات بفضل ابنتيهما الكبريين كانا يعلمان بأن الخطّابة بحاجة لصورة. إن كان بإمكانهما تزويدها بصورة أُظهر فيها أجمل مما أنا عليه في الحقيقة لتحسنت حظوظي بإيجاد زوج، وحظوظهما بالتفاوض من أجل مهر أقل. وعلى الرغم من طبيعتهما المرتابة والاقتصادية، كانا يعلمان أهمية استثمار جيد الاختيار. وهكذا وجدت نفسي في صالون «بيل دام» للآنسة لولا، صالون التجميل الأول في كوندباتور.

لم تكن أمي قد ذهبت إلا مرتين إلى هذا الصالون، عرفتها الآنسة لولا فوراً وسألتها: أتريدين الصورة الخاصة بالزوجة؟

هزّت أمي برأسها ورمقتني لولا من الأعلى إلى الأسفل. قالت بأنه سيكون هناك عمل معي أكثر بكثير مما كان مع أختيّ. أطلقت أمي تنهيدة، لكنها كانت موافَقة لهذا الرأي. ساومتا كلفة تجميلي، وعندما اتفقتا على مبلغ معين أطلقت الآنسة لولا حزمة

من التعليمات إلى البنات اللابسات للزي الزهري، واللواتي كن يعملن لديها لينهيّن العمل مع «الزوجة الخاصة، بخصلات فضية مع زيت للشعر».

أخذتني فتاتان من كتفيّ ليقوداني داخل مذبح حيث كانت عدة نساء أنيقات يتلقين عدة عمليات تجميل مختلفة معقدة ومؤلمة، تهدف إلى تحسين عمل الطبيعة الأم.

أجلستاني على كرسي مائل ولفتاني بشرشف من القطن الأبيض وهناك في تلك الغرفة المكيفة والمحمّلة بالرطوبة، والمزينة بأدق تفاصيلها باللون الوردي (اللون المفضل للآنسة لولا) كان يفوح في الجو عطر غريب مدهش لم يتمكن أنفي البدائي من تحديده. عندها، رأيت كما لو أن طريق مستقبلي قد أُضيء بنور مقدس.

حتى ذلك اليوم كنت أعتبر الزواج كمصير محتوم لا يمكن تفاديه. كان الخيار الآخر الممكن لفتاة من عائلة براهما، ومن طبقة اجتماعية متوسطة وملتزمة، بأن تبقى محترمة، هو التدريس في المدرسة الثانوية للبنات (سري بادماماتي) لكن لم يكن يُدفع للمعلمات رواتب جيدة، وكنّ يشبهن قضيب قصب السكر المعلوك، ولم يكن لدي رغبة بأن أصبح مثلهن.

علي أن أعترف أني كنت أتجسس أحياناً من غرفة منزلنا على النساء الأخريات: موظفات الاستقبال، وضاربات الآلة الكاتبة اللواتي كن يعملن في شركة «أنديا أويل» واللواتي كن ينتظرن باص الشركة أمام منزلنا لينقلهن.

كنت ممزقة بين الاستنكار والحسد، أتفحص أدق تفاصيل فساتينهن التي كانت تكشف عن ركبهن، وأحذيتهن ذات الكعب

العالي، وشعرهن المجعد دوماً. كن يضعن أحمر الشفاه حتى في عزّ النهار، وكن ينفجرن بالضحك بفواصل منتظمة، ويتهامسن فيما بينهن عندما كان يمر الرجال بسياراتهم الفاخرة، ويتجاهلن الملاحظات الشهوانية التي يطلقها الرجال.

لكنهن كن مسيحيات من «كيرالا» ينتمين إلى فئة مشينة، وكان ممنوعاً الاقتراب منهن.

بالمقابل، كانت الفتيات عند لولا، بحواجبهن المنزوعة، وبشرتهن البراقة، ووجههن المحاط بتسريحات مثالية، وهن ينحنين عليّ كأقمار مشّعة، كنّ مختلفات كلياً. كن يؤكدن لي، وهن ينزعن لي الشعر، ويزلن طبقات الجلد الميتة من بشرتي، ويدلكنني بالزيت، ويستأصلن حبوب النقاط السوداء، ويدعكنني بمراهم مبيضة، ويصدرن ضحكات مكتومة عندما كنت أطلق صرخة ألم، بأن النتيجة تستحق كل هذا العناء.

كنت أشعر بتناغم غريب بيني وبينهن. غطينني بكميات كافية من كريمات الأساس، والكحل، وأحمر الشفاه والخدود، وزيت جوز الهند النقي للشعر، كي أظهر كإحدى «سيدات لولا الجميلات» وضعن «باندي» لامع على جبهتي، وعلقن أقراطاً من الماس بأذنيّ. شبكن بالدبابيس فوق صدّاري، بساري من البرق مخصص لهذا النوع من المناسبات، وكان لا يغطي إلا الجزء العلوي من جسدي (هذا ما كانت الصورة ستظهره) والتي كان يمكن لها أن تضيف إليّ بعضاً من منحنيات لم أكن أملكها. ذهبت إحداهن لمناداة ابن أخ لولا الذي كان يملك استديو للتصوير عند الزاوية، فيما كانت الأخريات يظهرن لي تعبيرات للوجه من المفترض أن تغوي الحماوات، مما جعلني

أنفجر ضحكاً، وهذا شي لم أكن أجرؤ أبداً على القيام به أمام الغرباء. لكنهن لم يعدن غريبات قط بالنسبة لي. فقد سحرنني بنوادرهن الجريئة، بأسمائهن الحركية للإشارة إلى طقوس الجمال، وضحكاتهن الشجاعة في مواجهة الأعباء التي كانت بانتظارهن دونما شك، ما أن يخرجن من المحيط الجذاب لصالون لولا.

في صباح اليوم التالي عندما سلّحتني أمي بمظلة لأحمي جلدي الجديد اللامع، وأرسلتني إلى السوق لأشتري القرع، حولت المال الذي أعطتني لأستأجر عربة توك ـ توك. بعد نصف ساعة، كنت عند لولا أترجاها للعمل لديها.

ربما وجدت لولا بي شيئاً ما، قد تكون الإثارة التي كانت تلمع في عينيّ، والتي، لا بد وذكرّتها بشبابها.

كان الصالون ممتلئاً بالزبائن، لكنها أخذت وقتها في الإصغاء إلى توسلاتي. ثم سألتني:

– ما الذي جرى؟ ألا ترغبين أن تصبحي عروساً شابة؟

أجبتها على الفور: أفضّل أن أصبح صانعة للعرائس.

كانت لولا، التي طلّقت مرتين، تعرف الكثير عن هذا الموضوع، فأجابتني:

– خيراً فعلت.

وهكذا ـ وبالرغم من عدم حاجتها إلى موظفة إضافية ـ أصبحت إحدى فتيات «صالون الجمال للسيدات».

في البيت، كما يمكنكم أن تخمّنوا، كان لخبر توظيفي وقوع الصاعقة. قاطع والداي صالون لولا، وطالباها برفدي. أبلغتهما بلهجة هادئة ومسترخية أن زوجة رئيس الشرطة (التي كانت زبونة دائمة منذ عدة سنوات) ستأتي اليوم لأجل العناية ببشرتها، وأن كلمة

واحدة فقط من طرفهما، ستضع والدي في السجن بتهمة التهجّم.

انهارا تماماً. أشفقت لولا عليهما وجعلتهما يفهمان أن عملي سيكون مأجوراً. فإذا ما غيرت يوماً رأيي وقررت الانصياع لنير الحياة الزوجية، سيحق لي «عناية ذات مستوى ماسي» مجاناً، ولم يكن هذا بالشيء القليل.

أعطى والديّ موافقتهما على مضض، آملين بأني سوف أتعب قريباً من تزيين السيدات الرفيعات المستوى.

متحررة من تدخل والديّ، قضيت الستة أشهر التالية في إتقان كل ما بإمكاني تعلمه: من نتف للحواجب، ونزع الشعر بالشمع الساخن، أقنعة من الطين، والتجعيد الدائم. هذا التفصيل الأخير المعقد جداً تعلمته من لولا نفسها، وفقط أفضل العاملات لديها كان يحق لهن ممارسته. كنت أشعر بقلبي ينعم بالفخر كلما كنت أتعلم وأحفظ كل أنواع اللفافات، والملاقط والشرائط الورقية، كما التوقيت المختلف الضروري ليعطي لزوبانات لولا درجة التجعيد التي ترغبن بها، كذلك المقادير السرية للمواد الكيميائية التي كان يمكن لها أن تؤدي إلى نتائج كارثية في حال إساءة استعمالها.

من بين مجموعة السيدات الراقيات لكوامباتور اللواتي كن يقصدن صالون لولا، كانت السيدة فاني بالان أكثرهن ثراءً ونفوذاً. فهي زوجة لرجل صناعي عمل ثروة من تجارة الإسمنت، وكانت تأتي عند لولا مرتين في الأسبوع، وتطلب العناية الأكثر كلفة، وبالرغم من الإكرامية الكبيرة التي كانت تتركها، كانت الفتيات يتجنبنها كما لو كانت طاعوناً. لم يكَن يستسغن طريقتها المهينة في رمي حزم الروبيات في الهواء.

زيادة على ذلك، فقد كانت السيدة بالان متطلبة ونزقة، وقد يصادف أن تقذف بكل ما يقع تحت يدها، إن لم يكن للعناية الأثر المطلوب. وحدها لولا، كانت قادرة على تحمل مزاجها، وحتى وإن كان سيكلفها هذا كأساً كبيرة من الروم مع الكولا كي تستعيد توازنها بعد رحيل السيدة بالان.

لسبب ما أجهله استلطفتني السيدة بالان، وكانت تصّر على أن أهتم شخصياً بها في كل زياراتها. كنت دوماً أشعر بشيء من التوتر بوجودها، لكن في نفس الوقت كنت فخورة خاصة في ذاك اليوم الذي كنت أساعد فيه أثناء قيامها بالتجعيد وقالت عني السيدة بالان أني رقيقة جداً.

لم أكن الوحيدة المفضلة عند السيدة بالان، بل أيضاً خادمتها التي كانت ترافقها دوماً إلى الصالون وتنتظرها جالسة في غرفة الانتظار تتصفح المجلات الأميركية التي كان ابن أخ لولا، الموظف لدى الحكومة في حيدر أباد، يحصل عليها بطريقة غير شرعية. كانت نيرمالا فتاة جميلة بملامحها الناعمة، ويديها الأنيقتين، تقلب صفحات المجلة بعناية برغم من عدم معرفتها للقراءة. كانت تحمل لسيدتها كأساً من عصير الفاكهة المنعش لحظة خروجها من مذبح الجمال، ثم تحمل الأكياس المليئة بمستحضرات التجميل الغربية المنشأ التي تكون سيدتها قد ابتاعتها من الصالون إلى السيارة.

ذات يوم، وبمناسبة حفل استقبال زواج كانت السيدة بالان قد دُعيت إليه، قامت بعمل عناية كاملة لجسدها، الشيء الذي استمر لساعات. سألت نيرمالا إن كانت تريد أن تأكل أثناء انتظار سيدتها. هزّت رأسها بخجل لكنني أدركت أنها كانت جائعة.

عندما جلبت لها برتقالة، أبدت دهشتها وسألتني: «هذه لي؟» كما لو أنها لم تصدق أن بإمكان أحد العناية بها. شكرتني عدة مرات، وهي تناديني أختي الكبيرة، وكنت جد متأثرة. استطعت عندها أن أفهم لماذا السيدة بالان، المحاطة باستمرار بأشخاص مقتنعين أن العالم يدين لهم بكل شيء وأكثر أيضاً، كانت تجدها تنبض بالحياة.

كانت السيدة بالان متعلقة جداً بهاتفها الخليوي. استطاعت أن تصل إلى الكمال في فن التحدث دون أن تحرك ولا ميليمتراً واحداً من عضلات وجهها، وأن تتابع عمليات التشهير بالناس حتى وهي مغطاة بطبقة من مراهم الطحالب المائية، أو أول أوكسيد الماء، الأمر الذي كان سيمنع أغلبية النساء من تحريك شفاههن. بفضلها تعرفت على الكثير من الفضائح المخبأة في خزائن البيوت الأكثر ثراء في المدينة. لو أردت أن أحكي، لكان باستطاعتي فضح أزواج مدمنين، ونساء خائنات، ومراهقين بممارسات جنسية مشبوهة. لكن عند لولا، كان هناك قانون شرف يجب احترامه. وكنا نعرف أن التدخل في شؤون الأغنياء والمتنفّذين لن يفضي إلى شيء.

لم تكن السيدة بالان المرأة الوحيدة الثرثارة في الصالون. ففي الأيام التي لم تكن تأتي فيها، عرفت من نساء أخريات ـ اللواتي كن يتملقنها ويكرهنها في الوقت ذاته ـ أن زوجها (الذي كانت تتجاهله بفخر) يحب كثيراً مرافقة السكرتيرات اليافعات في شركته، وأن ابنها رافي (الذي كانت تحبه كثيراً) يدرس في الخارج، وأنها قد غرقت في اكتئاب خطير عندما ذهب للدراسة في أميركا (كي يبتعد عنها، كانت تقول زبوناتنا الأقل رحمة) لم تستطع أن تتجاوز حزنها إلا بفضل سلسلة من سفريات التسوق في «شيناي وبانغالور».

اليوم عاد رافي إلى كوامباتور مع شهادة دبلوم في علم النفس، وعقل ممتلئ بالثقافة الغربية.

– اندفعت السيدة فيربان قائلة: ألا قولوا لي ماذا يفيد هذا الدبلوم في علم النفس؟ زيادة على أنه حصل عليه من «إيداهو» المكان الذي لم يسبق لأحد أن سمع به!

كان هذا مجرد سؤال بلاغي، لكن السيدة نايار وجدت متعة في الإجابة: هذا لا يفيد في شيء، لا شيء على الإطلاق. على كل حال هو لا يحتاج للعمل لكسب قوته، عكس أولادنا.

– سمعت بأنه يزمع افتتاح مدرسة لأجل الفتيات الفقيرات، تدخلت السيدة سوبرامانيان قائلة.

وجّهت السيدة فيرابان ضربة بقولها: سوف يرمي النقود من النافذة، هذا ما سوف يفعله. وهذه العائلة لا ينقصها المال، مع ذلك، فمن المستحسن أن يعطوا القليل منه إلى الفتيات الفقيرات... فالوالد قد دمّر حياة الكثيرين منهم.

من ناحيتها، السيدة بالان أعطتنا تفاصيل أخرى:

– ماذا تريدون مني أن أفعل بهذا الشأن، فابني رافي كان دوماً ولداً رقيقاً، وقد أخذ هذه الخصلة مني. هو يريد تحسين أحوال الفقراء، مثله مثل المهاتما غاندي. قلت للسيد بيلان أننا نستطيع مساعدته بشرائنا للبناء القديم في مركز المدينة، بما أنه قد طلبه منا. لم يكن السيد بيلان موافقاً. أخيراً قلت له: احتفظ بمالك لسكرتيراتك! - ماذا؟ هل تعتقدون أني لا أعلم بما يجري؟ - سوف أبيع مجوهراتي الماسية وأشتري له المدرسة بنفسي، وتأكد بأن العالم كله سوف يتحدث عنها! فوقّع الأوراق فوراً، دون أن يتوقف عن

التذمر، كما لو أن رافي لم يكن ابنه من لحمه ودمه، بل طفل شوارع.

في صباح يوم جميل، في الموعد المحدد، ولجلب الفأل الحسن، كسرنا ثمار جوز الهند، وتلونا الصلوات، وأشعلنا الكافور، وقص المسؤولون السياسيون الشريط، وصفق الأساتذة الذين كانوا بالكاد قد تعينوا، واستهلك المدعوون كميات فلكية من «ايدلي ـ سامبار»[37] و«البوندا»[38] والقهوة. وهكذا تم رسمياً افتتاح مدرسة فاني فيديالام.

– ألا تجدون أن هذا لا يصدق؟ لقد أطلق رافي اسمي على مدرسته. تهكّمت السيدة بالان قائلة في اليوم الذي جاءت تسرح فيه شعرها لأجل حفل العشاء المقام بمناسبة افتتاح المدرسة.

كانت عيناها دامعتين. أبداً لم نرها في مثل هذه الحالة. تمخّطت دون أن تبالي باحمرار أنفها.

– يريد مني أن أكون متطوعة في المدرسة. ربما أفعل ذلك.

صُدمنا جميعاً بحالتها التي جعلتنا نعتقد أننا تسرعنا في الحكم عليها. فربما لم تكن السيدة بالان بهذا البرود والتصنع الذي اعتقدناه. أو ربما كان الحب الأمومي هو من حوّلها.

في البداية جرت الأمور دون مشاكل تذكر. فالكثير من الأهالي، مبهورون بوعود دراسة مجانية، بما فيها الوجبات واللباس الرسمي، أرسلوا بناتهم إلى مدرسة فيديالام. كانت السيدة بالان تذهب مرة في الأسبوع، ساعة الغذاء، تجوب المقصف من أوله لآخره، مرتدية ساري مُحاك يدوياً، والذي، ربما كان من عمل

---

[37] كاتو من الأرز، مع صلصلة من العدس والتوابل.

[38] كرة صغيرة مقلية من البطاطا وطحين الحمص.

غاندي نفسه. تطبطب بلطف على رأس الطالبات الأكثر نظافة، ثم تذهب إلى المكتب وتبث الرعب في السكرتيرات. من يعلم عن ماذا تمخّض كل ذلك؟ في الوقت الذي اضطررنا فيه للاقتناع أن السيدة بالان قد فاجأتنا بتغييرها. قرر رافي أن يمد بإحسانه خارج حدود المدرسة، وهنا، أخذت الأمور وجهة أخرى.

أصرّ رافي أن يتابع خدم عائلة بالان دروساً مسائية كي يتعلموا قراءة وكتابة اللغة الانكليزية، وسوف يكون هو نفسه أستاذهم. ليس عليهم سوى الجلوس على المصطبة. لم تكن السيدة بيلان تنظر لهذا الأمر نظرة جيدة، لكنها كانت غير قادرة على رفض أي طلب لابنها.

في البداية كان الخدم محتارين من هذا الحدث الجديد الذي يسمح لهم بأخذ ساعة استراحة، لكنهم لم يلبثوا أن تعبوا بسرعة. فالأكبر سناً منهم كان غير قادر أن يرى كيف ستتغير حياة ينعمون فيها برفاهية الاستقرار، بإلقاء بضع جمل من كتاب الأطفال. بينما بالنسبة للخدم الأصغر سناً، فقد شعروا بضجر شديد لأنه على الرغم من الهدف النبيل، كان رافي أستاذاً تافهاً. بدأ الخدم يصلون متأخرين إلى الدرس، ويغادرون قبل الوقت بحجة العمل الذي ينتظرهم، وانتهى بهم الأمر إلى عدم الذهاب بالمرة. لكن رافي لم يكن ليهتم، ففي غضون ذلك كان قد اكتشف جوهرة نادرة، وكانت تلك نيرمالا.

من الذي يعرف بماذا كانت تفكر نيرمالا عندما بدأت بمتابعة الدروس؟ ربما كانت تأمل بتلقي التعليم الذي حرمتها منه ولادتها في عائلة فقيرة. هل بإمكاننا لومها إن هي، أثناء الدرس، قد وقعت مغرمة في الطريقة التي كان رافي ينظر في عينيها بينما هو يحفظها غيباً اللفظ الغريب للغة الإنكليزية، والأشكال المبهمة لحروفها؟ بين

كل الرجال الذين عرفتهم، كان رافي هو الأكثر شبهاً بالأمير؟ مستعينة بالأفلام الرومانسية التي كانت قد رأتها، سيكون باستطاعتها بسهولة أن تتماهى مع دور الخادمة الفقيرة الذي يأتي الأمير ليخطفها من مصيرها. لكن هذا كله لم يكن أكثر من فرضيات. فكل ما عرفناه، هو ما كان قد أشارت إليه إحدى خادمات السيدة بالان.

ذات مساء، عادت السيدة باكراً من نادي البريدج، وصعدت إلى المصطبة كي تتحقق من تقدم الخدم في الدراسة. وأمام دهشتها الكبيرة لم تجد إلا رافي ونيرمالا جالسين قرب بعضهما بعض، رأساهما متلامسان، ويد رافي فوق يد نيرمالا يعلمها كتابة الحروف في دفترها. رأت الوجه المشع للفتاة الشابة التي أنهت تمرينها، ورفعت عينيها كي تتلقى مديح أستاذها، وشاهدت رافي يضع يده حول الفتاة الشابة ليضمها إليه.

لو أن السيدة بالان استطاعت التحكم بأعصابها، وأرسلت نيرمالا إلى الأسفل، وتناقشت بهدوء مع رافي، لكان من الممكن للوضع أن يُحلّ ببساطة. لكن رؤية شفتي ابنها المعبود على بعد سنتيمترات قليلة من شفتي الخادمة أطار صوابها. أسرعت نحوهما وصفعت الفتاة، منادية تلك المسكينة بالعاهرة المتلاعبة. كانت ستستمر في ضربها لو لم يمسك رافي بقبضتها، ويأمرها باستعادة وعيها.

في هذه اللحظة بالذات، فقدت السيدة بالان عقلها تماماً، شتمت نيرمالا ونعتتها بأشنع الألقاب، وهددتها بأنها سوف تحكي أمام كل قريتها بأي طريقة شكرت سيدتها على نبلها، وذلك بخيانتها. ثم التفتت نحو رافي وتساءلت أتراه فقد رشده في أميركا؟ هل نسي أن

على الخدم أن يبقوا في مكانهم؟ ألا يـرى إذن أن فتـاة مـن طبقـة دنيـا كنيرمالا كانت بالتأكيد قد خططت لكل شيء منذ البداية؟

أطلق رافي بدوره التهديدات بصوت هادئ جـداً. إن طـردت أمـه نيرمالا فسوف يغادر إلى أميركا، ولن يعود أبداً.

أمام هذا البلاغ النهائي، لم يكن أمام السيدة بـالان خيـار إلا أن تأمر نيرمالا بالبقـاء. جعلتهـا الهزيمـة تلـزم السرير لبضـعة أيـامٍ، وعندما نهضت، لم تعد هي نفسها أبـداً. بـدت كأنهـا أكـبر سـناً، وأكثر هشاشة، وراحت تتحاشى ابنها. لكنه عندما اعتذر عن قسوة كلماته (دون أن يسحبها مع ذلك) انفجرت في البكاء، وأخذته بـين ذراعيها. خلال بضعة أيام، بدا وكأن كل شيء قـد عـاد إلى وضـعه الطبيعي في عائلة بالان. نيرمالا تتابع أعمال الخدمة وترافق السـيدة بالان أثناء طلعاتها.

– لا بد وأنها قـد وضـعت حـداً لـدروس المسـاء، قالـت السـيدة فيرابان للسيدة نايـار، بينمـا كانتـا تقومـان همـا الاثنـتين بالعنايـة بالشعر بزيت الخبيزة. لكن في منزل كبير كمنـزلهم، لم يكـن صـعباً جداً بالنسبة للشابين أن يلتقيا سراً.

كلا، لم يكن هذا بـالأمر الصـعب. أجابـت السـيدة نايـار، هـل تعتقدين أن....؟

فكررت السيدة فيرابان ما سمعته خادمتها من فم طباخـة عائلـة بالان. ذات مساء، بينما كانت السيدة في نادي البريدج، كان السيد بالان، الذي كان علـى عكـس مـا تعتقـد زوجتـه، قـد عـرف بكـل شيء، اقترح على رافي أن ينضم إليه ليأخذا كأساً من الويسكي مـعٍ الصودا. سأل السيد بالان ابنه إن كان يريد أن يستأجر منزلاً صغيراً

ويضع نيرمالا فيه بحيث يستطيع رؤيتها دون أن يزعج هدوء العائلة. شعر رافي بالإهانة وأعلن أن ليس في نيته أن يستغل من الفتاة الشابة. مدح ذكاءها، وإيمانها بجمال العالم، ورغبتها في التقدم. انتهى بقوله، أنه بحسب رأيه، يجب أن تلغى الحدود الصارمة بين الطبقات، فهي كارثة المجتمع الهندي.

- هل تعتقدين أنه يزمع...؟ سألت السيدة نايار مرعوبة.

استعرضت السيدة فيربان راحتي يديها المطليتين حديثاً للتعبير عن عدم قدرتها على مواجهة الوعي الغدّار للأولاد.

- ساذج، مثالي، عنيد وغبي... عندما تجتمع كل هذه الصفات في شاب، فما الذي يمكن أن ننتظر منه.

لا بد وأن خبر الاستفراد بين الابن وأبيه قد بلغ مسامع السيدة بالان لكنها لم تبدُ شديدة القلق.

بعد عدة أسابيع قامت السيدة بالان باجتياح صالون لولا، وقد بدت أكثر غروراً من المعتاد، تتبعها نيرمالا. كنت أراقبها من وراء ستارة من الخرز. أعلنت بطريقة غير مباشرة أنها ستذهب إلى شوناي لتحضر خمسينية ابن عمها، السيد غوبلان، أحد الملاّكين الكبار لفئة من فنادق الخمس نجوم. سوف يدوم الاحتفال أسبوعاً كاملاً، فغوبلان، الأعزب اللعوب الرخيص كان يعشق الأعياد ولا يبخل عليها بأية مصاريف. كانت السيدة بالان ستغادر في المساء نفسه، بينما سيلحق بها رافي ووالده في عطلة نهاية الأسبوع. كانت تريد عناية للبشرة، وتقليماً وطلياً للأظافر، وربما تنظيفاً على البخار. أصرت لأجل هذه المناسبة الخاصة، أن تعتني لولا بها شخصياً.

- ستأخذين خادمتك معك؟ سألت بلطف السيدة نيرفالا.

أجابت السيدة بالان بكل لطف أنها سوف تأخذها معها، لأنها لا تستطيع الاستغناء عنها ولا يوماً واحداً. من الذي سيكوي ثيابها، ويحرس مجوهراتها، ويحمل لها ما تتسوقه من أفخم مخازن شيناي، ومن الذي سيزيل مساحيق التجميل، ويدلك قدميها في المساء قبل النوم؟

ثم أردفت قائلة: لا شك بأنك تقومين أنت وحدك بهذه الأعمال يا عزيزتي السيدة فيربان، لكن بالنسبة لي، أخشى أن يكون السيد بالان قد أفسدني قليلاً.

ثم أعلنت، أمام دهشة الجميع، أنها تريد أن تستفيد نيرمالا هي الأخرى من عناية للبشرة (هزت الغرفة شهقة تعجب فعلية، فقد كانت تلك إهانة حقيقية)

- فلتكن عناية كاملة، بأعشاب «الأيروفاتيك» أضافت السيدة بالان.

وجدت السيدة فيربان في هذاهجوماً عليها، هي التي كانت تحظى بالعناية نفسها على وجهها.

طلبت مني لولا أنا، أن أصطحب نيرمالا إلى الغرفة الصغيرة الخاصة كي لا تتسبب في جرح حساسية زبوناتنا المعتادات. كانت بعض فتيات لولا سيرفضن العناية بخادمة، لكن ليس أنا. فمنذ اليوم الذي نادتني فيه بأختي الكبيرة، شعرت برغبة كبيرة في حمايتها. بذلت جهدي كي تبدو بأفضل صورة ممكنة، متمنية لها بصمت حظاً سعيداً. إن سار كل شيء بشكل حسن، فسوف تحتاجه كثيراً مع حماة مثل السيدة بالان، وإن جرت الأمور بشكل سيء، فسوف تكون بحاجة إليه أكثر.

بعد أن تجاوزت نيرمالا الذهول لتمكنها من الجلوس على الكنبة المخصصة للسيدات الغنيات، حدثتني بإثارة عن رحلتها إلى شوناي. لم تكن قد ذهبت بعد إلى أي مكان خارج قريتها وخارج كوامباتور. كانت متحمسة لاستكشاف صالاتها المكيفة، وسلالمها الكهربائية، وبيت السيد غوبلان سار الذي بحسب ما يحكون، كان أكبر بمرتين من منزل السيد بالان.

بينما كنت أنتف حاجبيها، وأدلك جلدها المتماسك، الخالي من أي عيب، عكس كل الوجوه التي كنت أعتني بها في العادة، باحت لي بسر آخر. لقد أعطتها السيدة بالان عدة سواري حريرية من التي تخصها، والتي كان بإمكانها ارتداؤها خلال إقامتها في شوناي. لا بد وأن الدهشة جعلتني أعقد حاجبيّ، لأنها أسرعت فأضافت بأن جميعهم كانوا بحالة حسنة. أليست محظوظة أن يكون لديها سيدة بهذا النبل؟

- أعطتني حليًاً من الياقوت غير الحقيقي اشترتها في العام الماضي، وقالت لي أن بإمكاني وضعها في أول يوم من سهرة عيد السيد غوبلان سار المقامة في بيته مع أصدقائه المقربين. تريد السيدة أن أكون قريبة منها في حال احتاجت إلى شيء ما.

شعرت بالارتياح لاكتشافي أن العلاقة قد عادت طبيعية بين نيرمالا والسيدة بالان دون ضغينة.لم تكن السيدة بالان من النوع الذي كان ينسى حقدها بسهولة، لكن ربما، بمواجهة خصم بقامة ابنها، انتهت أخيراً إلى الانحناء، قائلة في نفسها أن من الأفضل البقاء على صلة جيدة مع تلك التي ستغدو كنتها قريباً.

تفحصت نيرمالا وجهها المشع في المرآة وسألتني إن كان جلدها

سيبقى بهذه النضارة حتى عطلة الأسبوع، التي، كما أعتقد، تتعلق باللحظة التي سيلقاهما رافي فيها. قلت لها الحقيقة: كلا. فالأيام الأولى كانت هي الأفضل لأن الجلد يكون فيها مشدوداً من التدليك. عضت على شفتها العليا، سارحة في أفكارها. أعتقد أنها كانت تفكر في الطريقة التي كان بإمكانها رؤية رافي فيها قبل ذهابها إلى شوناي. ثم ابتسمت. كانت تلك هي الصورة التي احتفظت بها لها: مشعّة في المرآة، ضوء المصباح المعلق الذي شكّل هالة غير متناسقة حولها.

لم يرَ أحد منا نيرمالا مرة أخرى، لكن نتفاً من أخبارها كانت قد وصلت إلينا، مع الهواء المحمّل بالإشاعات. بتجميع كل العناصر، شعرت أني مغفلة. لا بل أكثر من ذلك، فقد وثقت بي، دعتني أختها الكبيرة. كان يجب عليّ تحذيرها. لم أكن قط مشدودة إلى الدين، لكني ذهبت عدة مرات إلى معبد «بارفاتي» لطلب الصفح. كنت مع ذلك أعلم أن هذا لا يكفي.

هذا ما نجحت في معرفته بخصوص ما حدث معها: في الأمسية الأولى التي جعلت فيها السيدة بالان، نيرمالا ترتدي ثياباً أكثر قيمة من وضعها الاجتماعي، وجعلتها قريبة منها خلال السهرة كلها، لفتت بذلك نظر السيد غوبلان إلى الفتاة الشابة. لا بد وأن نيرمالا قد أثارت اهتمامه بدهشتها أمام روعة المنزل.

وللإعجاب قوة مثيرة للشهوة. بعد ذهاب المدعويين، كان من السهل على السيدة بالان أن تشتكي من ألم في رأسها وترسل نيرمالا تتجول في منزل غوبلان كي تطلب قرص أسبيرين. من الذي يعرف ما الذي حصل بعدها بين هذين الاثنين؟ وحدها الحوادث التالية كانت مؤكدة: قبل وصول رافي ووالده بفترة إلى الاحتفال،

كانت نيرمالا قد غادرت القسم المخصص للخدم كي تستقر في جناح خاص في القسم الآخر من المنزل. استبدلت حليها المزيفة بأخرى حقيقية، وثيابها التي من الدرجة الثانية بسواري أخرى مزينة بالبرق، وقمصان مقورة تكشف سحرها. ومن الطريقة التي كان يطبطب فيها غوبلان على مؤخرتها وهي تقدم له كأسه من الجنّ مع التونيك، بدا واضحاً لكل المدعويين أنه قد وجد رفيقة جديدة.

جاءت السيدة بالان إلى الصالون بعد عدة أسابيع من ذلك. طلبت من لولا أن نقوم بتجعيد شعرها بطريقة خفيفة وطبيعية قدر الإمكان. فقد كان رافي سيعلن خطوبته على الفتاة البكر لعائلة «كوماراسوامي»، عائلة في كومباتور كانت قد عملت ثروة من تجارة المفروشات. التقيا عند غوبلان في اليوم الأخير من أسبوع الاحتفال. سيتم الزواج في مدينة الفتاة، لكن الخطوبة ستتم في عطلة هذا الأسبوع في منزل بالان، وسيكون احتفالاً دون تكلّف، ليس أكثر من ثلاثمائة مدعواً.

- هل ستحبين عروس المستقبل تلك؟ استعلمت السيدة نايار.

بالطبع! فهي من سلالة عائلة مميزة. صغيرة قليلاً، وربما بدينة قليلاً، لكنها ذكية جداً. استطاعت أن تقنع رافي أن يعين مديراً لمدرسة فاني فيديالام، ويذهب كي يعمل لأجل والدها. أنا محبطة قليلاً لأنه سوف يذهب للسكن في بانغالور، لكني لست من النوع الذي يقف عائقاً أمام سعادة ابنه. لولا، هل بإمكانك التصرف بشكل أكون فيه الحماة الأكثر أناقة وجمالاً من الجميع.

وعدت لولا السيدة بالان أنها سوف تكون كذلك. نظرت إليهما مصعوقة، فلولا، عندما سمعت أخبار نيرمالا، قبل عدة أسابيع من

الآن، ركلت إحدى الطاولات، واستخدمت كماً من الألفاظ الواضحة كي تقول بما كانت تفكر في السيدة بيلان وفي كل ذريتها. مع ذلك، في هذه اللحظة، وبتهذيب شديد، عرضت على السيدة بالان أن تجلس على أفضل كنبة في الصالون. عرفت عندها سر نجاح لولا ألا وهو قدرتها على الاحتفاظ بمسافة واضحة بين العمل والمشاعر.

- لا ليس هنا، قالت السيدة بالان. لا أريد أن يرى الجميع ما سوف تقومين به، فلربما طلبن الشيء نفسه. أريد أن يبقى هذا سراً. وأنا على استعداد لدفع سعر أعلى من المعتاد إن لزم الأمر، وحدها مالاتي لها الحق بالتواجد.

نادت لولا عليّ.

- لكن أين تختفي تلك الفتاة؟ سألت السيدة بالان.

للحظة، كنت أفكر بالرفض، لكن عندما صرخت لولا باسمي، كنت مجبرة على اللحاق بها إلى إحدى الحجرات الخاصة، وكانت تلك التي قمت فيها بالعناية لنيرمالا. جاءني إحساس أن الآلهة «بارفاتي» ترسل لي رسالة، فانبثقت فكرة وسط اللبس الذي كان يغلف عقلي.

كانت السيدة بالان في مزاج جيد. قالت لي: إن أنت قمت بعمل جيد، فسوف أعطيك أكبر إكرامية حصلت عليها في حياتك.

عهدت إليّ لولا باللفائف البنية اللون، بينما ذهبت هي لتأتي بالمراهم ذات الخاصية المتازة والمكلفة. قمت بتمشيط شعر السيدة بالان بيدين مرتجفتين. لكن في الوقت الذي مزجت فيه المواد الكيميائية للتجعيد، لم تعد يداي ترتجفان أبدا.

- رائحة غريبة، أشارت السيدة بالان، هل تستعملين مادة جديدة؟

– نعم يا سيدتي، أجبت وأن أضع الخليط بعناية. يبدو لي أنها مناسبة خاصة.

– هذا يحرق.

– الجمال يستحق ذلك.

– انتبهي، لا أريد أن تبدو هيئتي مشعثة، كواحدة من هؤلاء السكان الأصليين لجزر آندامان.

– هذا غير ممكن، طمأنتها قائلة.

في اللحظة التي وضعتْ فيها لولا قدميها في الغرفة، عرفتْ بأن هناك شيئاً ما غير طبيعي يجري. رأيت ذلك من أنفها المتغضن. أتراها ستأمرني بأن أسحب لون شعر السيدة بالان وأغسله فوراً؟

قومي بطلاء أظافر قدمي السيدة ريثما يأخذ التجعيد وقته.

وانهمكت بتنظيف وجه السيدة بالان بمقشر للبشرة ذي أهمية خاصة باهظة الثمن.

بدأ شعر السيدة بالان بالتساقط بمجرد أن بدأت بسكب الماء فوقه. عند انتهائي من غسله، كانت خصل كاملة منه تسد بالوعة المغسلة. جعل العويل الذي أطلقته بمجرد أن فتحت عينيها جعل الفتيات يهرعن إلى الغرفة الخاصة، كما كل الزبونات اللواتي لم يكن رأسهن تحت مجفف الشعر. أطلقت العديد منهن صرخات شفقة، فقد كانت نصف جمجمتها ناعمة ومحمّرة كمؤخرة طفل صغير. تجشأت السيدة بالان بشتائم محاولة خنقي واقتلاع عينيّ. أمرت لولا، التي حاولت دون فائدة تهدئتها، فتاتين بإخراجي من الصالون. وأنا أخرج سمعتها تقول بأني سوف لن أضع قدمي في هذا الصالون مرة أخرى. ولا حتى في أي صالون تجميل آخر في كوامباتور.

أمضيت الليل وأنا مستلقية في العتمة، وعيناي مفتوحتان على وسعهما دون أن أتمكن من النوم. كنت أفتقد بشدة الفتيات والصالون. ما العمل الآن؟ أصبحت مبعدة عن المهنة الوحيدة التي كنت أتقنها وأحبها. يجب عليّ الآن بالتأكيد إيجاد زوج دون مساعدة لولا، ودون عرضها «بالعناية الماسية». والأسوأ أيضاً، خشيتي من أكون قد وضعت لولا، التي فهمت تماماً أحلامي، بوضع حساس جداً.

لم أخرج من غرفتي خلال صباح اليوم التالي، متذرعة بالمرض، دون أن أقول لوالديّ أني قد رُفدت من عملي. لكن خلال لحظة، شعرت أني أختنق. يجب علي الذهاب إلى الصالون حتى وإن كانت لولا مجنونة من الغضب. لا بد وأنها سوف ترميني خارجاً حتى قبل أن تسمع اعتذاراتي، لكن مع ذلك عليّ أن أحاول. يجب أن أقول لها بأني كنت أشعر أني مسؤولة عن قدر نيرمالا، وكُلفت بواجب الانتقام، بالرغم من الكارما السيئة التي كنت أخاطر بأن تسقط فوق رأسي.

قمت بدورة كي أدخل من الباب الخلفي، ذاك الذي كان مخصصاً لعاملات التنظيف. لم أكن قد مررت من هنا قط. استغرقت بعض الوقت كي أجد الباب الصحيح في هذا الزقاق القذر. لم يكن هناك ما يميزه عن غيره، فالرائحة المثيرة للغثيان التي تفوح من أكياس الزبالة المتكدسة، والمستندة على الحائط قرب المجارير في الهواء الطلق، كانت رمزاً للمنعطف الذي اتخذته حياتي.

أُصيبت الفتاة التي فتحت لي الباب بالضيق عند رؤيتي. قلت لها أني سأنتظر في الخارج، فهل باستطاعتها مناداة لولا؟

وأنا واقفة في الشارع، وخلال ما بدا لي زمن أبدي، تساءلت إن كانت لولا ستأتي. أخيراً، فتحت لولا الباب بهيئة صارمة، ويداها على وركيها. همست لها بأسفي واعتذاري وأنا خافضة الرأس. لكن وسط خطبتي، تناهى إلى سمعي صوت غريب صادر من الحنجرة. أتراه الغضب قد أفقد لولا وسائلها؟ أو ربما لولا المحاربة، تلك التي كنت معجبة بها غرقت في البكاء؟

ربما هددتها السيدة بالان بملاحقتها قضائياً، أو ربما كانت ستفقد صالونها الرائع.

عندما تجرأت أخيراً ورفعت بصري، رأيتها تكمم فمها بيدها، وتحاول كبت ضحكتها.

هل رأيت رأسها؟ تلفظّت بين شهقتين، هل رأيت كيف بدت؟ كان هذا أمراً لا يقدر بثمن.

وانفجرنا نحن الاثنتين في ضحك هستيري.

عندما بحت لها بمخاوفي بشأن صالون التجميل، أبعدت لولا هذه المخاوف بإشارة من يدها.

- لن تجرؤ على ذلك. لدي الكثير من الزبونات من ذوات النفوذ، وأعرف أشياء كثيرة هوجاء قامت بالتحدث بها هي نفسها في هذا المكان. فإذا ما قررت أن أفتح فمي، فسوف لن تُدعى بعد الآن لأي مناسبة، حتى نهاية عمرها. ثم هي بحاجة إليّ، فبدون عنايتي سوف تبدو أكبر بخمسة عشر عاماً بظرف شهر. كنت مجبرة على طردك، أنت تملكين ميزة اختصاصية تجميل ممتازة. يجب عليك مغادرة كوامباتور فوراً، فأنت لم تعودي بأمان هنا، فالسيدة بالان لا يمكن لها أن تؤذيني، لكن الأمر مختلف تماماً بالنسبة لك. تستطيع بسهولة توكيل أحدهم ليرشك بالأسيد.

أصابني الرعب، فقلت:

– لكن أين سأذهب؟

مدت لولا يدها إلى جيب سترتها اليمين، وأخذت مغلّفاً ومحفظة نقود. كنت منذهلة، كانت تعرف أني سآتي لرؤيتها، حتى قبل أن أعرف أنا.

– هذه رسالة توصية لابن أخي الذي يسكن في حيدر أباد، حدثته عنك وقال لي بأنه سيساعدك. يبدو أن بعض القنصليات في الخارج تبحث عن عاملين. وأحد المسؤولين عن التوظيف، هو صديق قديم من أيام المدرسة لابن أخي. لكن المطلوب من المستخدمين أن يتقنوا اللغة الانكليزية.

مدّت إلي بمحفظة النقود.

– خذي المال. لقد وافق ابن أخي وزوجته على إيجارك إحدى الغرف في منزلهما. سوف يجدان لك مدرساً في اللغة الإنكليزية. وعندما تمتلكين ناصية اللغة بشكل جيد وتتقنينها، سيتحدث مع أحد المسؤولين لتوظيفك.

لم أعرف كيف أشكرها، لهذا فقد حضنتها بقوة. طبطبت على ظهري، مرتبكة قليلاً. لم تكن لولا تستسيغ فيض العاطفة.

– تحمّلي ألمك بصبر، قالت لي. ومتى وفرّت المال الكافي، عودي إلى الهند كي تفتحي صالون تجميل خاصاً بك، لكن في مدينة أخرى.

كانت تريد أن تضيف شيئاً ما، لكنها عدلت عن ذلك. عند وصولي إلى نهاية الزقاق التفتت كي أشير لها بإشارة الوداع، لكنها كانت قد اختفت. كانت لولا امرأة عملية، وصالونها التجميل كان دوماً ممتلئاً بالنساء اللواتي ينتظرنها.

10



بعـد حكاية مالاتـي، لم يكن لإيـما أي رغبة في العودة إلى الواقع. شعرت بارتياح كبير في صالون تجميل لولا، وردية، نديّة، ورطبة، بين سوائل غسيل الشعر بالأعشاب، ومراهم الصندل، والأيدي الناعمة والمنشّطة لفتيات لولا. حتى الحرارة التي تنقض عليك ساعة خروجك من الصالون كي تلقى الشارع الضّاج، كانت هدية حقيقية. رغبت أن تعرف ما الذي كانت لولا تريد قوله لمالاتي في النهاية.

أما الآخرون، فكانوا يناقشون بحيوية شخصيات الرواية. كانت السيدة بريدشت مذعورة من الخطة الماكيافيلية للسيدة بالان، كيف بإمكان امرأة أن تشعر بكل هذه القسوة تجاه امرأة أخرى؟ بينّت جيانغ أن السيدة بالان لا يمكن أن تكون قد أحبت نيرمالا، وأنها كانت تعتبرها كائناً أدنى مرتبة.

وجدت ليلي أن لولا كانت تبدو فعلاً جذابة، وأنها كان سيطيب لها أن تتجمّل في صالونها، وتتلذذ بسماع كل فضائح المجتمع المخملي. كان صالون التجميل الذي كانت ترتاده والدة ليلي، في شارع فان - نيسيُدار من قبل امرأة تايوانية متحفظة جداً، تضع جهاز تقويم أسنان في فمها. المرة الوحيدة التي دخلت فيها

ليلي إلى الصالون، مسحوبة من والدتها، كي تنتف حاجبيها كانت قبل أحد العروض المسرحية في المدرسة. كادت وقتها أن تموت ضجراً، فالزبونات لا يتكلمن إلا عن أطفالهن، وكيف يبلون بلاءً حسناً في المدرسة، وكيف حصلوا على تلك، وتلك، من الجوائز. هل تذكر مالاتي بعض الخدع التي تعلمتها في الصالون؟ كانت ابتسامة مالاتي تلمع تحت نور مصباح كاميرون، (تساءلت إيما إن كان قد غيّر البطارية، وحاولت أن تتذكر كم بطارية قد بقي في الحقيبة،لكنها لم تتوصل إلى معرفة ذلك، وزيادة على أن التفكير كان يسبب لها ألماً في الرأس) وعدت مالاتي ليلي إن هم خرجوا سالمين من هنا، ستعمل لها تدليكاً لفروة الرأس بزيت الخبيزة، والذي سيعطيها الإحساس أنها أميرة.

لم يأتِ أحد على ذكر الشخصيات التي كانت أكثر ما يشغلهم، حتى سأل طارق، بطريقته الصريحة قائلا:

– لماذا تصرفت نيرمالا بهذا الشكل الغبي وتركت رافي، لأجل هذا المنحرف غوبلان؟

– ربما قدم لها رفاهية، شكّلت لفتاة مثلها، مولودة في قاع المدينة، إغراءً لم تستطع رفضه، أجابت السيدة بريدشت. يجب ألا نلومها.

– لا بد وأنها قد فهمت ذاك المساء، عند غوبلان، أن السيدة بالان سوف لن تدع ابنها أبداً يتزوج من خادمة، تابعت جيانغ. وقالت في نفسها إن هي لم توافق على هذا العرض، فسوف يجدون جثتها في إحدى القنوات.

– كما أنها لا يمكن أن تقول، لا، للسيد غوبلان. أضافت إيما.

تساءلت الطالبة إن لم يقم غوبلان بالاعتداء على نيرمالا. وكونها

منحدرة من مجتمع تشكل فيه العذرية الدليل الرئيسي على عفة المرأة، لم يعد أمامها خيارٌ آخر.

– لكن، ورافي؟ سألت السيدة بريدشت بصوت أكثر قوة.

– لا أعتقد أن رافي كان يعشق نيرمالا، قالت ليلي، لا بد وأنه قد انجذب نحوها لأنها كانت مغايرة للنساء اللواتي اعتاد على معاشرتهن. ربما شعر بالراحة بينه وبين نفسه لبقائها مع غوبلان.

– مثلما هو الحال عندما يكون لديكم صديقة ما عدتم تشعرون نحوها بالمحبة ذاتها، لكنكم غير قادرين على البوح بذلك، وبدأت في الخروج مع أحد آخر.

أضافت مالاتي:

– أعتقد أن رافي رأى نيرمالا مع غوبلان، وقال في نفسه أنها قد تلوثت انطلاقاً من هذه اللحظة، ولم يعد يريدها. لكن رؤيتها مع رجل آخر جرح أناه، لهذا فقد قبل بأول فتاة قدّمتها له أمه.

– ربما كان قلب رافي قد تحطم. تدخل مانغالام قائلاً.

سمعت إيما مالاتي تنفجر بالضحك رغماً عنها، لكن مانغالام تابع:

– ربما شعر أنه قد غُدر به من قبل نيرمالا، بينما هو كان قد خاطر مخاطرة كبيرة بالوقوف في وجه والديه. هذا ليس بالشيء السهل، أن يعرف أنه الابن الوحيد، وأن آمال العائلة كلها معقودة عليه. أعتقد أنه اختار المرأة الأخرى لأنه كان يتعذب.

نهضت مالاتي لتناقش هذا الأمر، لكن كاميرون طلب منهم أن يلتزموا الصمت ويصغوا. في هذا الصمت المفروض عليهم، سمعوا صوت طقطقة، ثم صوت صرير.

– كباخرة منحرفة عن مسارها ترتّج من الأمواج، فوق بحر

ضبابي قالت إيما، وقد ملأها هذا الصوت بأسى غريب.

– ما هذا؟ سألت السيدة بريدشت بصوت مرعوب.

– إنه السقف، من الجهة الأخرى للغرفة، لا يمكن لكم رؤيته بسبب انفصاله عن هذا الجانب. أجاب كاميرون. إنه على وشك السقوط، على الأقل جزء منه. لا تخافوا، فالسقف الذي فوق رؤوسنا... ـ أشار بمصباحه نحو السقف ـ هذا الجزء، يبدو متماسكاً بما فيه الكفاية. لكن يجب أن يكون لدينا خطة ما في حال انهار هذا الجزء أيضاً. في الأحوال الطبيعية، كنت سأطلب منكم أن تأخذوا أمكنتكم تحت الطاولات، حتى وإن لم يكن هناك متسع للجميع. لكن منسوب الماء قد ارتفع كثيراً، وسوف تبتّلون جميعاً، والطقس بارد جداً والبقاء بثياب مبللة أمرٌ غير محتمل.

أخفض نور المصباح، فرأت إيما أن الماء قد وصل إلى حافة الجارور الأول لطاولة المكتب وكان سطحه معتماً. انتابتها رعشة، لقد كان كاميرون محقاً: البرد يزداد شيئاً فشيئاً.

قال لهم الجندي:

– احتفظوا ببناطيلكم مقلوبة، وبتنانيركم مرفوعة، كي تكونوا جاهزين للقفز عن الطاولات عند اللزوم. يبقى الحل الأفضل بالنسبة لنا أن نقف عند فُتحَة الأبواب. ليس ذاك الباب الذي يقود نحو الصالون، فهو قريب جداً من السقف المتضرر. يبقى أمامنا في هذه الحالة بابان، ذاك الذي لمكتب السيد مانغالام، وباب الحمام. يتوجب علينا أن نقف متراصّين جميعاً تحتهما. لكن، هذا لن يفيدنا في شيء، الوقوف وانتظار السقف حتى ينهار. من المستحسن سماع الحكاية التالية.

لم يدل السيد بريدشت برأيه بخصوص رافي ونيرمالا. فبعد أن حكى قصته، شعر أنه قد تحرّر بشكل غريب. لكن هذا الإحساس خفّت حدته في لحظتها، وأصبح مكتئباً أكثر من أي وقت مضى. أمُل بتعليق من زوجته، بكلمة تعترف فيها بألم الصبي الذي كان. لكنها لم تقل شيئاً. زادت خيبة الألم من رغبته في التدخين. شعر داخل قلبه، كل شيء قد أخذ بالارتعاش، وسوف لن يتأخر عن التحطم. كان شبه متأكد أن ليس هناك تهريب للغاز، وبضع نفخات من السيجارة خلف باب الحمام المغلق جيداً سوف لن تضر بشيء، لن يبقى له إلا أن يعطر الجو بعدها بالمعطّر. لا أحد سيعرف شيئاً. سوف يذهب إلى الحمام بمجرد أن ينتهي هذا النقاش الممل.

– ألا قولي لنا، لماذا اخترت أن تقصي علينا هذه الحكاية، سألت إيما.

– لأن تلك كانت المرة الوحيدة في حياتي التي أظهرت فيها شجاعتي، أجابت مالاتي، بالرغم من أن الأمر كلفني غالياً جداً. لا أعتقد أني سأكون قادرة على فعل ذلك اليوم. أنا جد أنانية. لهذا، فهذه الحكاية تعني الكثير لي.

عند سماعها تتحدث عن أنانيتها، رفع مانغالام نظره نحوها. لم يكن ينتظر منها هذا الاعتراف.

– هل يرغب أحد منكم الذهاب إلى المرحاض؟ استعلم السيد بريدشت قائلاً.

كان الجميع ينظر إلى الماء ويقيس مقدار حاجته أمام مواجهة الماء والبرد. انتظر السيد بريدشت محاولاً كبت هياجه المتعاظم. لم

يكن يريد الذهاب إلى الحمام إن كان شخص آخر يريد الذهاب. لم يكن هناك إلا مصباح جيب واحد ويجب عليهم الانتظار أمام باب الحمام كي يعودوا إلى مكانهم. في هذه الحالة، سوف يشعر الآخرون بالرائحة وهم ينتظرون.

– حسناً، قال كاميرون. فلنبدأ برواية جديدة.

– أريد أن يكون دور طارق هذه المرة، قالت ليلي.

بدا طارق متفاجئاً، وغير مسرور بالأخص. كانت إيما متأكدة أنه سوف يرفض، لكنه هزّ رأسه، ونحنح كي يرقق حنجرته.

– اعذروني، قال السيد بريدشت وهو ينزل من على الطاولة قبل أن يبدأ طارق. سأعود حالاً.

أخذ المصباح الذي أعطاه له كاميرون، لم يعد هذا المصباح ينشر الكثير من الضوء. كان مرتاحاً لأنه لم يضطر إلى الكذب عليهم بشأن ذهابه إلى الحمام، فهو لا يحب أن يكذب. شعر بنظرات السيدة بريدشت تلاحقه وهو يشق له طريقاً في الماء المثلج. هل خمنّت؟

عندما اعتقد أنه خارج مجال مصباح كاميرون، وضع يده في جيب بنطاله كي يتحسس قداحته. ما إن وصل باب حمام مكتب مانغالام حتى سمع صوت خبطة في الماء، التفت ووجد مانغالام قد نزل من على الطاولة هو أيضاً.

– انتظرني، قال وهو يسرع في اتجاهه.

شعر السيد بريدشت بغضب هائل يجتاحه. فرك إبهامه على حافة القداحة المسنن كما لو أنها مصباح سحري، وحاول أن يجد خطة أخرى. وعندما لم يتوصل إلى ذلك، مدّ بالمصباح إلى مانغالام.

- هيا اذهب أنت أولاً.

لكن مانغالام، الذي كان هو أيضاً لديه خطة، رفض بتهذيب.

- لا، لا، من بعدك، من فضلك.

دخل السيد بريدشت إلى الحمام، وراح يدفع الباب بقوة حتى انغلق أخيراً بشكل جيد بالرغم من الماء. توجب عليه الاحتفاظ ببرودة أعصابه كي لا يضرب الحائط بقبضته. قبض على المغسلة بكلتا يديه وضغط عليها بشدة. هل يستطيع أن يجرب حظه على أمل ألا يشم مانغالام رائحة الدخان عندما يدخل بعده؟ كلا، فلا معطر جوّ بإمكانه إخفاء رائحة التبغ بسرعة. هل سيقول مانغالام للجندي؟ كان هذا احتمالاً وارداً جداً. فقد بدا الموظف أنه يحمل إعجاباً بلا حدود للجندي. على كل حال، ما الذي باستطاعة كاميرون أن يفعله معه؟ ما الذي باستطاعة الآخرين فعله؟

«لا شيء»، أجاب السيد بريدشت أمام انعكاس صورته الشاحب في المرآة، ففي أسوأ الأحول سيصادرون سجائره، لكنه كان سلفاً قد خبأ البعض منها. إن أخذوا قداحته، فسوف يسرق علبة كبريت. أخرج سيجارة ووضعها بين شفتيه بيدين مرتجفتين من الرغبة، وشعر تقريباً بطعم الدخان في فمه.

انتفض لحظة سمع قرع الباب، وصوت مانغالام، وآخرين غيره. لم تكن كلماتهم واضحة، لكنه شعر بالإلحاح في النبرة، وأحدهم يطرق الباب بضربات متلاحقة.

أطلق السيد بريدشت شتيمة وأسرع في وضع السيجارة في جيبه. رش وجهه بالماء، وأنفاسه تتقطع من البرد؟ وفتح الباب.

كان كاميرون واقفاً هنا، يده على قبضة الباب.

– هل كل شيء على ما يرام؟ قال مانغالام أنه ناداك عدة مرات لكنك لم تجب.

– أنا بخير. أجاب السيد بريدشت.

كان يعرف أنه قد تحدث بلهجة جافة قليلاً، لكنه لم يستطع منع نفسه من ذلك. كم من الوقت أمضى هنا؟ نظر كاميرون لوجه السيد بريدشت المبلل، ومرّ هذا الأخير بين الجندي والموظف. في العتمة، سمع كاميرون يقول لمانغالام: ـ يجب أن نصرّ على ألا يغلق الأشخاص الباب وراءهم بالمفتاح عندما سيدخلون الحمام.

«هكذا إذن، تصرّ» فكر السيد بريدشت، «سوف أعمل ما أريد». شعر وكأن رائحة طين تفوح من حوله. هل يسبب له نقص النيكوتين الدوار؟ اصطدم من سرعته بشيء ما قاس، من معدن. اخترق الألم جوفه. ترّنح، لكن لحسن الحظ أمسكه أحدهم من ذراعه:

– انتبه يا صديقي، قال له كاميرون. واجهنا ما يكفي من مشاكل اليوم.

ألم يقل هو نفسه منذ عدة ساعات الكلمات نفسها لزوجته؟ محرجاً، صعد السيد بريدشت على الطاولة. كان عليه ألا يشعر بالخجل أكثر من ذلك، لأنه قرر متى انشغل الجميع بالطعام، سيعود مرة أخرى ليجرب حظه.

11



عندما اتصلت بي آمي على الهاتف المحمول، كنت جالساً على المكسر مع علي وجيهانكير، ننظر إلى الفتيات وهن يتجولن بثياب السباحة. كان هذا في أول يوم جميل منذ عدة أسابيع، وكانت الشمس مشرقة والفتيات يستفدن منها بشكل كلي. كي أكون صادقاً، لم أعد أستسيغ جلسات التعليق والتلطيش، منذ أن أصبحنا أنا وفرح قريبين من بعضنا. لكني لم أجازف في التحدث بهذا الأمر فقد سبق لأصدقائي واستهزؤوا مني لأجل هذا الموضوع... لكن هذا لا يقارن بالاستهزاء الذي كنت سألقاه منهم إن أنا خرجت مع «شقراء» أو فتاة غير مسلمة.

كانت فرح ابنة إحدى أفضل صديقات أمي، في الهند. قضت فصلاً دراسياً واحداً معنا في العام الماضي. سوف أحكي لكم المزيد عنها لاحقاً.

ونحن على المكسر، كنا نقيّم الفتيات من واحد إلى عشرة، وعلامة العشرة تعني الأكثر إثارة بينهن. والفتاة الأكثر إثارة بالنسبة لنا تعني تلك التي سوف تنتهي في الدائرة الأكثر اشتعالاً في الجحيم. كانت القواعد هي كالتالي: مساحة أجسادهن العارية، كمية تبرجهن، حجم الصوت الجهوري لضحكاتهن، ودرجة وضوح المشاعر العلنية التي كن يقبلن بها حيال الرجال. كنت أشعر بالقليل من الذنب

بقيامي بهذا العمل، فلوٍ علمت فرح كيف كنت أقضي فترة ظهيرتي، لكانت استشاطت غضباً. كانت جد متعلقة بالمبادئ الأساسية للدين، لكن في الوقت نفسه كانت تؤمن بالقول المأثورة «عش واترك غيرك يعش»، ولا تحب أن نقوم بنقد الفتيات بشكل فظ. كنت أعزي نفسي بالقول أن الشقراوات اللواتي كنت أصطحبهن كن أكثر جلفة.

لم أعد أذكر الفترة التي توقفت فيها عن ملاحقة الفتيات وبدأت أفكر بفرح وحدها. بقينا على اتصال برسائل الكترونية منذ رحيلها إلى الهند في العام السابق. كانت صياغتها جيدة، على العكس تماماً مني. كانت جملها تعطي الحياة لأقل تفصيل في الحياة: لوحات إعلانات الفن الهندي المعلّقة على جدران غرفتها التي تتشارك بها مع أختها، كشك نظام الدين الذي يبيع أفضل كباب في دلهي، مجادلتها في المداخلة الجامعية حين قدّمت حججاً ضد السد الذي سيقام على نارمادا وأحرزت من ورائه نصراً، زيارة جدتها التي كانت تعيش في قرية في الريف ما زالوا يضخون الماء من البئر. كان يجب عليَّ الإقرار أن الهند التي كانت تصفها في رسائلها كانت مثيرة للاهتمام.

كان أخ فرح سيتزوج خلال بضعة أشهر، دعتنا والدتها لحضور احتفال الزواج والبقاء قدر ما نشاء. كانت آمي تتلهف للذهاب، مضى زمن لم تحضر فيه عرساً هندياً تقليدياً. وافقت على الذهاب معها دون أن يبدو عليّ الاهتياج لفكرة لقائي بفرح من جديد (وأراها وهي ترتدي «زاردوزي لينغا» التي كانت قد اشترته لأجل حفل الزفاف)[39]. كان لدى آمي دوماً نزعة لاستنتاج خلاصات مبكرة، تتشارك فيها مع باقي الناس.

---

[39] لباس تقليدي مكون من تنورة طويلة، وصدار، ووشاح طويل.

حاولت آمي أن تقنع آبا ليصطحبنا هو الآخر. قالت له بأن مديره المساعد حنيف أهل للثقة، وأنه، على كل حال، الأعمال تسير بشكل بطيء. وكانت محقة في ذلك. فشركة الحراسة، «جلال» التي أنشأها والدي من لا شيء تقريباً، وحولها إلى شركة مزدهرة، فقدت أفضل زبائنها منذ أحداث الحادي عشر من أيلول... فالناس، حتى وإن لم يكن يجرؤ أحد على قول هذا بوضوح، ما عادوا يرتاحون لفكرة قيام رجال مسلمين بأعمال التنظيف، وبالتجول في مكاتبهم في غيابهم، حتى وإن كانوا يقومون بالخدمة منذ عشر سنوات، فهذا لم يغير من المشكلة في شيء. كان آبا فخور جداً ـ أو مهاناً جداً ـ كي يحاول أن يجعل زبائنه يغيرون رأيهم.

كنت إذاً جالساً على المكسر عندما رن الهاتف. رأيت أنه اتصال من آمي فلم أجب. فهذا كان تقريباً موعد درس الرياضيات، وكان الأستاذ يحذف علامات من الطالب الذي يصل متأخراً، ولم أكن أسمح لنفسي أن يُحذف من درجاتي. كانت آمي تتصل بي يومياً تقريباً، كي تطلب مني بشكل عام، أن أتوقف عند البقال كي أشتري لها هذا أو ذاك أثناء عودتي إلى المنزل. قلت في نفسي أن ليس عليها إلا أن تكتب رسالة لتخبرني بالذي تريده.

لكن آمي لم تترك رسالة، إنما كانت تغلق الخط وتعاود للاتصال، وهذا ما لم يكن من عادتها، لهذا فقد فتحت الخط. كانت آمي تبكي بحرقة، ولم أفهم شيئاً مما كانت تقول. دخل أربعة رجال إلى مكتب جلال هذا الصباح وأخذوا حنيف وآبا. لم يتركوا لهم مجالاً حتى لإجراء اتصال. موزا، البقال الذي على الناصية، رأى كل شيء، واتصل بآمي كي يعلمها بالأمر. قال لها

أن الرجال كانوا يرتدون بزّة، ولديهم شاحنة صغيرة سوداء، اثنان منهما كانا أبيضي البشرة، وآخران أفرو - أمريكيين. جرى كل شيء بسرعة، بشكل لم يستطع فيه موزا تسجيل رقم لوحة السيارة. شعر بخوف فظيع. كلا، هم لم يؤذوا حنيف وآبا، على الأقل بالنسبة لما رآه، لكنهم كانوا يمسكونهما بقوة من ذراعيهما.

يجب ألا أرتعب (كانت آمي قد اضطربت بما فيه الكفاية) لكن شعرت بأني قد فُرّغت من الداخل. كنا قد سمعنا في السابق بحوادث من هذا النوع. كان موظفو دولة، غالباً من إف بي آي، يلقون القبض على بعض من جماعتنا. أحياناً يكون هناك أسباب وجيهة، لكن في أغلب الأحيان لم يكن أي سبب - على كل حال لم يكونوا يشرحون الأمر للموقوفين - كان يُطلق سراح البعض بعد عدة أيام، بينما بقي آخرون لمدة أطول بكثير من ذلك.حتى أننا كنا نعرف رجالاً رُحّلوا عن البلاد، هم وعائلاتهم.

حكيت لأصدقائي ما حدث، وعرض «علي» فوراً مرافقتي. لم أكن في حالة تسمح لي بالقيادة. قادني علي إلى البيت، حيث أخذنا آمي وذهبنا إلى مكتب جلال. كان موزا في انتظارنا لكنه لم يكن يملك معلومات إضافية ليخبرها لنا. دخلنا المكتب، وفتشنا في كل الغرف، كان كل شيء في مكانه (كان والدي رجلاً منظّماً) لم يكن هناك أي إشارة للكارثة التي جاءت لتقلب حياتنا.

اتصلنا بأصدقائنا، وبمعارف أصدقائنا، كما بكل الأشخاص الذين استطعنا أن نفكر بهم في اللحظة. كان الجميع مصدومين، لكن أياً منهم لم يستطع مساعدتنا. شعرت أن جزءاً منهم قد خشي توريط نفسه بسبب خوفه من أن يكون مصابنا معدياً، فيصيبهم هم أيضاً. في

النهاية، أمنّوا لنا الاتصال مع محامي مختّص بقضايا من هذا النوع. كانت كلفة أتعابه عالية جداً، لكن كان هذا آخر همّنا. لم يتصل بنا آبا، أعطيت للمحامي كل أوراق أبي التي استطعت أن أجدها. جاءت إحدى بنات أعمام آمي لتقيم عندنا لأن آمي أصبحت هستيرية، تدق رأسها بالأرض متوسلة إلى الله أن يعيد إليها زوجها، ولم أكن أعرف ماذا أفعل كي أجعلها تكف عن ذلك. ربما كان للمحامي أصدقاء بمراكز عليا، أو ربما الأشخاص الذين أوقفوا أبي أدركوا بأنه كان بريئاً (بمعزل عن نوع التهمة الموجهة إليه) أو ربما أيضاً صلوات آمي قد أتت بمفعولها. مهما يكن، فخلال ثلاثة أيام أعادوا آبي إلى مكتب جلال، دون أي شرح زائد كما عندما ألقوا القبض عليه. رآه موزا جالساً على الرصيف أمام باب المكتب المقفول، فاتصل بنا. خلال الوقت الذي استغرقه وصولنا، أخذه موزا لدكان الخبّاز، وساعده في غسل وجهه، وأعطاه كأساً من الماء المنعش. لكن بقي آبا واقفاً، والكأس في يده، وهو جامدٌ. كنت أخشى أن تنهار آمي، لكن بالرغم من الشحوب الشديد الذي علا وجهها، استمدت من مخزونها قوة لم أكن أعرف أنها تملكها.

في اليوم التالي بقيت قرب آبا، تطوف بيدها على كل قطعة من جسمه كي تتأكد أنه ليس مجروحاً. تحكي له عن الزمن القديم الذي غازلها فيه، عن زواجهما، عن أول منزل عاشا فيه، وعن دعاباتي وأنا طفل. غنّت له عدّيات[40]، أقسمت على الإخلاص له والعناية به، قالت له أنه ليس مضطراً للحديث إن لم يكن له رغبة في ذلك، وأنه، إن فضّل نسيان ما حدث معه في الأيام الأخيرة،

---

[40] لتعيين على من يقع عليه الدور.

فلسوف تساعده. لا أدري ما الذي يمكن لطبيب نفساني غربي أن يقول في هذا النهج من العلاج، لكن الأمر انتهى بأن استجاب والدي للدفق المستمر لصوت آمي الرقيق.

بعد عدة أيام، أخذ يتجول في البيت قائلاً أنه لا يحتاج إلى مربية أطفال، حتى أنه في المساء، قام بمساعدة آمي بلف «الشاباتي»[41] كما كان يفعل في السابق. وهكذا، اعتقدنا أننا قد تجاوزنا المرحلة الأكثر سوءاً.

ثم، لم يلبث أن أصابته نوبة.

حدث هذا في الوقت الذي كان فيه وحده في المنزل يشاهد التلفاز. عندما وجدته آمي كان منزلقاً على الأرض، وفاقد الوعي. خلال الوقت الذي استغرقه وصول الإسعاف، كان جزء من دماغه قد توقف عن الارتواء. وعندما أعدناه إلى المنزل بعد يوم طويل وشاق في المستشفى، كلّفنا مبلغاً كبيراً من المال، كان لم يعد يستطيع تحريك ذراعه وقدمه اليسرى.

عدنا أنا وآمي لرؤية المحامي، فنصحنا أن نتجاهل الأمر. فهو لم يحمل أي علامة على تعذيب جسدي، لا يوجد حتى أي أثر لتبليغ رسمي بتوقيفه. ما العمل؟ ممن نطلب تصليح ما جرى؟لم يكن من المستحسن أن تكون مسلماً في هذه الأيام. من الأفضل عدم إثارة المشاكل، إضافة، بأننا خرجنا منها بأفضل مما حدث مع الآخرين. حنيف مثلاً، لم يرجع أبداً، ولا أحد يعرف مكانه، ولا حتى إن كان لم يزل على قيد الحياة.

قال المحامي لأمي:

---

[41] نوع من الخبز، يُرجع منشأه إلى البنجاب، يُخبز من الجهتين.

يا أختي، أقول لك ذلك كمسلم وليس كمحام، ماذا يفيدنا أن نبرهن لهم أننا على صواب وهو على خطأ؟ بإمكاني أخذ مالكم والسير في هذه القضية كما فعلت مع عائلات أخرى، لكن الدعاوى تمتد لزمن لا نعرف نهايته. خذي زوجك وابنك، إن لم يزل لديكم أصدقاء أو عائلة في الهند، وعودوا للعيش هناك. لم يزل للدولار قيمة كبيرة في الهند، وباستطاعتكم التعاقد مع خدم ليساعدوك في العناية بزوجك. خاصة، أنكم لا تلفتون الانتباه إليكم وأنتم بين آلاف الأشخاص الذين يشبهونكم. بينما هنا، أنتم تحت الرادار. ربما حتى في هذه اللحظة ـ وقام بإشارة من ذقنه باتجاه لحيتي ـ يراقبون ابنك.

هزّ رأسه بطريقة أجفلت آمي.

عند عودتنا إلى المنزل، اتصلت آمي بأصدقائها المقربين ـ شلّة من الأشخاص الذين كنت أناديهم بأخوالي وأعمامي، خالاتي وأخوالي، في طفولتي ـ وسألتهم رأيهم. والدي، الذي كان دوماً مستقلاً، كان ممدداً من الآن وصاعداً في سريره، عاجزاً عن تدبير أمره وحده، بينما كنا على وشك تقرير مصيره، دون وجوده. وهذا ما كسر لي قلبي.

ركّز الاجتماع على الجدّال، رفع الأصوات بالشتائم، ثم، بالبكاء وبالنصائح التقليدية. لكن في النهاية، وافق أصدقاؤنا القساة أنه نظراً للوضع الحالي، لم تكن العودة للعيش في الهند بالفكرة السيئة. فأنا ووالدتي لم نكن نستطيع إدارة شركة جلال، فخبر توقيف والدي دفع بعض الزبائن إلى إلغاء عقودهم. وبرغم من أن التأمين الطبي يغطي قيمة كبيرة من العلاج، لكن كان هناك الكثير من المصاريف المتوجبة علينا. لم أكن أعمل، وحتى بعد حصولي

على إجازتي، كانت فرصي قليلة في الحصول على عمل ما فوراً .لم يعد لدينا ما يكفي من النقود لمتابعة العيش هنا.

– لا تتوقعي أن يكون الأمر سهلاً، قال أصدقاء آمي لها. فأن تقضي الإجازة في الهند كمهاجرة غنية، بجيوب ملأى بالدولارات، شيء، أما العيش بعائدات محدودة، والانسجام مع مستخدمين يأتون متى يروق لهم، وتعلمين كيف تدفعين مالاً للترضية لأشخاص طيبين في اللحظة المناسبة، شيء آخر تماماً.

لم يعرف أنسبائي ماذا يقولون لي. اعتقدوا أنني غير قادر على العيش في الهند بعد أن ترعرعت هنا، وكان عندي الشك ذاته. بمعزل عن الثقافات المغايرة، كان هناك مسألة أخرى: هنا، كان وطني، كنت أمريكياً، وفكرة أن أغادر بلدي طيّرت صوابي. لكن إن أنا ذهبت إلى الهند، سأستطيع إعالة والديّ. ألقت آمي نحوي نظرة ملؤها الأمل. ستكون فرح سعيدة هي الأخرى. شنّت رغباتي وواجباتي حرباً دون هوادة، وجعلت النوم يطير من عينيّ.

اعتقدت إيما أنها سمعت صوتاً فوق رأسها، كما لو أن أحدهم يحرك سريراً قديماً يصّر. تشنجّت ونظرت حولها، لكن الجميع كان مأخوذاً بقصة طارق. قالت في نفسها بلهجة جازمة: «هذا من نسج خيالي» أرغمت نفسها على عدم الانتباه للهمهمة القادمة من السقف، وعادت لتنتقل إلى حكاية الشاب، وإلى مجريات الأحداث المؤلمة المحتومة.

خلال أسابيع، عرضت آمي منزلنا للبيع، متجاهلة نصيحتي بعدم الاستعجال، وطلبت من والدة فرح أن تبحث لنا عن منزل

على مستوى واحد، وقريب من منزلها. بعد تبادل هذا الحديث على الهاتف، أغلقت والدتي على نفسها غرفة الحمام، وخرجت منه محمّرة العينين. كان أمراً قاسياً بالنسبة لي، رؤية المنزل الذي فيه ترعرت يُعرض للبيع، ويُسلّم إلى غرباء هكذا بكل بساطة، فلا يترددون في التجول به وانتقاده، لكن هذا الأمر كان أكثر مشقة على آمي. الاعتناء بوالدي كل اليوم ـ تساعده في النهوض والنوم في سريره، تصطحبه إلى المرحاض، وتجلسه على الكنبة ـ كل هذا جعلها تدفع ضريبة غالية من جسدها. لم يكن والدي بدوره يُسهل عليها هذه المهمّة. سابقاً، كان يتحلى بطبع سهل، بينما تحول الآن إلى رجل نزق بشكل فظيع. كان لدي أنا الآخر مشاكلي: أينما ذهبت كان الناس يتفرسون بي، اعتقدت مرة أو مرتين أن هناك شاحنة صغيرة سوداء تتبعني حتى الحي.

أرسلت رسالة إلى فرح، وأجابتني على الفور. كانت قلقة جداً، وشجعتني على الانتقال. سوف تعمل بشكل أستطيع فيه التأقلم بسهولة في الهند. لكن أجوبتها لم تحمل لي الراحة التي أملت بها. تعيش فرح في الطرف الآخر من العالم، ولا تستطيع فهم خيباتي. كان الشخص الوحيد الذي أستطيع التحدث معه بكل هذه الأمور هو علي. كان علي يصغي إلى شكواي بصبر. لم يكن ينزعج أبداً، حتى عندما كنت أتداعى وأنهار بين يديه. كان يقول لي إن في الثقافة الشرقية يحق للرجال البكاء، وأيضاً، إن الهرب إلى الهند هو نوع من الجبن. يجب مساعدة آمي في الاستقرار في الهند، ومن ثم العودة ثانية إلى أميركا. فشعبنا يتلقى معاملة غير عادلة هنا، ويجب علينا الدفاع عنهم. كان يستأجر منزلاً مع شباب آخرين، وبوسعه

استضافتي إن كان لا يزعجني مشاركته الغرفة. كان علي يعمل بدوام جزئي في أحد محال الالكترونيات، وسوف يتحدث مع رئيسه، لربما استطاع تأمين عمل بسيط لي. كان أكثر تفاؤلاً من أقربائي فيما يخص العثور على عمل بعد انتهاء دراستي. «الجماعات الإسلامية تحوي أشخاصاً مهمين»، قال لي، أشخاص يديرون الأمور من وراء الستارة. أشخاص يساعدون أمثالهم.

كنت أحب كثيراً بيت علي بالرغم من أن الحي الذي يقع فيه كان غير مضياف. كان عبارة عن سكن قديم من الطراز الفكتوري، بأسقف عالية، مع فتحات مزجّجة، تطل على حديقة تنتشر فيها أعشاب رديئة بشكل ملفت للنظر. لا شيء فيها يشبه العشب المجزّوز بدقة متناهية للضاحية التي كنت أعيش فيها. كان الصالون ممتلئاً بالمنشورات الدينية، وبلافتات رُسمت باليد.

غطى على صوت طارق قرقعة كبيرة جعلت إيما تنتفض.

– إنه ينهار! صرخ كاميرون. ليتجه الجميع نحو الأبواب.

بدأت فوضى الاستعدادات. أدركت إيما أن كاميرون لم يحدد لهم من الذي يقف تحت إطار الباب، وهذه الفكرة سببت لها رعباً أشد من فكرة السقف وهو ينهار فوقهم. لا بد وأن الربو عند الجندي قد تفاقم، وربما يكون هذا في طريقه نحو دماغه.

وجدت إيما نفسها تحت إطار باب حمام مانغالام مع مالاتي وطارق، والماء يلامس أعلى كواحلهم وقد كان أكثر برودة من الوقت الذي مضى. حدثت طقطقة أخرى، اهتزّت الجدران، وانهمر وابل من الجصّ عليهم.

– غطوا رؤوسكم، صرخ كاميرون، لا تتنفسوا في....

غابت كلماته في سعال متتال حاول جاهداً استيعابه.

إنها النهاية، قالت إيما، أمُلت أن تحدث الأمور بسرعة. تشبثت مالاتي بيديها بيد إيما المتعافية، فعانقتها إيما بدورها. كان طارق يصلي، وعيناه مغلقتان، ووجهه مشرق بشكل غريب. أرادت أن تصلي هي الأخرى، لكنها لم تكن تستطيع التفكير بشيء آخر، سوى أنه إذا ما قُدر لها الموت، فسوف تكون سعيدة لاحتضان أحد ما بيديها ساعة قدومه.

لكن، لم تكن هي النهاية، فبعد صوت طقطقة وانكسارت أخرى، وانفجار هزّ الأرض. ساد صمت ثقيل بينهم. بقوا واقفين تحت إطار أبوابهم الخاصة بهم يتنفسون بين أسنانهم. شعرت إيما بطعم طبشور فوق لسانها. راودتها هلوسات، رأت خيطاً من نور يهبط من السماء كما في الأفلام حول الأناجيل، يضيء المكتب الذي كانوا يجلسون عليه منذ دقائق خلت. في أقل من ثانية، سوف يأتي صوت عظيم على شكل العهد القديم. يحمل إليهم دون شك ببشرى سارة.

– أعتقد ذلك. أجاب كاميرون من الطرف الآخر للباب.

كان يبدو من صوته أنه يعاني صعوبة في التنفس، لكنه لم يزل ممسكاً بقوة بمصباح الشعلة.

– أريد ماء، من فضلكم.

هرعت مالاتي نحو الكوة حيث طاسات الماء.

– إنها مليئة بالأوساخ. قالت

أنساها التركيز على قذارة الماء أن تخفض صوتها، فردد الثقب الذي في السقف صدى صوتها: ساخ... ساخ... ساخ...

قامت إيما بشق طريق إليها، فرأت قطعاً كبيرة من الجص تطفو

فوق ماء الطاسات، بعد أن قاموا بجهد للحفاظ عليها. بعض الطاسات التي كانت قد تُركت جانباً، امتلأت بالغبار، لكن لا بد وأن الماء الذي فيها كان نظيفاً، بما أن لها غطاء. أخذت مالاتي إحداها إلى مغسلة الحمام وقامت بفركها وملئها من جديد، وبصوت مرعوب أعلنت أنه لم يعد هناك ماء في الصنبور.

هرع الجميع تحت إطار الباب، فتح مانغالام لنفسه طريقاً في الزحمة ـ على كل حال، كانت هذه غرفة حمامه ـ وقام بضرب الصنبور عدة ضربات، وأداره بكل قوته، بقي الصنبور في يده لكن لم تنزل ولا نقطة ماء. لا بد وأن الأنبوب الذي يغذي الحمام بالماء قد انفجر، ومخزون المياه قد نقص. لم يتبق لهم إلا ما تحويه الطاستان، وأربع زجاجات شبه فارغة، وخزان المرحاض.

عادت إيما إلى الكوة، نظفت إحدى الطاسات بأفضل ما تستطيع بكم قميصها، وغرفت منها الماء بمغرفة وقدّمته إلى كاميرون. لا بد وأن الآخرين كانوا يحاولون التكهن بمقدار الكمية التي قدّمتها له، ويسائلون إن لم يكن بإمكانها أن تقدم إليه كمية أقل. لم تعر إيما الأمر أي أهمية، كانت مستعدة أن تقدم لكاميرون حصتها إن اقتضى الأمر.

بعد أن شرب محتوى الطاسة، تقدم كاميرون وسط ماء الغرفة بحذر ـ من الذي بإمكانه معرفة ما يمكن أن يسقط من السقف ـ وحاول تقييم مساحة الأضرار الحاصلة في الجانب الآخر من الغرفة. اكتشف ثقباً فاغراً فاه في السقف، من هنا كانت تأتي أشعة الشمس. كان يأمل أن يجد منفذاً ما نحو العالم الخارجي. حتى

وإن لم يستطع بلوغه. معرفته بإمكانية رؤية مخرج ما كانت ستتسبب لهم الارتياح. لكن الثقب كان مقسّماً إلى مربعات من طرف إلى آخر بقضبان من حديد، وشعاع وحيد من الشمس نجح في المرور من هذه الفجوة الصغيرة.

حوّل نظره نحو الأرض. كانت مغطاة بالأنقاض والأثاث أيضاً: طاولة مكتب مكسورة إلى قطعتين، عدة كراس، شاشة حاسوب حيث كانت شاشته، ويا للدهشة، سليمة تماماً، خزانة من المعدن مطوية إلى قسمين بشكل حرف ل، وأشياء أخرى كانت من التلف بحيث من الصعب التعرف إليها. تلّمس كاميرون بحرص أكوام الأنقاض. لمست أصابعه ما كان يخشى أن يراه: قطعة من جسم بشري. كانت تلك ذراع امتدت لمساحة قليلة بين كرسيين مدوّلبين. عرف من صلابة الجسم أن الشخص قد مات منذ ساعات. تراجع، وأخذ قلبه يطرق بعنف. مع ذلك، لمتكن تلك أول جثة يلمسها في حياته، بعيداً عن هنا. لكن الربو جعله أكثر حساسية. تحسس جهاز الاستنشاق في جيبه، كان يموت رغبة لاستعماله. لم يبق له إلا جرعة واحدة، ويجب الاحتفاظ بها لأجل حكايته.

قرر كاميرون ألا يقول شيئاً بشأن الجثة.

عادت المجموعة لتستقر على الطاولات بعد تنظيفها كيفما اتفق. كان شعاع الشمس يضيء بعض الوجوه. لم تكن إيما واثقة أن هذا الضوء سيجعلها أفضل حالاً، فهو يبدو قادماً من بعيد ولن يلبث أن يختفي.

لم يعد لطارق الرغبة في متابعة حكايته، لكن ليلي رفضت أن تتركه في حاله.

- لا يمكنك التوقف هنا! من هم هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يعيشون مع علي؟ هل أحببتهم؟ هل كانوا... إرهابيين؟

أجاب طارق:

- لم يكونوا يحكون الكثير عن أنفسهم، كانوا يتحدثون بالأخص عن صفقة يريدون تحضيرها. كانوا يطلبون البيتزا للعشاء، ويرفضون دوماً أن أدفع. ما كنت أحبه أكثر، هو أنهم كانوا يتكاتفون، مرفقاً قرب مرفق، ويهتمون بعضهم ببعض، كالأخوة.

- سوف تعود لتعيش في أميركا إذن؟ ألحّت ليلي عليه. ستذهب لتقيم معهم؟ وفرح؟ ما الذي سيحصل لها إن أنت لم تعد؟

أخفض طارق رأسه، لم يكن لديه جواب.

- عند مقارنة حكايتي مع القصص الأخرى، انتبهت إلى شيء، وهو أن كل واحد يتألم بطريقة أو بأخرى. فجأة، شعرت أني لم أكن أقلّ وحدة الآن.

وضعت ليلي يدها على ذراع طارق

- بإمكانك المجيء للعيش معنا، قالت أمام ذهول إيما، أنت تذكّرني بشقيقي الكبير، هو موجود في حكايتي.

حسن جداً، تدخّل كاميرون قائلاً. فهمت مرادك مثلما فهمها الآخرون. هيا، احكي قصتك.

12



عندما كنت صغيرة جداً على أن أفهم أي أمر كان، كنت أعشق التصرف الذي ينال الإعجاب. هذا ما كان يقوله والداي، وقد حكياها لي بهذا الشكل: «كنت فعلاً طفلة محبوبة، كنت تنشدين عدّيات صينية أمام الضيوف، دون أن يُطلب منك ذلك. والآن، انظري لنفسك، لا ترغبين في الخروج من الغرفة حتى لقول صباح الخير». وكانا يقولان لي أيضاً: «عندما كانت أمك تجهز الرافيولي، كنت تصرّين على مساعدتها، بالرغم من الفوضى العارمة التي تتركينها في المطبخ في كل مرة. والآن، وبعد أن أصبحت كبيرة ومفيدة، ترفضين أن تضعي قدمك في المطبخ، وتشتكين دوماً من رداءة رائحة الطعام الصيني».

أو أيضاً: «هل تذكرين الفستان الذي كنت تحبينه كثيراً عندما كنت في الحضانة، الثوب الوردي المطّبع برسومات أزهار الكرز والشرائط؟ كنت تحبينه كثيراً لدرجة كنت ترفضين أن تلبسي غيره كي تذهبي إلى المدرسة. كان يتوجب علينا أن نغسله كل مساء كي يبقى نظيفاً وجافاً حتى صباح اليوم التالي، واليوم تبقين باللون الأسود. لا شيء غير الأسود. هل تغسلين هذه السترة على الأقل؟ وهذا، هل هذا أحمر شفاه؟».

في الآخر، سوف ترون إلى أين أريد أن أصل.

اعتقد والداي أن تحولي وعبوري من دورة الزنبور اللطيف إلى العدائي، كان عارضاً من عوارض أزمة المراهقة، مصحوباً برفقة سيئة. لكنهم كانوا على خطأ. كل ذلك كان بسبب أخي البكر.

كان والداي يعتقدان أن أخي ولد كامل، وكنت أشاركهم سراً هذا الرأي. كان مهذباً، مطيعاً، جديّاً في دراسته، أغلبية أصدقائه من طلاب المدرسة الصينية. كان يريد أن يصبح عالماً، ويختص في مجال الأبحاث ضد مرض السرطان.

وهو في الثانوية، كتب بحثاً علمياً حصد من ورائه جائزة وطنية. كان والداي يفضلان أن يصبح مارك طبيباً، أو رجل أعمال (كان والدي، إلى جانب المخازن الضخمة التي ورثها، كان يملك شركة استيراد ـ وتصدير يديرها بالتعاون مع والدتي. كانا فخورين جداً بهذه المؤسسة، ويأملان أن يتابع مارك العمل فيها) لكنهما تفهّما الأمر، وأبديا إعجابهما بالطموح الإنساني الذي أبداه مارك، وتصرفا بطريقة تجعل ضيفهما يفهم مرادهما ليتابع ما يريدان قوله. سمعتهما في إحدى أمسيات الأعياد يقولان: «على كل حال، كان يستطيع مارك الحصول على إجازة في الطب ويكسب الكثير من المال، لكن قضاء عمره في البحث عن علاج كي ينقذ الأشخاص الفقراء الذين يعانون... آه!». كانا يتوقفان هنا، مفعمين بالمشاعر، ملزمين ضيفهما على المتابعة بنفسه: «... إنها فعلاً لتضحية حقيقية بالنفس!».

– وهل به أذكّرك أنا؟ سأل طارق.

تابعت ليلي قائلة: كنت أعلم تماماً أنه لا يفيدني في شيء أن أكون لطيفة لجذب انتباه والديّ. حاولت في فترة معينة أن أكره

مارك. لكني كنت عاجزة عن ذلك. فقد كان أخي بمجرد أن يسمح له الوقت (وهذا ما كان أمراً نادراً، مع كل تلك الواجبات، والدروس المسائية، ودروس الموسيقا، ومشاريعه الإنسانية) يسمح لي بدخول غرفته كي ألعب بأوراق اللعب خاصته «دراكون بولز زد»[42]، كنت أراه يلعب بألعاب الفيديو «فارس الجمهورية القديمة»[43]، وأعطيه بعض النصائح التي كان يعمل بها أحياناً. عندما كنت أصادف صعوبة ما في أحد واجباتي، كان يأتي لمساعدتي، لكن شرحه كان في العموم يتجاوز فهمي بكثير. كان يقضي أسابيع بحالها وهو منهمك في تجاربه العلمية التي كانت تبهرني: أنظمة شمسية معقدة، تنجز دوراناً بسرعات مختلفة، أو طرق معقدة بأنابيب مستدّقة مع مقطرٍ يسمح بفصل الحبر عن الماء. وكان يتركني ألمس كل هذه الأشياء. فكيف كان باستطاعتي إذن أن أكرهه؟

لكن كان يجب أن أجد حلاً ما لأنتهي مع هذا التمثال البغيض الذي في المنزل. لم أكن فعلاً أنوي بالقيام بعمل مؤذٍ حقيقة، كتلك الفتيات اللواتي كانت العجائز تتحدث عنهن، أولئك اللواتي يهربن من منزلهن ويصبحن حوامل. كلا، كنت أبغي فقط أن أظهر عصياني بشكل كافٍ ليلتفت إليّ والداي. بدأت بتمردات صغيرة لا أهمية تذكر لها: لم أعد أرتب سريري، أرفض الذهاب إلى دروس اللغة الصينية، أصل متأخرة على العشاء وتضطر العائلة كلها لانتظاري، لا أقدّم واجباتي في الوقت اللازم كي يعيدني الأساتذة إلى البيت مع كلمات تشير إلى ضرورة الحصول على توقيع والدي. أنهض متأخرة

---

[42] Dragon ball Z: كرات التنين، وزد تدل على المقاتلين الأخيار.

[43] Chevalier de l'ancienne empire لعبة فيديو عن حرب النجوم.

من النوم كي يفوتني باص المدرسة، لتكون والدتي مجبرة على اصطحابي. كنت سفيهة أثناء الحصص الدرسيّة، وقد أُحلت مرات عديدة إلى مجالس تأديبية، في هذه المجالس أصبح لدي العديد من الرفقاء الصبيان ممن كانوا يدخنون في المراحيض، يتشاجرون، ويشربون شراب السعال كي ينتشوا، ويشوهوا بضربات من المشرط.

حصلت بسرعة على كل الانتباه الذي رغبت به في المنزل. كانت جدتي تبكي وتتحدث عن أرواح شريرة، ووالداي يصرخان، وقد صادرا الآي بود خاصتي، ومنعا عني مصروف الجيب. لكنني مع ذلك لم أحصل على المتعة التي سعيت إليها. كنت أشعر أنني مفرّغة أكثر فأكثر من الداخل. لكن بالمقابل لم يكن باستطاعتي أن أقوم بدورة لأعود تلك الفتاة اللطيفة التي كنتها في السابق. كنت عنيدة جداً، عندئذ بدأت أرتدي الأسود، وجرّبت شراب السعال ـ كانت جدتي غالباً ما تصاب بنزلة بردية، لهذا فقد كان متوفراً دوماً في منزلنا ـ ذات يوم تغيبت عن دروسي كي أذهب إلى صالون الوشم مع صديقتي كيارا، وقمت بثقب قوس حاجبيّ، عندها، أستطيع أن أؤكد لكم، أني حصلت فعلاً على الانتباه المنشود.

ما فتئت الأمور عن الازدياد سوءاً، إلى أن دخل مارك ذات مساء إلى غرفتي. طلبت منه الخروج، اعتقدت أنه جاء كي يقدم لي النصح، كما الآخرين، لكنه لم يغضب. بل عوضاً عن ذلك، أعطاني علبة طويلة وقليلة العرض، وعندما فتحتها رأيت فيها مزماره القديم. تذكرت عندها، بالرغم من عزفه على آلة الكمان حالياً، أنه قد أخذ، ولمدة طويلة، دروساً في العزف على المزمار. أعطاني كومة من كتب النوتات الموسيقية، واقترح علي تعلم العزف.

لنحتفظ بهذا سراً بيننا. قال لي

أعتقد أن فكرة أن يكون لدي سر هي التي فتنتني. كنت أشك أنه لم يفعل ذلك، إلا لعلمه أن هذا الأمر يسعدني.

اتفقنا أن نلتقي بعد المدرسة في متنزه حي آخر غير حيّنا، كي يعطيني درساً في العزف على المزمار. قال لي مارك أن بإمكانه تعليمي المبادئ الأساسية، لكن، بمجرد أن وضعت فمي على فوهته، جاءني الإحساس الأغرب في حياتي، كما لو أني قد سبق وقمت بهذا العمل من قبل. ربما حدث ذلك في حياة أخرى، وإلا، فكيف حدث وأن تعلمت بهذه السرعة.

كنت أعشق لحظات بعد الظهر التي كنا نقضيها معاً في الحديقة، كما النزهة التي نقوم بها في طريق العودة إلى المنزل، والتي كنت أحدثُه فيها عن أخبار المدرسة، وعن أصدقائي (أعني القدماء منهم، بما أني لم أعد أرافقهم كثيراً بعد المدرسة) رفع مارك حاجبيه عندما حدثته عن شراب السعال، لكن قال لي أن تشويه أنفسنا لا يسبب أيٍ راحة لنا، وأن المراهقين الذين يبدؤون في السير بهذا الطريق، غالباً ما يقعون في مشاكل عقلية خطيرة.

خلال وقت قصير، لم يعد لمارك شيء يعلمني إياه، فحمّل مقاطع موسيقية من الانترنيت كي يضعها على جهازه الآي بود، الذي أعاره لي (فجهازي كان لم يزل مصادراً) سوناتات لباخ، هاندل، والقليل من موزارت. أعطاني كتاباً عن حياة المؤلفين البارزين. كنت أقرأ وأعيد قراءة هذا الكتاب حتى ساعة متأخرة من الليل، وغالباً ما يكون ذلك على حساب واجباتي المدرسية. كانت قصتي المفضلة عن حياة بيتهوفن، ليس لأجل موسيقاه (لأني كنت

أفضل عنه باخ) بل لأجل حياته المأساوية. كنت غالباً ما أفكر بالمصاعب التي كان عليه مواجهتها: والدته المحبوبة ماتت باكراً، والده المدمن على الكحول، ابن أخيه المتوفى الذي كان مسؤولاً عنه، والذي كان يسبب له المشاكل. لم يكن أحد في عائلته يقدّره حق قدره. كنت أعشق بالأخص هذا الإصرار الذي يتحلى به، وهو الذي فهم، في وقت مبكر من مهنته، أنه سيصبح أصماً.

لو كنت مكانه لرميت نفسي في نهر الدانوب، بينما تابع هو تأليف الموسيقا.

كنت أذهب يومياً إلى المتنزه بعد المدرسة، مصطحبة مزماري وآي بود مارك، أجلس على مقعد خلف دغل صغير، أصغي للسوناتات والسيمفونيات، وأتدرب على عزفها وحيدة، حتى هبوط الليل.

كان يحدث أن يتوقف بعض الصبيان كي ينظروا إليّ، ويسخروا مني، لكن كنت أعرف ما سأقوله لهم كي أجعلهم يذهبون.

لم تتحسن درجاتي في المدرسة، ووالداي كانا يوبخانني بسبب عودتي المتأخرة إلى المنزل، وبقيت أرتدي اللون الأسود، لكن شيئاً ما كان قد تغير داخلي. لم أعد أرغب في هدر طاقتي لأكون شخصاً شريراً وكريهاً.

بعد ظهر أحد الأيام، عندما شعرت أني جاهزة، دعوت مارك لملاقاتي في المتنزه، وعزفت أمامه السوناتات التي حفظتها، إلى جانب بعض الألحان التي قمت بتأليفها بنفسي. انتظرت منه أن يصفق لي في النهاية، لكنه بقي واقفاً هنا، جامداً، ينظر إليّ، ثم قال: ليلي، لديك موهبة لا يجب إهدارها، يجب أن أقول لأمي وأبي كي يدفعا لك مصاريف دروس في الموسيقى.

رفضت في البداية، لكن من السهل على مارك أن يبدو مقنعاً. وهكذا، وجدت نفسي في صالون منزلنا، أعزف أمام جدتي ووالديّ المذهولين. ارتكبت بعض الأخطاء بسبب الخوف، لكن مع ذلك استطعت تداركها بشكل حسن، لأني عندما انتهيت من العزف، شدوا على يدي، وبكت أمي قائلة بأنه كان يجب عليّ إخبارها بالأمر، وأن باستطاعتي متابعة دروس الموسيقا عند السيدة جيانغ، التي كانت تعتبر كأفضل مدرسّة موسيقى في الحي الصيني. وقدموا إليّ مزماراً قيماً جداً (كانوا حريصين على استئجاره، في حال غيرت رأيي).

وهكذا، من يوم لآخر، غدوت مركز اهتمام البيت، والأمسيات (هيه، هل سمعت بهذه الليلي؟ لقد تعلمت مقاطع لبيتهوفن خلال بضعة أيام وحدها! بينما يتوجب على آخرين الاستمرار في التدريب حتى تتساقط أصابعهم، لكن هي، هي فعلاً تحفة!) عموماً، كانت جدتي تتدخل في هذا النقاش كي تدفع بعيداً بالعين الشريرة الحسودة: «لا... لا.. إنها لم تزل ترتكب الأخطاء، هي ليست موهوبة كابنتك كارولين».

كنت أراقب مارك بانتباه لأرى إن كان تقدمي، وإثارتي للاهتمام، يسببان له أي مشكلة، لكنه على العكس من ذلك فقد بدا مرتاحاً. كان مشغولاً جداً بالتحضيرات اللازمة لدخول الجامعة، فقد جاءه قبول في (أم، أي، تي)[44] ويقضي أوقاتاً طويلة على الإنترنيت ليتحقق من مراجع الأساتذة، ويقيّم الطلبة، كي يختار مع من كان

---

[44] M.I.T: اسم كبير لجامعة أمريكية، قرب بوسطن، متخصصة بالعلوم والتكنولوجيا.

يريد العمل. ونتيجة مضاعفة البركة التي حلّت عليهما، لم يكن والداي يتوقفان عن الابتسام، ابتسامات متواضعة بالطبع.

كانت المدرسة هوانغ، مدرسّة طموحة، تحاول أن تدفعني قدر ما أستطيع للتقدم، ولم يكن هذا يزعجني. فقد كنت أنا الأخرى طموحة وجائعة للتحصيل. أصغي إليها خافضة الرأس عندما كانت تؤنبني لحظة أعزف بشكل سيء. بالرغم من افتقادي لتأليف قطعاً موسيقية، توقفت عن التأليف، لأنها قالت لي أن الوقت لم يزل مبكراً، وأني يجب في البداية الحصول على تعليم كلاسيكي كامل. في اليوم الذي سجلت اسمي لمسابقة محلية، اجتاحني ضيق رهيب لمجرد فكرة أن أعزف أمام أشخاص لا أعرفهم. وعندما فزت في المباراة، سجّلتْ اسمي في مباراة ثانية أكثر أهمية هذه المرة. بدأت أدرك أني أفضل من باقي المرشحين. كنت أحب لفت انتباه الجمهور، واحتضان والديّ الحماسي. طلبت من السيدة جيانغ وضع اسمي في مسابقات أخرى، وجهزّت لها بانتظام، تخلصت من ثيابي السوداء، ومن ماكياج القرون الوسطى، وتحولت إلى فرد حقيقي من سكان الضاحية، كي أدخل البهجة إلى قلب والداي.

ذهب مارك للدراسة في الجامعة. كان ذاك أول فصل دراسي له، لكن لم نكن نعرف، لا والداي ولا أنا، كيف كان يدبر أمره بعيداً عن المنزل. كنا مشغولين جداً في ربح المسابقات، وكان ذلك يسبب لي انتشاءً أقوى بكثير من شرب زجاجة كاملة من شراب السعال! ومن ثم، فمارك، هو مارك! كنا نعلم أنه سينتهي من دراسته بتفوق.

عندما أرسلت له رسالة أحكي له فيها عن نجاحي بالتفصيل، هنأني، وفي نهاية الرسالة كتب يقول: «لا تحرقي المراحل،

باكراً»، بدت لي تلك الجملة غريبة جداً. كانلدي شعور أن العكس هو الصحيح، فحب عزف الموسيقا وصلني متأخراً، ويجب عليّ أن أكافح كي ألحق بكل هؤلاء الفتية والفتيات الذين كانوا يعزفون منذ الحضانة. كيف كنت إذن أحرق المراحل؟

لكن ذات صباح من يوم سبت، في الليلة السابقة لمسابقة وطنية هامة جداً، استيقظت وأصابعي مخدّرة. شعرت بثقل، وبالأخص، لم تكن لدي الرغبة في الذهاب إلى الغرفة التي خصصها والداي لي (غرفة مارك القديمة) لم أرغب في عزف السوناتا الخامسة لباخ التي كانت من القطع الموسيقية المفضلة لدي، كنت أشعر بالرغبة في أن أتصل بإحدى الصديقات، والذهاب للتسكع معها في المركز التجاري، وأن نهذر بأشياء تافهة، لكن لم يعد لدي أي صديقة، فهوسي بالموسيقى جعل كل أصدقائي يفرون مني.

في اللحظة التي وعيت فيها ذلك، اجتاحتني رغبة في البكاء، لهذا فقد اتصلت بأخي.

جاءني صوت مارك ناعساً، في الجهة التي هو فيها كان الوقت قد تجاوز بعد الظهر. تفاجأت، لأن مارك بالعادة كان ممن يصحون باكراً، سألته ماذا يفعل في هذا الوقت، فنحن لنا زمن لم نتسامر فيه، ولماذا ينام حتى هذه الساعة المتأخرة من اليوم. أجابني بأنه خرج للسهر في الليلة السابقة.

– هل كنت تحتفل؟ سألته بلهجة ممازحة.

لم يكن مارك يحتفل أبداً. بالنسبة إليه، السهرة الجميلة تتلخص في الالتقاء برفقائه المغرمين بالرياضيات في المقهى لشرب الشوكولا الساخنة، وهم يتناقشون بنظريات علمية غامضة.

– نستطيع أن نقول عن هذا هكذا، أجابني مارك.

فضولية، وفي نفس الوقت متسلية، سألته إن كان يحتفل غالباً منذ أن ذهب إلى الجامعة... قاطعني قائلاً:

اسمعي، سأتصل بك لاحقاً، اتفقنا؟ أشعر بألم رهيب في رأسي.

أقفل الخط حتى قبل أن أجيب. اتصلت عدة ساعات أخرى، لكنه لم يعاود الاتصال.

حديثي، أو بالأحرى لاحديثي مع مارك لم يسبب إلا في تفاقم الإحساس بهذا الثقل والخدر. تجاوزت الساعة الثانية بعد الظهر، ويجب عليّ أن أبدأ بالتحضير للمسابقة. عوضاً عن ذلك، خرجت بهدوء من المنزل، استقليت باص 38 المتجه إلى شاطئ البحر كي أذهب للتسكع، على أمل أن ينعش الهواء المشبع باليود أفكاري، ويجعلني أعرف ما الذي حلّ بي. كانت الموسيقى قد دخلت إلى حياتي قبل عام من ذلك الوقت، كنت أسمعها على الدوام تدّوم في رأسي طوال اليوم، خلال قيامي بأعمال اليوم الاعتيادية. القطع الموسيقية التي كنت أحلم بتأليفها، والتي كان يجب الاحتفاظ بها حتى تسمح لي معلمتي باستخدامها كانت ترفرف حول رأسي أثناء النوم، شبيهة بعصافير في القفص. إذن لماذا يراودني هذا الإحساس المتزايد أنه فيما لو حرموني من مزماري فهذا لن يقدم ولن يؤخر في شيء؟ ومارك... هل لديه حقاً مشاكل أو أني كنت فقط أرمي بضيقي عليه؟ هل يجب عليّ أن أنقل لوالديّ ما دار بيني وبينه، أو أحتفظ بذلك لنفسي كي لا أخونه؟ انتظرت حتى عودة مارك إلينا في عطلة عيد الشكر كي أتحدث معه مباشرة.

أملت أن أشعر بتحسن في صبيحة اليوم التالي، لكن، بين وقت وآخر، كانت شفتاي تحتقنان هما الأخريان، وأشعر أن لي أصابع

من رصاص. قلت لوالدتي أني لست بحال جيدة، لكنها ادعّت أن لابد هذا يعود إلى نوبة من الخوف، وحشرتني في السيارة أنا وكل أجهزتي الموسيقية. سأعفيكم من التفاصيل: لحظة وصلت إلى منتصف قطعتي الموسيقية، وقعت متخشبة، وكان يجب عليهم سحبي من المسرح. أخذني والداي إلى البيت، ووضعاني في السرير، مقتنعين أني مصابة بنزلة برد، أو مرض ما من هذا النوع. لمست جدتي جبيني الذي لم يكن حاراً، وقالت بان نفسيتي هي المريضة. بخّرت غرفتي، وقد كانت أقرب منهم لمعرفة الحقيقة. لم أكن على ثقة بأن البخور سيكون ناجعاً، لكن، في صباح اليوم التالي، أعلنت لوالديّ أني لن أشترك من الآن وصاعداً ولا في أي مسابقة، وأن مارك يعاني من مشاكل. وكما توقعت، فقد طار صوابهما.

في تلك الفترة، كان صوابي أنا أيضاً قد طار، لهذا فلم أكن ألومهما. عملا ما في استطاعتهما كي يكونا والدين جيدين. قضيا أمسياتهما وعطلات الأسابيع في حثّ مارك من نشاط لآخر، وساندا حبي المفاجئ والمكلف للعزف على المزمار. وخاصة، خلال كل تلك السنوات التي اعتقدا فيها أن لا فائدة تُرتجى مني، لم يوبخاني أبداً (صدقوني، هذا الأمر بالنسبة إلى والدين من أصول آسيوية، كان من الأعاجيب!) لهذا، في هذا اليوم، كان الأمر كما لو أنهما قد مُنحا ميدالية ذهبية، كي تنتزع منهما بعدها بالضبط.

بإمكانكم بسهولة تخيل الأزمة التي حصلت في المنزل. انتزعا مني المزمار القيّم، وألغيا دروسي. كان جوابي على ذلك بالعودة إلى ثيابي السوداء، وإلى وضع الحلقة في ثقب أنفي. ثم تركاني بسلام، لأنهما تلقيا اتصالاً من مستشار جامعة مارك. لم يقولا لي شيئاً، لكن من

النتف التي سمعتها من نقاشهما المضطرب مع جدتي، اعتقدت أنهما فهما بأن مارك قد رسب في امتحاناته. سمعت كلمات من مثل «عشرة سيئة، مشاكل من الكحول، التغيب عن الحصص الدراسية».

شرح لهما موجّه مارك بأن مشاكل كهذه قد تعترض أحياناً الطلاب الذين ترعرعوا ضمن عائلة محافظة، مع تربية تقليدية، فهم يديرون بشكل سيء هذه الحرية المفاجئة التي تقدمها لهم الحياة الجامعية. لم أكن لأتصور أن يقع مارك في شرك كهذا. كنت مقتنعة أن هناك سبباً آخر وراء تلك المصيبة. في عطلة الأسبوع ذاك، علّق والداي لافتة على باب مكتبهما: «مغلق حتى إشعار آخر». (المرات الوحيدة التي أُغلق فيها المكتب كانت حينما تضع والدتي طفلاً) وغادرا نحو بوسطن.

الاثنين الذي تلا ذلك، عندما نهضت في الصباح، كنت متيقنة تماماً أني فيما لو ذهبت إلى المدرسة لأصغي إلى ثرثرة أساتذتي، فسوف أُجنّ، وسأجازف بالقيام بأشياء سيأسف لها الجميع. لهذا، أخذت حقيبتي، وهرعت إلى الخارج كما لو أني كنت أخشى عدم اللحاق بباص المدرسة، لكن بمجرد أن أصبحت خارجاً، بعيداً عن مرمى نظر جدتي، اتجهت ناحية المتنزه. أخذت معي مزمار مارك القديم. جلست على مقعدي المفضل، خلف الأجمّة الكثيفة، وعزفت سوناتا «ضوء القمر» ومن ثم قطعة موسيقية أخرى حالمة كانت تلائم تماماً نفسيتي الكئيبة. شعرت قليلاً بالجوع، فأكلت الشطائر التي كانت معي. ثم، أخذت قيلولة صغيرة. بعد أن نمت قليلاً، عزفت وعيناي مغلقتان، ألحاني الخاصة المرتجلة. لا أدري كم مرّ من الوقت وأنا أعزف، كانت

شفتاي تؤلمانني ـ لكنه لم يكن ألماً مزعجاً ـ عندما شعرت بيد على وجهي. وثبت لمترعلى الأقل، وصرخت بقوة لا بد وأنها وصلت إلى الطرف الآخر من المتنزه. فتحت عيني، لم يكن هناك أحد. تذكرت حينها كل قصص جدتي عن أرواح الأموات، فبدأت يداي بالارتجاف. ماذا لو انتحر مارك وجاءت روحه كي تقول لي وداعاً؟ ثم، رأيت الصبي يختبئ وراء الأجمة، لا بد وأنه قد تراجع وفرّ عندما بدأت بالصراخ، وعندما خرج من مخبئه انتبهت أنه كان من المصابين بتشوه خلقي. كنت قد رأيت في المتنزه أولاداً مشوهين خلقياً يتنزهون جماعات برفقة أشخاص بالغين، لا بد وأن هناك مدرسة مخصصة لهم ليست بعيدة عن هنا. قطعاً هذا الصبي ذو العشر سنوات قد تاه عن المجموعة. تقدم ناحيتي متوتراً قليلاً. قلت له أني آسفة كوني قد أخفته، وبأنه هو بدوره أيضاً، قد أخافني. قال لي بأنه يحب عزفي، فسألته إن كان يريد أن أعزف له، فهزّ برأسه دليل الموافقة، وجلس على العشب عند قدميّ.

بدأت أعزف لحناً حزيناً كان قد جاء إلى رأسي بينما كنت أسير على الشاطئ بعد أول نقاش مع مارك. لكن كلما كنت أستمر في العزف كلما كنت ألاحظ أن اللحن لم يكن بهذا الحزن. كان فيه انتفاضة ورجرجة، وحتى التفاف مبهج، كان لا يني يعود باستمرار. خلال دقائق، سمع الأطفال الآخرون الموسيقى، فجاؤوا وجلسوا قرب الصبي الصغير. صديقي (هكذا رأيته) كان بالتأكيد يحب قليلاً التملك، لأنه وضع يده على ركبتي. كانت تفوح منه رائحة مربى الفريز. عزفت اللحن لفترة طويلة، وكنت في كل دقيقة، أكتشف شيئاً جديداً، حتى حلّت الساعة التي كان يجب فيها أن نعود.

كان لدى إيما شعور أن عقلها، بسبب نقصه للهواء المنعش بدأ يعمل بسرعة. بعد رواية ليلي بدأت تفكر بوالدها... لكن ألم يكن الأجدر بها أن تفكر فيه بعد رواية طارق عندما حكى عن والده؟ الآن ينبغي عليها أن تتذكر أنها كانت تحلم دوماً أن يكون لها شقيق أو شقيقة، وأنها لامت أهلها لسنوات لأنهما حرماها من رفيق لعب، بينما كان كل أصدقائها لديهم واحد على الأقل جاهز في المنزل.

عندما كانت لم تزل طالبة في الهند كان والدها يعزف على الغيتار. كان من معجبي ألفيس وكل رفاقه في الصف كانوا يقولون بأنه يغني بشكل جيد. قصّ ذلك على إيما عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها وقد انفجرت وقتها من الضحك، غير قادرة على تخيّل والدها يغني كمغنٍ في شعره الدهني. نادى زوجته لمساعدته مغتاظاً. أكّدت روايته وحتّى قالت لإيما أن هذا من أحد الأسباب التي جعلها تقبل باللقاء به عندما جاءت الخاطبة عند عائلتها مع عرض زواج من قبلها.

– ووالدتك كانت على الموضة كثيراً عندما كانت طالبة، قال والدها وهو يمرر يده على خصر أمها العريض. كانت تضع نظارات شمسية وتلبس حذاء بكعبٍ عال وقمصاناً بدون أكمام. كان يحصل أن نغيب عن الدروس كي نذهب إلى سينما ميترو[45] لنشاهدة أفلاماً أمريكية.

في اليوم الذي قابلتها فيه كانت تضع طلاء أظافر وردياً فاقعاً، يليق مع ساريها. لو لم يكن عندي هذا الغيتار لكنتِ مازلتِ أنتِ ذرة غبار صغيرة في عين الله.

كانت إيما محتارة من هذه الصور الخيالية لنفسها تتطاير في

---

[45] سينما ميترو: سينما مشهورة في كالكوتا افتُتحت عام 1935.

عـين الله و لوالـدتها بأظافرهـا الورديـة الفاقعـة متجولـة في شـوارع كالكوتا، نظارة شمسية على أنفها طـاردة طـالبي يـدها واحـداً بعـد الآخر. نظرت إلى والديها، هو الأصلع وهي مكورة البطن في ثيابهمـا الرخيصة مستندين الواحد على الآخـر يتبـادلان نظـرات متواطئـة، وقد شعرت بالأسى وهي تفكر بهذين الشابين الفاتنين اللذين كانـا، واللذين لم يعودا كذلك .

لكـن كـان لوالـديها مفاجـآت أخـرى مخبـأة داخـل أكمامهمـا البوليستر، خاصة تلك التي سيكشفها لها والدها خـلال أول فصـل دراسي لها في الجامعة.

أكل الناجون التسعة ما تبقى من طعـام بـبطء شـديد. منكمشـين الواحد على الآخر كي يتّقوا البرد، فقد زاد الثقب الذي في السـقف من برودة الغرفة. كانوا يمسكون بلوح الحبوب، وبقطعهـم الصـغيرة جداً من التفاح، بالقرب من أفواههم خشية أن يتطاير شـيء منهـا في الطريق. لم يكن كاميرون هو من وزّع الطعام هذه المرة. من المكـان الذي كان يجلس فيه، مسنداً ظهره على ذراع إيمـا غـير المصـاب، رفع حاجبه باتجاه مالاتي ومانغالان اللـذين فهمـا للحـال، ونهضـا كي يقسّما الطعام ويوزعاه بحصص متساوية. لاحظت إيما أن هنـاك كمية أكثر من الطعام عن قبل، لابد وأن البعض منهم قد أخـرج مـا كان يخبئه في السرّ ووضعه تحت التصرّف علـى الكـوّة عنـدما كـان الجميع مشغولين بأمور أخرى. كان هناك كيس من الورق من أعواد الجزر، قطعة خبز صغيرة كاملة وثلاثة قطع من الشوكولاتة البيضاء الشهية، التي قطّعها مانغالان باهتمام خاص. لكن كل ذلك اختفـى ببضع لقيمات.

وشوش كاميرون بتعليمات في أذن إيما، التي أوكل إليها الإعلان بأن باستطاعتهم استخدام المراحيض للمرة الأخيرة. لابدّ وأن الماء قد وصل إلى حافة الطست. (كيف سيتدبرون أمرهم عندما ستغدو المراحيض غير قابلة للاستخدام؟ تساءلت إيما). لم يعد باب الحمام يغلق بسبب الماء، لذلك كان يجب الانتظار خارج مكتب مانغالان لترك بعض الخصوصية للذي يريد استخدام المرحاض.

لبس بعضهم بصعوبة جواربهم المبللة ونزلوا بحرص عن الطاولة. لاحظت إيما السيد بريتشدت في نهاية الصف. ألم يكن منذ قليل في المرحاض؟ لكن هذا السيد «الذي كان تماماً كما ينبغي» يريد أن يستعلم عن اللحظة التي يجب عليه فيها التبول في إبريق أو طاسة ـ وهذا ما كان سيحدث قريباً نظراً للسرعة التي كانت المياه تصعد بها ـ ويفضل دون شك أن يأخذ أقصى حذره.

إلى جانب إيما كان كاميرون قد تشنّج. فهو الآخر كانت عيناه على السيد بريدشدت. وشوش شيئاً ما في أذن الطالبة التي رفعت ذراعها المكسورة وقالت:

– سيد بريدتشت هل بإمكانك المجيء لرؤيتنا للحظة؟

كيف استطاعت أن تنسى فترات الاستراحة التي كان يأخذها للتدخين. بدا الضيق على السيد بريدتشت، لكنه لم يكن يستطيع الرفض، عندما وصل قربهما، مدّ كاميرون يده وقال:

– أعطني سجائرك وولاعتك.

– ألا تثق بي؟ استهجن السيد بريدشدت قائلاً وقد تصلبت كتفاه. هل تعتقدان أني سوف أكون بهذه الوحشية كي أشعل ولاعة وأعرّض الجميع للخطر.

كانت إيما على وشك مناداة طارق الذي كان شبه نائم قرب طاولة

المكتب كي يأتي لمساعدتهما، لكن السيد بريدشت شتم قائلاً:

- أنتما على خطأ أيهما الأحمقان الشّكّاكان!

ورمى بولاعته الذهبية وعلبة سجائره على طاولة المكتب، ومن ثم عاد بخطوات حازمة (حازمة بقدر ما سمح له الماء المثلج الذي كان يصل الآن حتى الكاحلين) ليقف في الدور.

بينما كانت السيدة بريدشت تنتظر دورها أمام غرفة الحمام حاولت أن تعيد إلى رأسها إحدى الذكريات المحددة. فشغف ليلي بالموسيقى قد لامسها بالعمق، وجعلت جزئيات من هذه الذكرى تطفو على السطح.

توقفت تلك الذكرى عند مطبخ والدتها. لكنها شعرت بقبضة الماء المثلج تقبض على قدميها وبدأت مفاصلها تؤلمها، والصعود والنزول من على الطاولة أخذا يزدادن صعوبة عليها منذ أن لجؤوا إلى طاولات المكتب ـ كان التهاب المفاصل يسبب لها ألماً مبرحاً ـ لكنها لم تكن ترغب في طلب المساعدة، ورفضت أن يعلم الآخرون أن جسدها بدأ يخونها. جفّف الغبار لسانها، وأزعجتها رائحة عنيدة لم تعرف كنهها.

كان السيد بريدشت لم يزل يزعجها. كانت تشعر بوجوده في نهاية الصف يرسل نحوها طاقة سلبية. تابعت من طرف عينها الحوار الذي جرى بينه وبين كاميرون، ورأته يرمي بولاّعته وعلبة سجائره. حينئذ، شعرت بوثبة من الانسجام تصعد فيها. لم تكن تعرف شكلا جيداً إلا الاتكالية، الطريقة حيث الأمور الأساسية الممنوعة تحتجز انتباه كل خلايا عقلك، الذبذبة التي تنتشر في كل نظامك العصبي كما على طول حبال غيتارك وتدوي في داخلك بموسيقى غامضة. توقعت أن تأخذ قرصاً أو ربما قرصين بمجرد أن

تدخل غرفة الحمام كي تصبح بأحسن حالها عندما يحل دورها لتحكي قصّة. كانت ترغب أن تقتسم أقراصها مع السيد بريدشت لكنها لم تكن تستطيع، كما هو واضح. حتى أنها لم تستطيع التحدث معه بخصوص الهر. كان هناك أشخاص بينها و بينه، وستخجل أن تتحدث معه في الموضوع أمامهم.

الذكرى التي كانت تحاول حتى الآن إعادة تشكيلها عادت إليها أخيراً بكليتها: كانت جالسة مواجهة طاولة المطبخ، تلك المكسوّة باللينوليوم الأصفر الفاقع، مع أعز صديقاتها ديبي، وأمام كل واحدة منهما قطعة شهية من تارت الدراق. كانت السيدة بريدتشت ـ فيفيان ـ هي التي جهّزته. في تلك الحقبة كانت تعشق تحضير الحلويات، تعشق هشاشة العجين المخمّرة بملمس راحة يدها. بجمال التفاح المقطع إلى قطع رقيقة جداً بحيث يمكننا الرؤية من خلالها. كانت موهوبة كفاية كي تخطط هي وديبي في عامهما الأخير للمرحلة الثانوية باسترداد مخزن حلويات والد ديبي بمجرد أن يحصلا على الدبلوم.

– فيف، قالت ديبي، لدي خبر رائع لك!

– دعيني أخمّن... سوف تتزوجين أجابت فيفيان. كانت تلك دعابة بينهما استمرت منذ الصف السادس.

جالت ديبي ببصرها وأجابت:

– غبية! لقد وافق والدي! إنه يرغب حقاً أن ندير محل الحلويات، خلال ستة أشهر!.

لماذا لم تكن ابتسامة فيفيان أيضاً حماسية بالقدر الذي يجب عليها أن تكونه؟ لكن ديبي، وبسبب حماستها، لم تلحظ شيئاً.

– سنكون مكلّفتين بكل شيء، ندير الموظفين، نختار الوصفات، نشتري المكونات ونحدد الأسعار... كل شيء! سيعلّمني والدي

كيفية إدارة الحسابات. سيبقى السيد بارما يحضر الخبز، لكن بإمكانك الاهتمام بكل الحلويات. إن تدبرنا أمرنا بشكل جيد سنستطيع أن نعيد شراء المحل. لن نكون بحاجة لصرف أي قرش. يكفي صاحبه أن ندفع شهرياً مع الفائدة. ما رأيك؟

«هذا رائع» أرادت أن تجيب السيدة بريدشت عوضاً عن فيفيان «هيّا بنا!» لكنها في ذكرى تلك الأيام رفعت فيفيان رأسها المحمر من السعادة والشعور بالذنب، وكانت تعرف، بقلب دامٍ، بأنها سوف تتخلّى عن أعز صديقاتها.

منذ عدة ساعات خلت، شعرت السيدة بريدشت بالهلع يصعد في داخلها، ماذا لو ماتت قبل أن تحكي حكايتها، الآن بعد أن أخذت أقراصها، هذه المعجزات الصغيرة للعلم، في الحظاتها الخاصة في غرفة الحمام، شعرت بالصفاء والانفتاح. في المشفى قبل أن تغادر إلى البيت، قالت لها المرضة: «إن لم يحصل هذا في هذه الحياة، سوف يحصل في الحياة اللاحقة» كانت السيدة بريتشد تعيد هذه الجملة كأنها مانترا[46].

لم تعد خائفة، وعندما طلب السيد بريدشدت من الجميع العودة إلى الجلوس ليتركوا له بعض الخصوصية في المرحاض لأنه مصاب بالإمساك، لم تشعر بأي خجل.

لكن بينما هي تعود إلى المكتب قام عقلها في دقيقة بتجميع كل العناصر. لم يكن السيد بريدشت يصاب أبداً بالإمساك. دفع باب الحمام بالرغم من الماء لحد ما أُغلق تماماً. كانت الرائحة التي شعرت بها منذ دقائق هي رائحة غاز. وعندما طلب منه كاميرون

---

[46] مانترا: نوع من الصلاة في بوذية زين.

وضع ولاّعته وعلبة سجائره تظاهر بالعصبية والمفاجأة وهـذا لم يكـن من الصدق في شيء. قبضت علـى يـد أقـرب شـخص إليهـا والـذي صادف أنه مانغالان:

- أعتقد بأن السيد بريدشت ينوي التـدخين بالـداخل، همسـت قائلة، (لا تستطيع خيانة زوجها أمام الجميع) يجب أن تمنعـه... أنا أشم رائحة غاز.

هرع مانغالام نحـو غرفـة الحمـام بسـرعة وبـأكثر مـا يستطيع مـن الهدوء الذي سمح به الموقف، وارتمى على الباب المغلق.شعرت السيدة بريدشـت بأمعائهـا تنقبض، فالبـاب كـان يقـاوم، لكنـه انتهـى بـأن استجاب للضغط في نفس اللحظة التي كان السيد بريدشت ينوي فيهـا إشعال السيجارة. تعثّر، انزلقت السيجارة والولاعة من يـده وسـقطتا في الماء. زلّت قدم مانغالام، وسحب معه في سقوطة السيد بريدشـت. رأت السيدة بريدشت زوجها يسدد لكمة نحو رأس مانغـالام لكنهـا لم تكـن جيدة التسديد، لأن الآخر لم يجد صعوبة في تفاديها. خشـيت السـيدة بريدشـت أن يـردّ مانغـالام اللكمـة، لكـن الموظـف نهـض مستنداً إلى المغسلة وساعد السيد بريدشت في الوقوف على قدميه.

عاد الرجلان ليجلسا فوق الطاولات، متجمدين، يسيل منهما المـاء. دمدم مانغالام بأنه قد تعثّر في العتمة. شاهدت السيدة بريدشت نظـرات الشك، لكن لم يقم أحد بالتعليق. وكما نقيق البرمائيات، أمر كـاميرون الرجلين بخلع ملابسهما. أعطاهما الآخـرون قطعـاً مـن القمـاش الأزرق كي يقوما بتنشيف أنفسهما، ومن ثم قدموا لهما كل الأغطية والملابـس الـتي استطاعوا التخلـي عنهـا. تخلـى طـارق ومانغـالام عـن لباسـهما الداخلي، أصرّت السيدة بريدشت أن تقـدم سـترتها لزوجهـا، وذهـب طارق ليجلب شال الصلاة من حقيبته الصغيرة: كان قـد وضـعها علـى

الكوة منذ قليل دون قصد منه «الحمد الله» أعطى الشال لمانغالام. أدار الجميع رؤوسهم أثناء تبديل الرجلين لثيابهما، ونشروا الثياب المبللة على خزائن الملفات. كان عمل لا فائدة منه، فلا شيء يمكن أن يجف في هذا الضريح الرطب.

بدأ الخيط الرفيع للضوء الذي يسقط من السقف في التلاشي. سألت إيما كاميرون إن كان هو من سيحكي الحكاية التالية. لكن الجندي أشار بيده ناحية مانغالام. كانت أسنان الموظف تصطك، وكان يلزم له المزيد من الوقت كي يدفأ قليلاً من جديد. فتشت السيدة بريدشت في حقيبة يدها وأخرجت زجاجة سائل للجسم، مخصصة للسفر. فركت قليلاً يدي مانغالام ويدي زوجها بهذا السائل. في البداية أظهر السيد بريدشت حركة تراجع، لكنه ترك نفسه أخيراً لزوجته كي تفرك يديه. عبقت في الغرفة رائحة خفيفة لخزامى مجلوبة من فرنسا. تذكرت إيما حجم الزجاجة، وشكلها الانسيابي، وعنقها ذا اللون الأزرق الغامق. لكن عندما دخلت إلى المدرسة الثانوية، راحت التقاليد تتداعى دون أن تعرف لماذا.

– ألا تحملين معك المزمار بالصدفة؟ سأل طارق ليلي.

– بلى، أجابت

وراحت تبعثر بمحتوى محفظة ظهرها التي كانت قد وضعتها في الخلف، وأخرجت منها آلة أنيقة مفضضة.

– هل أنت متأكد؟ سألت. سوف أستهلك بذلك الكثير من الأوكسجين.

شجعها طارق بحركة من ذقنه، ولم يرفع أحد صوته للاعتراض. أضاءها الضوء الذي كان يخترق الحطام للحظة، قبل أن ينطفئ.

13



ولدتُ في عائلة فقيرة في بلدة صغيرة جنوب الهند. عندما استشار المنجم النجوم التي رافقت مولدي قال لوالدي بأني سوف أرتفع كثيراً على مستوى السلم الاجتماعي وأن الفضل يعود إلى وجهي. والداي، مبتهجين، قاما بتحقيق هذه النبوءة على طريقتهما، معتقدين أني كنت سأجلب لهما الحظ في تسلق السلم الاجتماعي. فتصرفا إذن بشكل أنتفع فيه من كل ما هو أفضل، من حصص غذاء إضافية، إلى ثياب جديدة لأعياد الحصاد، مروراً بدراسة مكلفة في أحسن مدارس المنطقة، وكل هذا كان على حساب أخواتي. وكبرت مع الاعتقاد أني أستحق كل ما كان يقدمه والداي لي، كما كنت ولداً مفسوداً. لكن، على الأقل دفاعاً عن نفسي، يجب علي أن أضيف أني كنت التلميذ الأكثر تفوقاً في المدرسة، ودون شك أيضاً الأجمل. حتى وإن كنت أستطيع النجاح في الصف دون أي جهد، كنت أبذل كل ما باستطاعتي كي أصل إلى التميّز. كنت آخذ بجدية كبيرة لعب دور المنقذ لعائلتي.

أثمرت جهودي: فقد حصلت على منحة وافرة سمحت لي بالتسجيل في إحدى أكبر الجامعات بعيداً عن دلهي. منذ البداية، رحت أدرس بمواظبة، وحصلت على أفضل النتائج في الامتحانات،

لكني فهمت سريعاً أن النجاحات الأكاديمية لا تكفي وحدها كي تفتح أمامي أبواب النجاح، فالمكاتب كانت تعجّ بالرجال اللامعين الذين كانوا يقتاتون من مناصب ثانوية. قررت فعلياً ألا أكون من فصيلة هؤلاء الأشخاص. لم أكن أسمح لنفسي بذلك. بالرغم من عدم حديث والداي بالأمر أبداً، لكني كنت أشعر أنهما ينتظران بفارغ الصبر أن يؤتي استثمارهما بنتائجه. لم يزل لدي أختان في عمر الزواج، وكل عام يمضي كان يقلص من حظهما في العثور على عريس جيد، هذا إن لم يعدا المتقدم ببائنة كبيرة. كانت جدتي تعاني من ألم في وركها كان يتطلب في القريب العاجل علاجاً ضرورياً، وبيت العائلة أصبح شبه متهالك. كان والدي يصلح السقف كيفما كان في كل موسم حصاد وينتظر بصبر، اليوم الذي سوف أحصل فيه أخيراً على شهادتي الجامعية. الشخص الوحيد الذي بدا وكأنه لا ينتظر مني شيئاً كان والدتي. بالتأكيد لهذا السبب، فقد كان أكثر ما كنت أرغب فيه 258 هو تقديم هدية لها. وقع اختياري على زوج من المباريم الذهبية. (كانت قد باعت مباريمها كي تشتري لي ثياباً لأجل الجامعة) عند عودتي من المحاضرات كنت غالباً ما أتجوّل أمام واجهة صائغ محلّي و أنظر للأساور وأتخيل التعبير الذي سيرتسم على وجهها عندما أقدم لها علبة الجواهر المخملية.

لكن قبل ذلك كان عليّ أن أجد وظيفة جيدة، ولأجل ذلك، كان يجب عليّ أن أتعرّف على أشخاص من ذوي الطبقات العليا، وأقصد بكلمة «أتعرف» بمعنى المعرفة الحميمية. قمت عندئذ بأبحاثي لمعرفة أين بإمكاني رؤية هذا النوع من الأشخاص. كان هناك عدة أمكنة،

مثل ملاعب التنس أو نوادي البولو، لكنها كانت تتطلب مصاريف لم أكن أملكها. ثم سمعتهم يتحدّثون عن نادي السينما.

هنا، كان أولاد الذوات يجتمعون مرتين في الشهر كي يشاهدوا وينقدوا أفلاماً أجنبية يكون والد أحدهم قد استطاع نقلها عبر خط شبكته.

اهتممت بقراءة كل ما تقع عليه يداي بخصوص هذه الأفلام قبل رؤيتها، كي أستطيع نقدها نقداً ذكياً وأحياناً مستفزّاً، في اللحظة المناسبة. (أمام دهشتي الكبيرة جعلني هذا النشاط أكتشف عشقي للقراءة). بقليل من الوقت، اعتُبرت كخبير في العديد من المجالات، وبدأ أعضاء نادي السينما يطلبون رأيي في العديد من المواضيع. كان الناس يحبون أيضاً شكلي، ووجهي البشوش، وجسمي الرياضي، الذي كنت دائم الاعتناء به بأتباعي حمية قاسية، وتمارين منتظمة.

جرت العادة بعد الفيلم أن يخرج أعضاء النادي للعشاء في فندق أمبيريال الفخم، حيث كلٌ كان يدفع الحساب عندما يحين دوره. دُعيت خلال وقت قصير للانضمام إليهم.

كانت أسعار المطعم مرتفعة بشكل غير معقول، لكني كنت أوفر المال خلال شهر كامل، لا آكل غير الأرز والخضار التي أطبخها بنفسي على طباخ الغاز في غرفتي الصغيرة، وفي اليوم الذي جمعت فيه المبلغ، أخذت الفاتورة من يدي النادل بعد انتهاء الوجبة، وبهيئة غير مكترثة على الإطلاق قلت دون أن أوجه الكلام إلى أحد معين: ـ إنه دوري يا أصدقائي.

خلال إحدى فترات العشاء تلك تعرفت على «نينا» البنت الوحيدة

لموظف ذي مكانة مرموقة في الحكومة. قمت بمغازلتها بـذكاء بتقـديمي أشعاراً للحب ممهورة بتوقيعي ـ كانت مأخوذة مـن مختـارات شـعرية كنت متأكداً من أن نينا لم تكن لتقرأها أبداً ـ وأمارس الضـغط المـدروس على يدها خلال نزهاتنا المسائية في حدائق «لودهي».

قبل أن تأخذوا أي فكرة مسبقة عني أريد أن أضيف أن قلبي كان يطرق بعنف أثناء تلك النزهات، وكنت أعتقد يومها أنه الحب، لكن ربما كان هذا نوعاً من اليأس، فقد كنت على بعد أشهر من حصولي على شهادتي الجامعية، وجدتي قد أجرت عملها الجراحي للتو.

اغتنمت فرصة نزهتنا إلى تاج محل ـ المخطط لها بعناية من طرفي ـ في إحدى الأمسيات المقمرة، تحت جاذبية إضاءة منوّمة، كي أبوح لها بمشاعري، مضيفاً بسرعة بأن عليها أن تنساني، فأنا قـادم مـن بيئة متواضعة جداً، وسوف لن تستطع أبداً إقناع والدها بمصاهرتي.

جاء هذا التحدي المضمر بالفائدة المرجـوة، فقـد ذهبـت نينـا إلى والدها وقالت له أنها لن تتزوج أبداً أحداً غـيري. لم يعجـب أباهـا هذا على الإطلاق، لكن حبه لابنته كان الثغـرة الوحيـدة في دفاعـه. قام بتوظيف مخبرين مختصين كي يتحققوا مـن أصـولي وماضـيي، فلم يجدو شيئاً معيباً ما خلا فقري.

متأثراً بالطموح الذي جعلني أندفع بعيداً في الحيـاة. دعـاني إلى مكتبه، وبعد خضوعي للتعذيب لمدة ساعة كاملـة بـدت لا نهائيـة، لم يوافق فقط على طلبي ليد ابنته، بل عـرض أن يقـدم لـي مركـزاً مرموقاً ـ كان مقتنعاً أني سأنجح جيداً في وزارة الشؤون الخارجيـة، قسم البروتوكول ـ ونصـحني أن أتقـدم للامتحانـات المناسـبة تمامـاً لهدفه. كان الشيء الوحيد الذي ينتظره مني، قال لـي عنـدما شـدّ

علـى يـدي، هـو أن أجعـل ابنتـه سـعيدة، وأن الإخفـاق في هـذا المشروع، أضاف مبتسماً ببشاشة، سـوف يكـون تـأثيره وبـالاً علـى صحتي.

هل كان يمزح، أم أنه كان تهديداً حقيقيـاً؟ في كـل الأحـوال لم يكن يقلقني هذا أبداً. ليس من الصعوبة بمكان جعل امرأة سعيدة، قلت في نفسـي، لم أكـن أشـك لحظـة أن بعـد زواجـي بأمـك نينـا الناعمة أن تتحول للسيد هايد.

كانت الإشارات الأولى غير ملموسة: طلبت مني نينـا في إحـدى الأمسيات عنـد الأصـدقاء أن أذهـب لأجلـب لهـا كأسـاً مـن المـاء، بلهجة ظهرت وكأنها أمر أكثر منها طلب بسيط. قررت أن تزخرف شقتنا الفاخرة، المقدمة كهدية من والـدها، بـاللون الأحمـر الفـاقع، بينما كنت أفضل لوناً أكثر اعتـدالاً. تصّـفحت نينـا رزمـة بطاقـات الدعوة التي كانت تُرسـل إلينـا، وقـررت وحـدها عنـد مـن سـوف نذهب ومن سـوف نـرفض. كانـت نينـا تقضـي سـاعات في مخـزن الأحذية ذات الأسعار الباهظة الثمن، تنتقي زوجاً يعـادل في سـعره راتبي لأسبوع، وفي اليوم الذي وجهّت إليها ملاحظة، ذكرتّني أنها تدفع من أمواها الخاصة.وكان هـذا صـحيحاً، فـإلى جانـب دخلـها الجيد كان لديها مورد آخر تدفع منه مصاريف البيـت، كـي أكـون حراً في التصرف براتبي كما يحلو لي. من هذه الناحية كانـت فعـلاً شهمة جداً.

تحمّلـت هـذا التفاصـيل الصـغيرة دون أن أحـتجّ، في كـل حياتهـا كانت نينا تحصل على ما تريد، في اللحظة التي تريد. قلت في نفسـي لا بد وأنه يلزم بعـض الوقـت كـي تعتـاد علـى الحيـاة الزوجيـة. مـن

جانبي، كنت أركز على عملي الذي كان يتكون من الإشراف على استقبال الوجهاء الأجانب. كنت أحب أن أخاطب أناساً مهمين قادمين من الجهات الأربع للكرة الأرضية. أحببت أيضاً الشخص القائم على خدمتي والذي كان يعاملني بتبجيل لم أكن قد عرفته قط من قبل. كل شهر، كنت أرسل قسماً كبيراً من راتبي لعائلتي التي قامت بتصليح سقف البيت، ودفعت الفواتير البيتية الأكثر إلحاحاً، وجهّزت لزفاف أختي الثانية. كانت تلك حقبة جميلة.

نعم كانت بالفعل حقبة جميلة، حتى ولو رفضت نينا مرافقتي لحضور زواج أختي في القرية، وادعّت أنها سبق وحجزت لنا نحن الاثنين بطاقات لأجل مهرجان «*كان السينمائي*». حاولت أقصى جهدي أن أتمالك نفسي فلا تفلت أعصابي، وطلبت منها أن تفكر بالأمر لأني فعلاً أريدها أن تأتي معي لحضور هذه المناسبة العائلية. سألتني إن لم أغدُ مجنوناً... لكن كل هذا كان في بداية زواجنا، ولم يتأخر الوفاق. لاحقاً قالت لي أنها سوف تكون بمزاج سيء إن هي ذهبت، لأنها تخشى أن تجعل الجميع بمزاج سيء (كانت تلك طريقتها في الاعتذار) عندئذ، ذهبت إلى «*كان*» مع صديقتها، وذهبت بدوري وحدي لحضور حفل زواج أختي، مستسلماً لمجابهة أسئلة عائلتي.

الحدث الذي سبّب خطأً غير قابل للتصحيح والذي كان القطرة التي أفاضت الكأس جرت في العام الذي تلا ذلك، عندما أراد والداي زيارتي. حاولت أن أثنيهم عن ذلك بأن أذهب أنا لرؤيتهم في القرية، لكنهما كانا يتحرقان شوقاً لرؤية شقتي الفاخرة، وكذلك زوجتي الفاتنة. عندما أعلنت الخبر لنينا، اكتفت بهز كتفيها

وقالت أنهما يستطيعا المجيء لكنها ترفض استضافتهما في منزلنا. وما عليهما إلا الذهاب إلى الفندق، وعليّ ألا أقلق بهذا الشأن، فهي من سيدفع التكلفة.

من يعرف بينكم التقاليد الهندية، بإمكانه أن يفهم أي إهانة يشكل هذا لوالديّ، ولي أيضاً. لكن لم أستطع أن أقول شيئاً، فالجملة الأخيرة لنينا جعلتني أعي كم أنا تابع لها، أعيش في منزلها وآكل من غذائها، حتى منصبي، أدين به إلى والدها الذي عرف كيف يناور ويلعب اللعبة. كنت ذليلاً كوني فكرت في يوم أن الحظ قد طرق بابي.

في اليوم التالي، بقيت في مكتبي بعد العمل، وانتظرت حتى غادر كل الموظفين. اتصلت بوالديّ كي أعلن لهما قرار نينا. استمعا حتى النهاية، لكنهما لم يعبرا عن الألم الحقيقي الذي شعرا به، وطلبا مني ببساطة ألا أقلق وأنهما سوف يأتيان لاحقاً، ربما في العام القادم عندما يكون الأمر مناسباً للجميع. لكني كنت أعلم الحقيقة تماماً، فوالداي من الناس الذين عندهم كبرياء، ولم يعودا لطلب المجيء لزيارتنا على الإطلاق. اكتفت والدتي أن أضافت أنها قد جهّزت لي علبة من حلوى «مزورباك» إحدى حلوياتي المفضلة، وأنها سوف ترسلها بالبريد. بعد أن أغلقت الهاتف أمسكت رأسي بيديّ وأجهشت في البكاء، لقد اقترفت أكبر خطأ في حياتي بزواجي من نينا، وها أنا قد علمت ذلك لكن بعد فوات الأوان.

في هذه اللحظة طرق علي أحدهم الباب، سألني صوت أنثوي إن كنت بخير. كانت تلك «لاتيكا» المحاسبة في قسمنا. كان يجب عليها أن تعمل حتى وقت متأخر أكثر من العادة. سمعت صوت

بكائي وهي تمر قرب المكتب. فجعلني اهتمامها أزداد بكاءً. ذهبت لاتيكا لتجلب لي كأساً من الماء، ثم بحثت في محفظة يدها ومدّت نحوي بمنديل كي أجفف وجهي. قالت لي بأن همومي مهما بدت غير محمولة، سوف تبدو أخف وطأة في اليوم التالي لا محالة. أجبتها أني أشك في ذلك، ودون أن أنتبه رحت أقص عليها مشاكلي الزوجية. سحبت كرسياً وجلست تصغي دون أن تحاول تقديم أي حل.

لم أستطع منع نفسي من مقارنة لاتيكا بنينا، فقد كانت الواحدة منهما نقيضة الأخرى. لم تكن لاتيكا جميلة، لكن بساريها البسيط، وزينتها المتحفظة، كانت تشع. إن كانت نينا ككرة لحجر كريم، فقد كانت لاتيكا كالقمر في سماء ضبابية. كانت من خلف نظارتها تطفح بعلائم التفهّم، وكان لدي الإحساس أنها تدرك تماماً ما معنى كلمة «تقدير». كان المنديل الذي أعطتني إياه منسولاً من أحد الجوانب، وتفاجأت عندما لاحظت أنها لم تتردد في اقتسامه ومشاركته معي، خشية اكتشاف مواردها البسيطة. هذه اللفتة أكسبتها هيئة شجاعة وضعيفة في الوقت نفسه، لكن أيضاً، هيئة حقيقية. على عكس كل الأشخاص الذين كنت أعاشرهم منذ بعض الوقت.

لا بد وأني تكلمت لمدة نصف ساعة، بدءاً من سخطي على نينا، مروراً بوالدها، ووصولاً إلى والديّ والتضحيات التي قاما بها لأجلي. بالمقابل، حكت لاتيكا أن والديها توفيا في حادث قطار منذ عامين، وأنها كانت تفكر بهما كل يوم، وتشتاق إليهما. ولم يبق لديها إلا أخ صغير كانت تدفع مصاريف دراسته الجامعية. قدّمت

لها اعتذاري كوني قد جعلتها تتأخر، وعرضت عليها إيصالها بالسيارة إلى البيت (كنت وقتها أقود سيارة ب إم دبليو، كان حماي قد أعطانيها والتي ـ حتى اليوم ـ كنت فخوراً بها) لكنها رفضت قائلة إنه لم يزل هناك باص يسير حتى هذه الساعة، وهو يقف تماماً أمام نزل النساء التي كانت تسكن فيه. لكنني أصررت، لافتاً انتباهها أنها كانت تمطر. ركضنا تحت المطر كي نجتاز الشارع ونصل إلى موقف السيارة المسقوف. كنا مبللين ونقهقه من الضحك ساعة وصلنا إلى السيارة. غريب، منذ ساعة خلت لم أكن أعتقد أن باستطاعتي الضحك في يوم ما بمثل هذا الضحك. شعرت وأنا أقود لاتيكا إلى النزل أن القدر، كي يعوضني عن مصيبتي، قدّم إليّ صديقة.

لم أعد أدري حقاً متى تحولت صداقتنا إلى حب. لم يتقصد أي منا ذلك. بالنسبة للاتيكا كان ممنوعاً عليها بتاتاً أن تتعلق بزوج امرأة أخرى. عندما شعرت بما كان على وشك أن يحصل، حاولت أن تبعدني عنها، لكن الذي ولد بيننا كان من القوة بشكل لم نستطع معه المقاومة. غير أن ارتباطنا لم يكن أبداً ارتباطاً جسدياً، كانت لاتيكا صلبة لا تنثني حول هذه النقطة. لم نكن نعلم إلا أنه من المستحسن أن يبقى الأمر سرياً. في المكتب لم نكن أكثر من زملاء عمل، لكن كل يوم، بعد العمل، خلال ساعة ـ ساعة محددة ـ كنا نذهب إلى السينما، هذا الملجأ القديم الملائم للعشاق في المدن الهندية المكتظة بالسكان. كنا نختار الصالات الصغيرة، ذات الشاشات والتكييف السيئ. كان يجب علينا كل يوم تغيير الصالة، نجلس في أقصاها، ونتناقش بهمس يداً بيد.

على مرّ الشهور، أخذنا نحلم بمستقبل مشترك، في مدينة أخرى، بعيداً عن دلهي، مستقبل يكون لأخيها كما لوالداي مكان فيه.

في أحد الأيام ذهبت لرؤية مديري، ودون مقدمات، طلبت منه نقلي إلى قسم آخر من المنشأة، إلى جنوب البلاد ـ لأسباب عائلية، ادعيت ـ حاول ردي عن عزمي وإخافتي بقوله أن هذا سيكون خطوة إلى الخلف في عملي، وأن مهنتي في السلك الخارجي سوف تتأثر للغاية. لم أهتم لذلك، فطموحي، الذي كان مشتعلاً في السابق لم يعد أكثر من جمرة قيد الانطفاء الآن. في اليوم الذي قُبل فيه طلبي للنقل أعلنت لنينا عن نيتي في الطلاق. لم نكن منسجمين، كانت تعبد الاستقبالات والتسوق، وقضاء العطلات المكلفة جداً، وارتياد المخازن الفاخرة التي تفتح حديثاً. كل ما كان يهمني ـ عملي، أصدقائي، كتبي، وعائلتي ـ يضجرونها بشكل فظيع. لماذا لا نتقبل إذن فكرة أننا تهورنا في تسرعنا في زواجنا، وليذهب كلٌ في سبيله؟

حدجتني نينا بنظرها، بعيون مبحلقة. اعتقدت للحظة أنها سوف تفتعل شجاراً. لكنها لم تلبث أن هرعت إلى غرفتها وأقفلت وراءها الباب. بعد عدة دقائق سمعتها تتحدث بالهاتف بصوت هامس، لكن بلهجة غاضبة. كانت بالتأكيد تتحدث بالسوء عني لإحدى صديقاتها. لا يهم. ها أنا أخطو خطوة نحو الحرية، وقد شعرت بخفّة في نفسي. ذهبت إلى غرفتي الخاصة ـ كان لكل منا غرفته في ذلك الوقت، وعلاقتنا الجسدية كانت شبه مقطوعة ـ استخدمت خط هاتفي الخاص كي أتصل بلاتيكا وأحكي لها ما حدث وجرى. كانت مرعوبة قليلاً، لكنها على الأخص مستثارة،

فقد كانت عليّ علم مسبق بشأن نقلـي. قررنـا أن نتحـدث أكثـر في هذا الشأن غداً بعد العمل.

صباح اليوم التالي كنت في مكتبي أنهـي بعـض التفاصـيل الـتي تخص زيارة وزير مـن غانـا عنـدما سمعـت ضـجة كـبيرة. نهضـت وخرجت من المكتب لأرى أربعٍ من رجـال الأمـن يحيطـون بلاتيكـا في الرواق. كـان شـعرها منتفشـاً ودموعهـا تحـزّز وجنتيهـا. رمـتني بنظرة حزينة. قبضت على ذراع أحد رجـال البـوليس وسـألته عمـا يجري، فدفعني جانباً وهو يقول أنه لا يحق له مناقشـة الأمـر مـع أحد. كـان الـرواق ممتلئـاً بـالموظفين الـذين كـانوا يراقبـون المشـهد ويتهامسـون بـين بعضـهم الـبعض، مبـتهجين أنهـم كـانوا شـهوداً لفضـيحة كهـذه. أردت الـركض وراءهـم، لكـن وجـود كـل هـؤلاء الأشخاص منعني من ذلك. عـدت إلى مكـتبي واتصـلت بسـكرتيري الذي أخبرني أنه باكراً في الصباح، وصل البوليس مع إيعاز بتوقيف لاتيكا. وفقاً لما يبدو، كان ينقص مبلغ من المال يتطابق مع الحساب الذي كانت لاتيكـا مسؤولة عنـه، فاشـتبهوا بأنهـا قـد اختلسـته. اقتادوها كي يقوموا باستجوابها في القسم.

استوليت على حقيبة عملي الصغيرة ورحت أتراكض على الدرج. يجب علي الذهاب إلى مركز الشرطة وأقوم بعمل كل مـا تسـمح بـه سلطتي كي أساعد لاتيكا. كنت مقتنعاً ببراءتها، سوف تسوى هـذه المشكلة سريعاً. لكن وأنا في الطريق، أوقفتني سكرتيرة مديري ـ امرأة مسنة تعمل في المنشأة منذ سنين وتعرف أسرار الجميع ـ كان مديري يريد أن يراني حالاً. قلت لها أني يجب أن أذهب فوراً، وأن ذلـك ضرورة شخصية ملحّة، وأني سأذهب لأراه فور عودتي.

أخفضت رأسها وقالت: إن لم تذهب لرؤيته حالاً فلربما لن يكون لديك عمل عند عودتك.

أقلقني صوتها. فتبعتها حتى مكتب مديري الذي لم يضيّع الوقت بالتخمين فقد بادرني قائلاً:

- تلقيت رسالة آتية من الأعلى هذا الصباح، لقد أُلغي قرار نقلك.

لم يعطِ أي شرح، اكتفى بالتلميح بأن أعود إلى مكتبي، وأن أركّز على زيارة الوزير الغاني.

لحظة خرجت بعد هذه المحادثة القصيرة، استندت على مكتب سكرتيرته كي لا أنهار. كان رأسي يدور. في أقل من ساعة تحطم عالمي، ما الذي يحصل؟

أنعمت عليّ السكرتيرة بنظرة تعاطف وقالت: لدي شعور أنك قد أغضبت بعض الأشخاص. لو كنت مكانك سأحاول الاعتذار بأقصى سرعة، وأبقي بعيداً عن لاتيكا.

عندئذ فهمت ما جرى وحدث. نينا لم تتصل بصديقة بالأمس مساءً، بل تحدثت مع أبيها، وهذا الأخير انقض تماماً كما الصقر ينقض على طريدته ويقتلها حتى الموت من الضربة الأولى.

تركت محفظتي على أرض مكتب السكرتيرة، وغادرت كالمجنون إلى النزل الذي كانت تعيش فيه لاتيكا. بدسي بعض الأوراق المالية بيد البستاني علمت أنه منذ ساعة من الآن، تلقّت البوابة اتصالاً هاتفياً بلبلها تماماً. فحزمت أمتعة الآنسة لاتيكا على الفور ووضعتها أمام الباب الخارجي، وقد تلقى الأمر بدوره بأن يعطيهم للآنسة حين وصولها، ويمنعها من دخول النزل. بعد فترة

قصيرة من ذلك، وصلت لاتيكا في عربة شرطة. استرجعت حاجياتها وقالت للبستاني أنها ستغادر المدينة. منعها أحد رجال الشرطة أن تقول المزيد، لكنها أعطت البستاني ورقة من فئة العشر روبيات مطوية إلى أربع وهي تغادر، ضمن هذه الورقة كانت تخبئ كلمة لشخص يدعى مانغالام.

مررت ببعض القطع النقدية الأخرى إلى يده، فأعطاني الرسالة. لم يكن هناك إلا جملة واحدة: «لأجل مصلحتنا جميعاً، لا تحاول أن تجدني» دعكتها إلى أن حولتها إلى كرة صغيرة، كان لدي الإحساس بأن ما أدعكه كان جزءاً من أحلامي التي كنت أحطمها في قبضتي، وليس فقط أحلامي، بل أيضاً هذا الجزء مني، الذي كان يملك أخلاقاً ومحبة. لاتيكا كانت قد أيقظت هذا الجانب بي، ودونها لن أستطع العيش.

أمام هذا الدمار، شعرت أني قد وضعت لاتيكا في معجن لا تستطع القيام بعده وأن نينا، حتى ولو لم تكن ترغب بي، ترفض بكل قواها أن أغدو سعيداً مع امرأة أخرى. كانت تحاربني كي أبقى مقيداً بها حتى آخر أيام حياتنا، وخلال هذه المعركة الشرسة، كان والدها أفضل حليف لها.

ذاك المساء، تناولنا أنا ونينا العشاء كما لو أن شيئاً لم حدث. رأيتها وهي تُثني على الطباخة لأجل براعتها في طهو وجبة من «دجاج الماكاني»[47] شعرت بالغضب يغلي في عروقي بقوة كما قوة الاندفاع. متحرراً من الحيرة والشك التي زرعتهما بي لاتيكا

[47] Poulet makhani: دجاج مطهو بالبهار والزبدة.

بعشقها، قمت بإعداد خطة.

بدأت أقيم علاقات غرامية مع أفضل صديقات نينا، نساء قريبات جداً منها بحيث لا تستطيع أن تتغاضى عنهن وفي الوقت نفسه لا تستطيع أن تؤذيهن. استخدمت سحر شخصيتي وجمال شكلي كي أنساق وراء مغامرات خارج نطاق الزواج، وأقوم بالتباهي بها كي يكون باستطاعة كل أغنياء دلهي تناقل إشاعاتها.

وإن حدث وحطمت قلباً ما، فهذا عندي سيان. كنت أريد من نينا أن تصبح محل سخرية كل نخبة دلهي. هزأتها هي ووالدها، إلى أن، في لحظة يأس، قاما برد الفعل. في تلك الفترة، لم أكن أبالي بكل ما سوف يقوما به. إن كان من استئجار قاتل مأجور كي يقضي عليّ، أو بإرسالي إلى أبعد نقطة بعيداً عنهما. في الحالتين كنت سأسترد حريتي.

أصغى كاميرون إلى نهاية قصة مانغالام دون أن يسمعها فعلياً. لجأ في أفكاره إلى مكان آخر، إلى نقطة بعيدة أخرى. كانت أزهار كبيرة برية بلون أصفر فاقع تنمو فوق أنقاض جدار قديم من الآجر، بالقرب من بوابة من الحديد مقفلة بالمفتاح. كان كاميرون يعرف جيداً هذه البوابة، شاهد صورها مئات المرات، كما صورة الطريق المؤدية إليها والتي لم تكن أكثر من ممر صغير ضيق مغطى بالوحل. تقدم كاميرون بخطوات مترددة، تزحلق. كان يرغب في أن يشاهد شيئاً ما ليتمسك به، درابزين، دغل، ذراع أحد ما. تفاجأ بهذه الفكرة، فهذا الأمر لا يشبهه أبداً. خلال سنوات، بذل جهده لا لكي يتدبر أمره دون مساعدة أحد فقط، بل لكي يصبح هو من

يُطلب منه المساعدة أيضاً. لكن حقيبة ظهره ثقيلة جداً. يريد أن يرفعها لكنه لا يستطيع. إنها ممتلئة بالهدايا، فهو إن لم يجلب الهدايا فـ «سيفا» لن تحبه، جاهد حتى رفع حزام الحقيبة على كتفيه، بالرغم من أن هذه الحركة ستجعل تنفسه أكثر صعوبة. شعر بقلبه ينقبض ويحرقه كما إبرة عقرب. سبق له وأن التقى بعقارب خلال مهمات له في الصحراء. أمل ألا يوجد منها هنا، في الدعامات، لأن خلف الأبواب كان الأطفال بالملابس الزرقاء الموحدة يلعبون وأقدامهم عارية.

في الباحة يركض الصبيان وراء كرة القدم. كان كاميرون قد قرأ الكثير من المقالات كي يجهز لإقامته، لهذا فهو يعرف بأن هذه اللعبة لا تسمى هنا كرة القدم. لكن ذاكرته خانته، ولم يعد يتوصل إلى تذكر الاسم. تلعب الفتيات لعبة الذئب. يتقافزن على عتبة البناء القديم ويصرخن صرخات خوف وبهجة عندما كانت الفتاة التي تلعب دور الذئب تلمسهّن. أقدامهن نحيلة جداً ومغطاة بالخدوش، لكن عندما كن يتراكضن بسرعة كانت تبدو كغابة من الأغصان المذهبة. لن يستطع الذئب الإمساك بسيفا أبداً ولا بتلك التي تركض بسرعة أكبر. عند وصولهما إلى البوابة تسلقتا فوقها. سيفا! نادى كاميرون. سيفا! تنظر عبر القضبان، جبهتها ملتوية، وهيئتها مرتبكة. تبدو كمن تسمعه لكنها لم تكن تراه. من خلفها تبدو سلسلة الجبال مخدّدة لكن وديّة كما رأس الفيل. تفوح في الهواء رائحة الدخان والبعر المجفف. تثغو عنزة كي يأتوا ليحلبوها.

يترك كاميرون حقيبته تسقط عن ظهره ويهرع نحو البوابة. يريد

أن يلمس أصابع سيفا الطويلة، أظافرها السوداء من الأوساخ، لكن ها هو جرس الميتم يرن، ويأمر الأطفال بالعودة إلى الصف. يشكلون رتلاً غير متناسق ومتراصاً عند المضخة التي، أمامها، يجب أن يغسلوا أيديهم وأرجلهم. تظهر معلمة ترتدي سارياً باهت اللون على باب الرواق وتأمر سيفا بالنزول عن البوابة.لكن الفتاة الصغيرة تبقى معلّقة هنا للحظة، تصغي، ونظرتها تائهة.

«سيفا» صرخ، هذا أنا كاميرون. لم يعد هناك أكثر من خمسين سنتيمتراً للوصول إليها. بإمكانه رؤية المسافة الفارغة بين أسنانها الأمامية، التي كانت على اعوجاج قليلاً. انحلّت إحدى ضفائرها، وآثار غبار يخدّد ساعدها. كان هناك بقعة من الوحل على وجنتها. مد يده بين القضبان كي يمسحها.

سيفا! صرخت المعلمة بغضب.

– ها أنا ذا يا سيدتي، أجابت.

قفزت الفتاة الصغيرة عن البوابة، رشيقة كما القرد، تاركة أصابع كاميرون تداعب الفراغ.

ما الفائدة من إيجاد أحد ما يحبك بكل هذه القوة ومن ثم تفقده بكل هذه البساطة، يا سيد مانغالام؟ علّقت ليلي.أتفهم غضبك وأنا سعيدة لأنك غادرت.

الآن، بعد أن انتهى مانغالام من قص حكايته، بدأت أسنانه تصطك. ضم ذراعيه إلى صدره، وقال:

– من وجهة نظر جغرافية، نعم، أنا غادرت، لكن ليس من وجهة نظر شرعية ونفسية. فنينا لم تزل زوجتي، وأنا لا أستطيع

نسيانها. ربما اليوم، بين لحظة وأخرى سوف أغدو أخيراً حراً.

رفع نظره نحو الثقب الفاغر فاه فوق رؤوسهم، وعندما رفعت إيما نظرها هي الأخرى رأت بأن هناك تغيّراً ما، فقد بدأ مصباح جداري، لم يزل معلقاً بشريط كهربائي يهتز برفق. ما الذي كان ينفلت هنا؟

– لم يكن هذا خطأ نينا بالكامل، تابع مانغالام، أنا من بدأ، استخدمتها لأصل إلى أهدافي. هذا طبيعي أن أفقد بسببها كل ما له قيمة في نفسي. إنها الكارما، إنها القدر المحتوم.

– ما الذي تقصده بالكارما؟ استعلمت السيدة بريدشت وهي تستند على زوجها كي تقترب أكثر من مانغالام.

– هل تذكرون ما فعلته مع أصدقاء نينا، النزوات والإغواء؟ فعلت كل ذلك كي أجعلهن يقعن في الفخ. حسناً، بعد أن وصلت إلى أقصى ما لدي، أرسلوني إلى أميركا. هنا، أدركت أني لم أزل أتصرف هكذا مع النساء، حتى مع اللواتي أحترمهن وأكن لهن الإعجاب الحقيقي.

ألقى نظرة ناحية مالاتي:

– إنها كتلك القصص التي نرويها للأطفال كي نخيفهم ونجبرهم أن يكونوا لطفاء، إن قمت بتكشيرة كبيرة، فسوف تُحفر على وجهك، ولن تستطع أن تبتسم بعد الآن.

عاد مانغالام ليلتفت نحو مالاتي ويوجه نحوها الكلام:

– نحن بالتأكيد سنموت هنا... ربما حتى بعد وقت قليل جداً فيما لو استمر هذا البناء بالانهيار، أو ازداد فساد الهواء. وأنا لا

أريد الموت قبل أن أقول لأي درجة أنا متأسف لتصرفي معك بهذه الطريقة.

– قبلت اعتذارك، أجابت مالاتي. وأشكرك لأنك ترجمت حكايتي، فقد اخترتها كي أهاجمك في جزء منها، لنقل، كي أهاجم نوعية الرجل الذي اعتقدت أنك عليه.

حتى هذه اللحظة كان كاميرون يسعل بفاصل زمني معين، لكن هذه المرة، تتابع السعال واستمر لوقت أطول وتركه لاهثاً. حاولت إيما مساعدته في الجلوس، وهرعت ليلي لتسنده. لكنه دفع بالذراعين جانباً كي يصل إلى جيبه ويخرج منها جهاز الاستنشاق الذي يستخدمه. حبس أنفاسه للحظة، وانتبهت إيما أنها كانت تحبس هي الأخرى أنفاسها. مدّ نحوها بالجهاز بارتخاء شديد الآن لدرجة مخيفة، كي تضعه في جيبه.

لم يعد هناك غير نفخة واحدة وسوف يُفرغ بعدها.

– احك الآن قصتك. قالت إيما لكاميرون.

– لا أستطيع، همس وهو يفرّك صدره. لم تجهز بعد، ليس بعد.

فهمت جيداً ما يريد قوله.

فحكايتها هي الأخرى لم تكن جاهزة بعد.

ثم، سمعوا السيدة بريدشت تجلي حنجرتها.

14



مقدماً، أنا أدين بالاعتذار لزوجي، لأني أعلم أن حكايتي سوف تؤلمه. فالطريقة التي أرى فيها الأمور لا تمت بصلة إلى طريقته. أعرف ذلك. آمل فقط، أني عندما سأنتهي من حكايتي، أن يفهم ـ وكذلك أنتم ـ لماذا حكيتها.

تحدثتم جميعاً عن أحداث معينة حطمت حياة بكاملها في يوم واحد. حرب خيانة، إغراء، موت. أما فيما يخصني، فقد انقلبت حياتي في ثانية واحدة، بسبب شخص لا أعرفه، كان يساعد ببساطة امرأة في خلع معطفها.

بدأ اليوم الذي تغير فيه كل شيء في اللحظة التي كانت فيها السيدة بريدشت تتلذذ في شرب كأس من الشاي بالليمون في مطبخها، ذات صباح، وعيناها مغلقتان، تنفخ على البخار المعطر.كانت السيدة بريدشت تؤمن بالمتع البسيطة في الحياة. حولها كان المطبخ براقاً: منظر سطح المكان الذي تعمل عليه من الغرانيت النقي، صوت خرخرة البراد، طبق السلطة الذي من السيراميك والذي كانت قد صنعته في إحدى دروس صناعة الخزف. كان الطبق مملوءاً بالتفاح والأجاص. الفاكهة المفضلة للسيدة بريدشت.

ذهب السيد بريدشت إلى العمل، بعد أن تناول طعام الإفطار

المكون من عصيدة من اللوز والسكر المحروق، وعصير البرتقال المعصور حديثاً. لحين عودته إلى المنزل، كانت الساعات تمتد أمام السيدة بريدشت، لطيفة كما القطة التي تتمدد بانتظار أن نداعبها.

وضعت قائمة في رأسها عن أعمال اليوم: الذهاب إلى الحديقة التي لم تزل رطبة من الندى وقطف باقة من السوسن، تنظيف المنزل تحسباً لوصول زبائن قديمين على العشاء الليلة مع السيد بريدشت، الذين غدوا أصدقاء خلال مسيرة حياته. جولة في السوق كي تشتري الفريز لأجل التحلية الإنكليزية التي تزمع تحضيرها. بعد هذا التسوق، ربما تقف في «سناك»[48] شطائره شهية، يجهزونها بالخبز الطازج الذي يقومون بخبزه بأنفسهم، كل صباح، في القسم الخلفي للمطعم. في وقت الشاي، ستلتقي بأعضاء نادي القراءة، نساء ذكيات ولطيفلات، في عمر الستين وما فوق، ــ مثلها ــ لأجل اجتماعهن الشهري. حضّرت جيداً لأجل هذا الإجتماع، كتبت صفحة كاملة من الملاحظات عن رواية «***بيت الأرواح***»[49]. عندما ستعود إلى البيت ستضع قرصاً مدمجاً للموسيقار «ساتي»[50] وتستلقي على الكنبة. في شبابها كانت فترة استراحة الظهر تخيفها إلى أقصى درجات الخوف، لكن اليوم، أصبحت تتقبلها بامتنان. ثم تحل ساعة تجهيز الغداء، وقد كانت عملية سهلة بما أنها سبق ونقعت لحم الخروف بالماء المالح، وغسلت وجففت الخضار.

---

[48] سناك: مطعم للوجبات الخفيفة والسريعة.

[49] رواية للكاتبة التشيلية إيزابيل الليندي.

[50] Erick Satie: مؤلف موسيقي لعزوفات بيانو 1866 ـ 1925.

لم تكن السيدة بريدشت تعي محدودية أفق حياتها التي لم تكن إلا عبارة عن تتابع ملذات بورجوازية. وإذا ما ـ بالصدفة ـ فكرت بها، لم تكن تجد شيئاً تقوله.

كانت متأخرة، والسناك الذي على زاوية الشارع كان فارغاً عندما دخلت، فزبائن ساعة الغداء قد غادروا. شعرت السيدة بريدشت بقليل من خيبة الأمل، فهي تتلذذ بمراقبة الناس. مهما يكن، طلبت شطيرة من الجانبون والجبن المذاب، قضمت باستمتاع هائل الخبز المقرمش. ثم، رأت زوجين يدخلان. كانا مسنين وهناك بقع شيخوخة على وجه الرجل الذي كان يقود المرأة بيدين مرتعشتين. بدت زوجته أكبر سناً منه، تضع نظارة ذات زجاج سميك، وتتحرك ببطء وبصعوبة، مستندة على عصا، من تلك الأشياء الرهيبة من المعدن، ذي الأربع قوائم. راقبتها السيدة بريدشت بشعور مشوب بالشفقة والخشية. ففي يوم، ربما ليس بالبعيد، سوف تصبح هي وزوجها مثلهما.

وصل الزوجان إلى طاولة. ترك الرجل ذراع رفيقته وسحب كرسياً كي تجلس. ساعدها في خلع معطفها. كانت تلك الحركة تتطلب بعض المناورة بما أنها كان يتوجب عليها أن تترك العصا من يد، ثم من اليد الأخرى كي تخلع أكمام معطفها. لكنه كان صبوراً، وعندما انتهت، وضع المعطف بعناية على ظهر الكرسي. نفض ذرة صغيرة من الغبار عن الكم، والتفت ناحية زوجته كي يساعدها في الجلوس. بعد أن جلس الزوجان، راحا يتناقشان في قائمة الطعام. غدت المرأة أكثر حيوية الآن وهي تشير برأس أصبعها إلى بعض أصناف الطعام، وينحني زوجها نحوها كي يسمع جيداً

ما تقول. ثم، هزّ رأسه بوقار، ونادى على النادلة. تباطأت السيدة بريدشت قليلاً في تناول وجبتها، تشعر بالفضول لمعرفة ماذا طلبا.كان جزء من الطلب تارت بالليمون مغطى بطبقة خفيفة من السكر المثلج، وقطعة كبيرة من إكلير[51] الشوكولا. قسّم الرجل التحلية إلى قسمين متساويين كي يستطيعا اقتسامها.

تلك اللقطة التي سحب فيها الرجل ذرة الغبار عن كم زوجته منذ قليل، والاهتمام الذي وراء هذه الحركة أربكت السيدة بريدشت، بينما لم تلاحظ السيدة المسنة بنظرها الضعيف، أن هناك شيئاً ما على كم معطفها.

خلال كل فترة اجتماع نادي القراءة، لم تستطع السيدة بريدشت إلا أن تفكر بهذين الزوجين في المطعم. كانت من التشتت الذهني بشكل نسيت أن تقدم فيه أفضل تعليقاتها أثناء المناقشة. عندما عادت إلى البيت سببت لها موسيقا «ساتي» الرغبة في البكاء. أبقت عينيها مثبتتين على الفرن أثناء طبخ لحم الخروف، محاولة التفكير لماذا استحوذ عليها هذا العجوز وزوجته، وعندما توصّلت لفهم السبب، لم تعد تستطيع الحركة. خلال الوقت الذي لزم السيد بريدشت للعودة من مكتبه كانت قد انتهت من أخذ قرارها. بعد العشاء، وبعد أن امتدح الرجال حلوياتها، وسجلت زوجاتهم الوصفات التي كتبتها لهن على بطاقات موحدة، قالت السيدة بريدشت لزوجها أنها تعاني من بداية ألم في الرأس، فإن لم يكن لديه مانع أن تنام في غرفة الضيوف هذه الليلة؟ وافق على الفور، تماماً كما توقّعت.

---

[51] اكلير: نوع من الكاتو.

في هذه الغرفة التي لم تستقبل إلا نادراً الضيوف، فكرت السيدة بريدشت في الأولاد الذين لم يولدوا قط. خلال كل حياتها بقي غياب الأطفال هذا وجعاً أبكم في أعماق كيانها. لكن اليوم بالرغم من بعض المرارة، كانت مرتاحة لأنهم لم يولدوا. لو كان هناك أولاد لما تجرأت على عمل ما تنوي القيام به. وضعت يدها في جيب مبذلها، وأخرجت زجاجة حبوب منومة ـ كانت تخص السيد بريدشت الذي كان يعاني أحياناً من صعوبة في النوم ـ أخذت كل الكبسولات وابتلعتها مع كأسين من الخمر.

في البداية، جرى كل شيء بشكل جيد. تمددت على السرير، ويداها مضمومتان على صدرها، كالمومياء في الضريح. كانت تفوح من الغطاء رائحة الخزامى. راودها الإحساس أنها تسبح مثل قنديل البحر في مياه أفكارها المعتمة، وتغوص أكثر فأكثر إلى الأعماق. لكن قلبها، ربما كان أعقل منها، فتمرّد، وأجبرها أن تتلوّى، فأصيبت بنوبة قوية من التشنج. راحت تقيء دون توقف. السيد بريدشت الذي كان لديه عمل لينهيه ـ كان هناك دوماً عمل، حتى وهو في السبعين من العمر، بينما كان يجب عليه التقاعد منذ فترة ـ سمعها تقيء، فأسرع إليها. وجدت نفسها في المستشفى، وقاموا بغسيل معدتها.

ما هو إذاً هذا الاكتشاف الفظيع الذي اكتشفته والذي دفعني للقيام بهذا العمل الميئوس منه؟ إنه هذا: زوجي لا يحبني مثلما أنا محتاجة لمحبته.

لا تسيئوا فهمي. كان السيد بريدشت زوجاً طيباً على الدوام. أعطاني كل ما أنا بحاجة إليه، لا بل أكثر أيضاً. في المساء، عند العشاء، كان يصغي إليّ وأنا أقصّ عليه مجريات يومي (بإذن

شاردة أغلب الأحيان لكن مع ذلك كان يصغي إليّ) من ماذا يجب عليّ إذن أن أشتكي؟ عندما كان يحدثني عن نجاحاته، العقود الجديدة التي كان يوقعها، الزبائن المخلصين الذين أنقذهم ببراعة من الإفلاس. كنت أبذل قصار جهدي كي أتخلص من ضجري.

كنا نتشارك بكثير من الأمور الأخرى. كان السيد بريدشت فخوراً جداً بشقتنا الفاخرة والكبيرة التي نعيش فيها، والآن، بعد أن سمعت قصته عرفت تماماً لماذا. كان يعشق عرضها على الأشخاص الذين يعرفهم وكنت أحب بدوري إظهار مواهبي في الطبخ، لهذا فنحن كنا نستقبل الكثير منهم. بالمقابل، كنا نتلقى الكثير من الدعوات إلى العديد من البيوت الكبيرة الفاخرة التي تعجّ بأناس رائعين (لكن خلال فترة انتحاري لم أنجح في إيجاد شخص واحد أفتقده أو يفتقدني) كنا نذهب إلى المسرح، إلى المطاعم الإيطالية في فندق كولومبس، فهناك الطعام رائع، ومدير الفندق يعرفنا بالاسم، نذهب إلى السينما، خاصة كي نرى أفلام الحركة والخيال العلمي، المفضلة لديه، والتي لم تكن بالتالي تسبب أي إزعاجٍ لي إن لم تحتو على الكثير من العنف. في بداية زواجنا سافرنا كثيراً إلى أوربا، كندا، وحتى إلى نيوزيلاندا، في إحدى السنوات قمنا برحلة بحرية إلى ألاسكا، لكن السفر كان من الأمور المعقدة بالنسبة للسيد بريدشت، فقد كان يأخذ حاسوبة معه إلى كل مكان. وعندما وجدت كم كان صعباً عليه أن يستدرك تقصيره مع زبائنه، لم أعد أقترح عليه أي رحلات. ما كنت أفضله أنا، هو أن أستلقي على السرير بعد العشاء مصحوبة بكتاب جيد، بينما هو يقرأ جريدته المتخصصة بالأعمال، ملتفّين نحن الاثنين تحت الغطاء الذي كنت قد حكته

بنفسي. لكن بعد أن رأيت الزوجين في السناك. شعرت أنني قد غُبنت بشدة. كان الرجل المسن يهزّ رأسه، منتبهاً إلى كلام زوجته وهي تختار من القائمة. عيناها وهما تلمعان من خلف زجاج نظارتها السميكة بينما هي تنظر إليه يقطع قطع التحلية بالتساوي. بدون هذا النوع من الرقة ماذا تفيد كل تلك الأمور التي بنيت حياتي حولها؟ حديقتي، بيتي، نشاطاتي، صديقاتي... حتى اللحظات التي كنا نقضيها معاً أنا والسيد بريدشت، كل هذا لا يساوي شيئاً، إلا مجرد أصفار متتالية الواحد تلو الأخر. لو كانت « ال » التعريف في كلمة الحب هي في المقدمة لكان هذا يساوي الملايين، لكن هنا، كنت محطمة، وكان الوقت قد فات للبدء من جديد.

في اليوم الأول لي في المستشفى كنت أطفو في نوع من الضباب مابين الألم وانعدام الحس. في اليوم التالي، بدأت أشعر بالخجل، رفضت التحدث مع الأشخاص الذين رغبوا في رؤيتي، طبيبي، المعالج النفسي التابع للمستشفى، المرشدة الاجتماعية، وكذلك زوجي. قضيت اليوم وأنا أدفن رأسي في وسادتي، ويداي تؤلماني بسبب القثطرة، أفكر ما العمل كي لا أفشل في محاولتي المرة القادمة، عندما يخرجونني من المستشفى. لم أعد أدري متى تماماً دخلت ممرضة الليل إلى غرفتي. استيقظت، وكانت هنا، واقفة عند قدم سريري. كان النور مطفأً. ولم تتجشم عناء إشعاله. على ضوء الأجهزة، لم أكن أستطع رؤية أكثر من ظل صغير ونحيل. كان شعرها معقوصاً إلى الخلف، تحافظ عليه بشكل كعكة متقنة. في العتمة بدا لباسها رمادي اللون. عندما قالت لي مساء الخير، خمنت من نبرة صوتها أنها كانت هندية :

– لدى السيد بريدشت الكثير من الزبائن القادمين من تلك البلاد ـ تصنّعت النوم. هي ليست إلا ممرضة. عرفتْ أني أتصنّع النوم لكن هذا لم يزعجها. بدأت تدندن برقة نغماً غريباً، انتظرت منها أن تفعل ما تفعله الممرضات ـ تتأكد من الأجهزة، تفحص نبضي، تقوم بإعطائي حقنة ـ لكنها بقيت عند أقدام السرير. ثم بصوت هامس، قالت لي بأن هذه ليلتها الأخيرة في المستشفى وأنا آخر مرضاها.

لم أكن أتوقع ذلك.

– هل ستذهبين للتقاعد؟

– يمكن أن نقول ذلك.

– وماذا ستفعلين؟

– يعتقد بعض الأشخاص أني يجب أن أعود إلى قريتي. لكني قررت الذهاب إلى مكان لا يعرفني فيه أحد. أريد أن أبدأ حياة جديدة.

أن تعيش في مكان ما حيث لا يعرفك أحد، التخلّص من حياتك القديمة كما الأفعى عندما تغير جلدها! هذه الفكرة جعلتني أرتعش، بالرغم من عدم نيتي ترك نفسي لأنساق وراء الاعترافات في مكان حزين وبارد كهذا، استغربت حين قلت:

– هذا ما أريده أنا أيضاً. حياة جديدة. هذه الحياة شاقة جداً.

– لماذا؟

ربما كانت رنّة صوتها المريحة، أو الاعتقاد أننا قد لا نرى بعضنا مطلقاً بعد الآن هي ما جعلني أجيب:

– كما في فيلم ماتريكس (لم أكن متأكدة أنها تعرف هذا الفيلم الذي ذهبت لأراه مع السيد بريدشت لأنه أصرّ على ذلك، وفي

نهاية الفيلم أصبحت مشدودة إلى القصة. على كل حال، هزّت رأسها) اعتقدت لفترة طويلة بأن كل ما يحيط بي كان جميلاً. لكن في الواقع كنت محشورة في سجن لا حب فيه. فاخترت الموت. كطريقة أخرى للهرب.

– الموت هو مهرب، قالت، لكن ليس بالضروري أن يكون مكاناً أكثر بهجة. خاصة إذا ما انتحرت، هذا سيء جداً بالنسبة للكارما. يتوجب عليك في هذه الحالة العودة مرغمة لاجتياز كل ما قد عشتهِ في السابق، لكن تحت شكل مختلف. مهما يكن، هذا الزوج الذي تعتبرينه كلعنة، جاء إليك لأنك ترغبين أن يأتي. ألا تلاحظين ذلك؟

اخترقتني كلماتها كما تفريغ كهربائي. أعادت شحن بطارية عقلي وأعادت الحياة إلى ذكرى منسية. كنت ذاهلة تماماً، فقد كانت تقول الحقيقة.

كان هذا في اليوم التالي من تقديم امتحان شهادة آخر العام في الكليّة. كانت فيفيان جالسة في مطبخ والدتها الفورمايكا (أصفر ليموني وأصفر بلون الصوص وأصفر زاهي) تأكل قطعة من أفضل تارت دراق في العالم. كانت ديبي قد أعلنت لفيفيان للتو أنها نجحت بإقناع والدها بأن يعهد إليهما بمخزن الحلويات لمدة ستة أشهر.

– سوف ندير كل شيء! اختتمت ديبي قائلة. وابتسامة عريضة على وجهها المنمّش. لكن بدل صرخة الفرح التي كانت تنتظرها ديبي حاولت فيفيان القول بصوت خامد:

– هذا رائع ديبي، لكن أنا الأخرى لدي خبر أعلنه لك.

– لا تقولي لي، بدأت ديبي، سوف لن... لكن شيئاً ما في حركة صديقتها جعلها تتوقف. كانت فيفيان قد أظهرت لها للتو

يدها اليسرى، التي كانت حتى الآن مخبأة تحت فخذها. كانت ترتدي محبساً.

- طلب لانس يدي، ورددت بالإيجاب. عرضوا عليه عملاً في تولسا. وهو يريد أن يتزوج الشهر القادم قبل رحيله.

تحدثت بسرعة، حتى لا تترك فسحة من الوقت لديبي كي تقاطعها، كي لا تقول لها مالا ترغب في سماعه. كانت ديبي تعتقد أن لانس ليس هو الرجل الذي يناسبها. كان حادّاً جداً، وجاداً جداً، عيناه الكبيرتان السوداوان لهما القدرة على رمي كل من ينظر إليه في انزعاج عميق.

إنه حقود جداً قالت في يوم ما لفيفيان.

كانت ديبي تفكر أيضاً أن لانس وفيفيان لايعرفان بعضهما كفاية (بدأ يعمل عند آل برايت، في وكالة السيارات المستعملة بالكاد منذ شهرين. بعد اسبوعين من وصوله إلى المدينة، دخل إلى المخبز حيث تعمل فيفيان وديبي بعد المدرسة كي يشتري خبزاً أسمر. ودعا فيفيان للخروج معه) لكن هذا بالضبط ما أعجب فيفيان فلانس لم يكن يتحدث بتلك التفاهات التي يستمتع بها الأشخاص عادة - عائلتهم، المكان الذي ترعرعوا فيه - كل ذلك كان قد تركه خلفه، لم يشكل لديه أي قيمة هذا ما قاله لها في يوم. وحده المستقبل هو المهم، وفي هذا الشأن لديه الكثير ليقال. فهو مستفيض في الكلام فيما يخص المناصب الرسمية التي قرر الظفر بها في يوم، والمنزل الكبير الذي يزمع شراءه لزوجة المستقبل.

كل ذلك بالأحرى كان يناسب تماماً فيفيان التي كانت تعيش في البيت نفسه منذ عدة سنين: ثلاث غرف، غرفتا حمام، واجهات

من الألمنيوم، وصنبور يقطر، وموكيت قديمة تحتفظ بالروائح. تابعت كل مراحل دراستها مع الأطفال أنفسهم. مع أصدقاء عائلتها، الذين كانوا يلتقون أثناء نزهات الخورنة أو عند لعب البريدج. كانت تعرف كل ذلك مذ كانت تناغي. وهي جاهزة الآن لأخذ هذه المخاطرة ومتابعة الطريق الذي كان سيقودها إلى قصة حب جميلة، ومنزل على الرابية مفروش بالموكيت الأبيض في كل الغرف. (قررا معاً أن «تلسا» لن تكون سوى مرحلة من مراحلهما) كانت هي الأخرى جاهزة لترغب في كل ذلك، مثلها مثل لانس. لهذا تحدثت لديبي عن منزلها الجديد، عن الحلويات الشهية التي سوف تجهزها للانس، وعن جولاتهما المستقبلية في أنحاء البلاد الغريبة، عن وجباتهما في المطاعم حيث قائمة الطعام مكتوبة باللغة الفرنسية، والكؤوس من الكريستال. ومن ثم، سيصبح لديهما أطفال، الكثير من الأطفال. تخيّلت مسبقاً كاتو أعياد الميلاد التي سوف تبتكرها، الحجرات المرتفعة الأكثر غرابة من قصر ديزني لاند، الذي يتحدث عنه كل الجيران.

– سوف تتدبرين أمرك جيداً من دوني، ختمت فيفيان حديثها قائلة وهي تتحاشى نظرة ديبي الذاهلة. في الواقع، تدبرت ديبي أمرها بنفسها على أحسن وجه. فقد وجدت صديقة أخرى لتشاركها في مخزن أسمته «ملذّات ديبي» والذي سيغدو العنوان الذي لا يمكن تحاشيه في مدينتها الأم. لكن فيفيان، كيف ستخرج نفسها من هذا المأزق؟ عندما ستقوم بجردة حساب حياتها خلال أربعين عاماً ماذا سوف تجد في أعمدة الخسارة أو الربح؟

– أريدك أن تكوني اشبينتي، قالت فيفيان. هل تقبلين؟

أرجوكِ، أرجوكِ!

ولأنه لا امرأة تستطيع أن تقاوم فخفخة حفل الزواج حيث «يعيشون ويرزقون الكثير من الأولاد» التي لأجلها كانت مبرمجة منذ نعومة أظافرها، نظرت بحسد إلى حجرة الألماس الصغيرة التي تزين خاتم فيفيان، وقبلت.

بدت لي هذه الذكرى كالأبدية، لكن هذا لم يأخذ أكثر من بضع لحظات. عندما خرجت منها، أخذت الممرضة يدي.

– ماذا تفعلين؟ سألتها.

– ألمس باطن كفك. أجابتني، كي آخذ فكرة عن الذي ينتظرك.

كان ضوء الآلة يعطي انعكاسات خضراء على شعرها، لكن لم أستطع تمييز وجهها الغارق في العتمة، شعرت بالحرارة تنتشر من رأس أصابعي.

– هل تقرئين خطوط الكف.

– ليس تماماً. بإمكانك التخلص من كل هذا إن أنت أردت، لكن ليس بالشيء السهل تغيير الكارما الخاصة بنا. يجب أن تبرهني عن ذكاء وتبقي متيقظة في كل خطوة.

كنت أريد فعلاً الهرب، لكني لم أكن واثقة من استيفائي للشروط. بدا لي تغيير الكارما شيء ما معقد، وكياني كله - جسدي، أعصابي، قلبي - شعر بغباء فظيع.

بالرغم من ذلك، ولأني أحببت نغمة صوتها، فقد سألتها:

ما الذي يجب علي فعله؟

– كفي عن إتهام زوجك، وعن اتهام نفسك أيضاً. اقبلي. اغفري. وسيُفتح طريق أمامك.

لم أكن أحب هذه النصيحة، ربما هي أُرسلت من قبل السيد

بريدشت. ربما لم تكن حتى بممرضة.

– لم أُرسل من قبل زوجك، قالت لي أمام دهشتي الكبيرة. جئت لأنك بحاجة للمساعدة، وأنا بحاجة لأن أساعدك. دعيني أقص عليك أمراً جرى لي. منذ بضعة سنين، كان لدي رئيسة في العمل أكرهها كثيراً. كانت امرأة قاسية، تقضي وقتها في البحث عن العثرات الصغيرة. فوجئت أنها تكرهني هي الأخرى. كان يتوجب عليّ إما إهمالها، أو أستقيل. لكني فضّلت أن أجتّر كراهيتي حتى أقوم بعمل ما شرير جداً، بالنسبة لها كما بالنسبة لي.

أخفضت رأسها.

– لم يكن يتوجب علي أن أخسر كل هذه الطاقة في كراهيتها. كان من الأفضل التركيز على الأشياء الصغيرة التي أحبها.

كنت أتذمر في العتمة، متكورة في فراشي في المستشفى. ألم أقض عمري كله في التركيز على أمور صغيرة تاركة الأمور الأهم تتسرب من بين أصابعي؟

– قلت لها: ما أريده هو الذهاب إلى مكان حيث لم يسبق لي الذهاب إليه. مثلك تماماً، كي أبدأ بحياة جديدة.

– لا تريدين أن تكوني مثلي، صدقيني، أجابتني.

لم أكن أصغي إليها تماماً. تابعتُ قائلة: لا أعرف بعد إلى أين سأذهب، هل بإمكانك أن تقولي لي أي مكان يلائمني أكثر؟

– لا أعتقد أن الحل الأمثل يكمن في مغادرتك، هذا لن يصلح من الأمر شيئاً.

– لماذا؟ سألت بغضب.

– ستحملين معك حملْك أينما ذهبت. حتى في الحياة الأخرى، فروحك الطيبة القديمة المعذبة سوف تكون دوماً جاثمة على ظهرك.

(هل هو خيالي، أم كانت حقاً هذه أصابعها التي غدت باردة وهي تتكلم؟) ابقي مكانك وغيري قلبك. فمتى مات يصبح الأمر أكثر صعوبة.

هل هي مزحة؟ مع ذلك كانت هيئتها جدّية جداً.

– علي الذهاب. لا تنسي أن تتغيري من الداخل، وسوف يأتي التغيير الخارجي وحده.

عندما وصلت عند الباب، وجهّت إلي إشارة من يدها. أردت رؤية وجهها، لكن ضوء الردهة بهرني ولم أعد أرى شيئاً.

بعد عدة دقائق أخرى، دخلت ممرضة. كانت هذه قوية البنية وبدينة، تحمل ملفاً بيدها. أشعلت الضوء، فحصتني بسرعة وأجبرتني على ابتلاع قرص من الدواء. تمتمتُ قائلة لها أنها تزعجني بمجيئها فوراً بعد تلك المرضة، برطمت وكتبت شيئاً ما على اللوح المعلق في نهاية السرير. طلبت منها منشفة رطبة كي تنظف وجهي، وبينما ذهبت لتجلبها، اغتنمت الفرصة لألقي نظرة على اللوح. في الجزء المخصص للتعليق كانت قد كتبت «الهذيان».

بعد أن عدت إلى البيت، حاولت أن أخرج من سباتي وأتبع نصائح المرضة. (هل كانت حقاً ممرضة؟ أو حتى شخصاً حقيقياً؟). لكن كلماتها أصبحت غير واضحة المعالم، كما المنظر الطبيعي في الضباب. سديم يتسلل إلى داخلي، هل هذا بسبب الدواء الذي وصفته لي طبيبتي النفسانية، أم أنه انحراف في الصحة أعمق بكثير؟ حدثتني عن الاستفادة بأمور صغيرة في الحياة، وقد حاولت ذلك. كانت أعجوبة أني ما زلت على قيد الحياة. لكن الضباب اكتسح كل زوايا كياني. شعرت بصعوبة في الابتهاج، بينما السيد بريدشت

يجوب المنزل، بعينين محاطتين بالسواد، يأكله القلق. وزاد الأمر صعوبة تقبلي لذاتي (الذات الأصغر سناً والأكثر غباءً، لكن كان هذا أنا) لأني حشرت نفسي في هذا الموقف بقبولي بالزواج، ضد رغبة عائلتي وأصدقائي، مع رجل لم أكن أفهمه. فجأة تغير شيء ما: لم أعد أرغب في الانتحار. لكن شيئاً فشيئاً رحت أزيد من جرعة الدواء. كان تبلد العقل يسبب لي الارتياح قليلاً. تابعت رغماً عني وأنا أجرجر روحي القديمة التعيسة، دون أن أعرف كيفية التخلص منها، وكان هذا يزيد من شعوري بالذنب. لهذا، عندما عرض علي السيد بريدشت هذا القصر الهندي بستائره الرقيقة رقة نسيج العناكب المتطايرة، المحمولة بريح غريبة، وسألني إن كنت أرغب في الذهاب إلى هناك، بقيت مصعوقة من الفرح.

كان هذا كما لو أن العالم قد فتح أمامي باباً جديداً.

أعرف الآن أني على الأغلب سوف لن أذهب إلى أي مكان، ولدي اعتراف أريد أن أعترف به. كنت قد قررت ترك السيد بريدشت بعد أن نصل إلى الهند، هذا هو السبب وراء رغبتي في الذهاب إلى هناك. أريد الانخراط في بحر آلاف هؤلاء الناس، أن تتشابك حياتنا الواحدة مع الأخرى كما قطع البزل، ويبدأ كل شيء من الصفر.

اعترافات السيدة بريدشت ملأت إيما بحزن فطري. سوف يموتون. أصبحت كل المجموعة تعي ذلك من هذه اللحظة. تسرب الحزن إلى رئتيها. صرخت صرخة داخلية، رامون! وكجواب على هذه الصرخة طفت على السطح ذكرى اليوم الذي قاما فيه بنزهة في الهضاب.تسلقا دروباً ضيقة من الحصى، وأيديهما ملأى بحاجيات

النزهة. عند وصولهما إلى القمة، تأملا بإعجاب ابتسامة الخليج تحت أرجلهما. بسطا غطاء فوق النتوء الصخري وأكلا سندوتش بصلصة الأعشاب والتوابل، برتقال، وجاتو الشوكولا الحلو الطعم جداً. ثم أخذ رامون يد إيما بين يديه، وراحا ينظران إلى السماء حتى اتخذت الغيوم اللون البنفسجي.

نظرت إيما إلى أصابعهما المتشابكة وتفاجأت أن تكتشف أن أصابع رامون داكنة أكثر من أصابعها. لم يكن هذا طبيعياً، فجلد رامون أفتح لوناً من جلدها. لم تكن هذه عبارة عن ذكرى تماماً، ارتفع نظر إيما على طول ذراعه، كتفيه، وصولاً إلى وجهه. توقفت عن التنفس. إنه ليس رامون. كان رجلاً هندياً. تغيرت قسمات وجهه تحت أنظارها، أصبح له شارب، وغمازة واضحة، يضع نظارات مربعة الشكل على عينين كبيرتين، لكنه لم يزل شاباً هندياً. فهمت إيما أخيراً، عندما تأملته، ما كان يجب عليها تخمينه عندما لم تقاطع جملة والدتها أثناء حديثهما على الهاتف عندما قالت: «هذا سيعطينا وقتاً كافياً». بإمكان إيما الآن إنهاء جملتها «كي نقدمك إلى شاب هندي لطيف»، أتراها لأجل هذا لم تقل لرامون إلى أين هي ذاهبة اليوم؟ هل كانت فعلاً راغبة في لقاء هذا الهندي اللطيف الذي اختارته لها والدتها؟

حاولت ليلي أن تحكي بصوت هامس، لكن سمعها الجميع.

– جدتي هل تعتقدين أن تلك المرأة كانت شبحاً؟

بقيت الكلمة معلّقة في الهواء، خفيفة، كورقة شجرة. تهيأ لإيما أنها تشعر بحضور ما حولها... ليسوا طيبين ولا بمرعبين، لكن فقط أشخاص حائرين بحالتهم الشفافة الفجائية.

– أعتقد ذلك. أجابت جيانغ. عندما كنت شابة، سمعت الكثيرمن القصص المشابهة لأرواح هؤلاء الموتى تطوف في المكان الذي أنت فيه، ليحذروك.

عندئذ قالت ليلي:

– مات الكثير من الأشخاص في زلازل أرضية! ربما يستطيعون إنقاذنا؟

كان السيد بريدشت جالساً خافض الرأس. لم يكن يريد أن يلتقي بصره بأحد. لو فقط يستطيع الذهاب ليلتجئ في مكان لا يعود يرى فيه أحداً من المجموعة، لفعل ذلك. لكن عالمهم كان محصوراً بهذه الطاولات الثلاث. «الجحيم هو الآخر»[52] فكرت إيما في نفسها وهي تنظر إليه.

انطلاقاً من هذه الساعة أصبحوا في الظلام. كان يجب على كاميرون إضاءة مصباح الشعلة. للحظة، رفض المصباح أن يعمل. هل تسرب الماء إليه؟

«اترك سيفا». همس الصوت في رأسه «وسوف أُعيد تصليح المصباح». كان كاميرون يجهل صاحب هذا الصوت. هزّ المصباح بعنف حتى أضاء أخيراً. أجال بحزم الضوء في أرجاء الغرفة كي يتأكد من عدم وجود مشاكل أخرى. ترك دائرة الضوء لفترة من الوقت على جدار الكوة التي خلفها، جثة ممددة في الماء. شعر كاميرون بلدغة ألم في صدره، لكنه لن يستطع إرجاء قصته أكثر من ذلك.

---

[52] قول من الفكر الوجودي للفيلسوف جان بول سارتر.

15



عندما التقى كاميرون برجل الدين لأول مرة، لم يعرف فوراً أنه رجل دين وهو بهذا الشكل. من جهة لأنه لا يمت بصلة إلى الصورة التي كان كاميرون يأخذها عن رجال الدين: لا مسبحة، لا ثوب كاهن، لا تعابير ورعة على الوجه، ولا لحية. لكن أيضاً لأن كاميرون كان شارد الذهن في هذا اليوم. كان اليوم الذكرى الثلاثين - أو على الأقل يجب أن يكون قريباً جداً من هذا التاريخ - لعيد ميلاد ولده المتوفى، وكل عام يمر، كان الحدث يثقل عليه أكثر فأكثر.

كان يسافر في حافلة مكتظّة، وهو في طريقه إلى المضّيفة حيث كان يعمل كمتطوع مرة بعد ظهر كل أسبوع، مثله مثل رجل الدين. لكن كاميرون لم يكن يعرف بعد الرجل المدعو «جيف»، الذي كان واقفاً، يمسك بيده قضبان الحافلة، متأرجحاً عند منعطفات الطريق. كان أبيض اللون، بوجه رائع، يرتدي الجينز وقميصاً مكوياً حديثاً، حليق الرأس لكّن كما كانت الموضة آنذاك، بالكادكان كاميرون قد لاحظ وجوده .

كان كاميرون ينظر من النافذة، محاولاً أن يُلهي أفكاره. فالمناظر التي كان يراها تعبر من أمامه كانت مألوفة بالنسبة إليه بشكل

موجع. كانت تشبه تلك التي لطفولته، تلك الشوارع المخيفة التي هجرها نهائياً: واجهات عرض بالية مشبّكة، أكوام من النفايات، رجال بثياب رثة فاقدو الوعي تحت الردهات، بائعو مخدرات يجوبون الشوارع، يرصدون الزبائن، أو الشرطة. لم يكن بحاجة ليفتح زجاج الحافلة كي يعرف نوعية تلك الروائح التي تفوح من هذه الأماكن: الطعام الفاسد، العرق، البول، الماريجوانا، والضحك المفاجئ لشباب ينتظرون هبوط الليل. لكن عندما فُتحت أبواب الحافلة وهي تئز، فذلك كي يخرج منها كاميرون وجيف إلى ضوء الشمس، حيث أنغام الموسيقى الفرحة، ووسط رائحة ممتعة نسبياً لدجاج مقلي مع السمسم.

عاد كاميرون بأفكاره إلى الوراء، فدّوى صوت «إيماني» بوضوح في أذنيه لدرجة لم يحتملها، فجلس على المقعد عند موقف الحافلة ممسكاً رأسه بيديه، يعيد جملتها: «الآن، وبعد أن قررت الرحيل، فلن تعد ترى أي شيء جيد هنا، حتى ولو كان أمام وجهك».

توقف جيف ونظر إلى كاميرون بقلق:

– أنت بخير؟ أتريد القليل من الماء.

تردد كاميرون بالقول لهذا الغريب أن يتركه وشأنه، وليهتم هو بشؤونه الخاصة، لكنه اكتفى برفع يده كي يقول له إنه بخير. عندما ذهب جيف عاد كاميرون ليفكر في «إيماني» دون إرادة منه. كانت كما القشدة التي لا يستطع منع نفسه من إزالتها.

كانا هما الاثنين في السنة الأخيرة من الدراسة الثانوية عندما التقاها في أمسية. كان كاميرون، يتحاشى بشكل عام، هذه الأنواع من الأعياد التي يقيمها الأصدقاء، المصحوبة بشرب الكحول، والموسيقى

الصاخبة، ومغارز الإبر في بيت الدرج، وشجارات، وأسوأ منها أيضاً تلك التي تجري في الأزقة الضيقة للأبنية السكنية. لم يكونوا فعلياً أصدقاء، بل هم طلاب ممن يرتادون المعهد نفسه، ويقطنون الحي ذاته. لكن في هذا اليوم، كان قد انتهى للتو من إرسال آخر طلب من طلبات التسجيل الجامعي، وشعر أنه في مزاج احتفالي، وربما أيضاً نوع من الحنين، فكل ذلك سوف يغدو قريباً وراءه. كان واثقاً أنه سيتم قبوله في إحدى الجامعات الجيدة. كانت درجاته ممتازة، ورسائل التوجيه مفعمة بالحماسة، وهو يشكل فرداً من فريق ألعاب القوى، وقد تفادى كلياً المشاكل في السنوات الأخيرة، متّبعاً بذلك نصائح أستاذه في مادة البيولوجيا، الذي أصبح مرشده، وأخذ يعمل بانتظام كمتطوع في مستشفى الحي الذي هو فيه. كان مستشار التوجيه قد أعلن أن كل تزكياته، مضافاً إليها ماضي كاميرون الصعب ـ من فقر، ويتم، وكأول شخص في عائلته يحاول الدراسة في الجامعة ـ سيسمح له ولا بد من الحصول على منحة. في البداية، لم يفهم كاميرون تماماً اللهجة المتعجرفة للمستشار. هذا الرجل، كان كما الساحر من درجة ثانية، حوّل الحقيقة الصعبة لحياته إلى ورقة رابحة. رغب كاميرون لو استطاع الرد بجواب سريع لاذع، ويغادر المكتب ويصفق الباب وراءه. لكنه كبت رغبته. لو سمح له ذلك بالوصول إلى هدفه لربما كان تحمل قليلاً هذا التعالي.

كان كاميرون يريد أن يصبح طبيباً. لم يتحدث مع أحد أبداً حول هذا الطموح المكتوم ما عدا لأستاذه البيولوجيا.

كان أصدقاؤه سيسخرون منه فيما لو عرفوا، وعمته العجوز المتعصبة الممتلئة بالإرادة المطلقة والتي بواسطتها عاشت حياتها منذ

موت والديها. كانت ستهزّ رأسها قائلة: «أنت تطمح أكثر مما يجب يا ولدي». مصاباً بالعمى بسبب عشقه لإيماني جازف وباح بسرّه، وكانت تلك غلطة رهيبة.

في السهرة، شرب عدة كؤوس من البيرة. عندما رأى إيماني للمرة الأولى مدفوعة إلى وسط الغرفة من قبل مجموعة أخرى من الفتيات، لم يكن يعرف حتى اسمها. لم تكن ترتاد المعهد نفسه، وهو لم يسبق له أن رآها قط. قاومت الفتاة الشابة قليلاً أمام إلحاح صديقاتها، ثم أوقف أحدهم الموسيقا. عندئذ، عدّلت كتفيها وبدأت تغني، مستقيمة تماماً. كانت موهوبة، بالتأكيد، لكن لم يكن لديها أي شيء مميز، ففي الحي، كان لدى معظم العائلات فرد واحد على الأقل في فرقة الكنيسة.

ما الذي كانت تملك هذه الفتاة أكثر من غيرها حتى شعر أنه مشدود إليها بهذه الطريقة، لدرجة قطعت فيها أنفاسه؟ كان شعرها خشناً وجلد جسمها كامد اللون. كانت جميلة بسترتها الحمراء وتنورتها السوداء. لكن كان هناك فتيات أجمل منها في تلك السهرة. ربما كان ذلك مردّه إلى الشغف الذي كانت تغني به، وعيناها مغلقتان، مأخوذة باللحن. أو ربما هي الأغنية، النغمات المسكرة والخلابة لأغنية «رجُلي لا يحبني»[53]. لم يسبق لكاميرون أن سمع بهذه الأغنية قبل الآن، فتسللت إلى داخله واحتمت فيه كما الدودة الشريطية كي تظهر نفسها على هواها. سوف تدفعه عبر الغرفة حتى يصل إلى إيماني، يقدم نفسه إليها، ويقترح عليها أن تأخذ كأساً معه ويسمعها تتحدث، منبهراً، لكن

---

[53] My ,am don't love me : أغنية لـ بيلي هوليداي.

دون أن يحفظ أي كلمة مما كانت تقوله. في نهاية الأمسية، على خلاف عاداته أعطاها رقم هاتفه، وسجّل رقمها، واتفقا على موعد في السينما في اليوم التالي. ربما لأجل هذا كان محكوماً على علاقتهما منذ البداية بالفشل، فالشخص الذي وقعت إيماني في حبه لم يكن أبداً كاميرون الحقيقي.

استمرت علاقتهما طوال فترة الشتاء حتى بداية الربيع. كان كاميرون يسرع في عمل واجباته قبل الذهاب للعمل في المخزن الكبير، حيث يشغل منصب عامل نقل وتفريغ البضائع، كي يذهب بعدها ليلتقي بإيماني بعد نهاية خدمتها في مطعم برغر كينغ. أحياناً، أيام الجمعة مساءً، كانا يذهبان إلى المرقص أو إلى السينما. لكنهما كانا يقضيان أغلب أوقاتهما في سيارة الشيفروليه القديمة لكاميرون المركونة في شارع هادئ بحيث لا يكونا عرضة لإزعاج، لا من العصابات ولا من الشرطة. كانا يتناقشان، يستمعان إلى الموسيقا، ويغنيان... أو يتداعبان. في الأماسي التي لم تكن والدة إيماني تعود فيها إلى البيت كانا يذهبان إلى شقة كاميرون. يحضر لها سندوتش الجبن المذاب ويصغي إليها وهي تغني. بعد ذلك كانا يبقيان متعانقين في السرير. أطلعته على غموض الجسد الأنثوي، وكان كاميرون يشعر بالاسترخاء الذي حتى الساعة كان غريباً عنه تماماً. عادة، كان يبقى كل الوقت منشغلاً، يمتحن، أو يتحدّى... لكن في تلك الساعات، كان يتملّكه شعور بالرغبة والاستلقاء هنا وحتى الأبد.

ثم بدأ يزهر الغار، وغادرت طيور الصّفارية[54] نحو الشمال،

---

[54] الصّافر: طير يتميز بريشه الأسود والأصفر.

وأرسلت الجامعات رسائلها للقبول، وتسارعت العلاقة بين كاميرون وإيماني التي توقّعت بعد استلامهما للشهادة أن تزيد من ساعات عملها عند برغركينغ (قالت لها والدتها أن الوقت قد حان لتشارك في الإيجار) وتتابع دروساً بدوام جزئي في الجامعة التي على الزاوية. لم تفهم لماذا لم يكن كاميرون يرغب أن يقوم بالمثل. كان مدير المتجر الكبير يحبه كثيراً. قالت لها صديقتها لاتيسيا التي تعمل في ذاك المتجر كمحاسبة على الصندوق، أن المدير قد عرض عليه وظيفة مساعد مع ميزات معتبرة. وخلال بضعة سنوات ـ قالت إيماني لكاميرون ـ نستطيع التوفير قليلاً. نأخذ شقة نحن الاثنين ونتزوج...

اقترحت ذلك بابتسامة خجولة.

أجاب كاميرون أنه يجد هذا النوع من الحياة خانقاً. فحملقت بعينيها كما لو كان على وشك أن يصفعها. أخذت تبدو لها المرات النادرة التي غنّت فيها من الآن وصاعداً، مثل أغاني البلوز التي قد عشقها في السابق كأغنية «يقول أني مجنونة» بدت لها ثقيلة في عتابها. كانا يتشاجران يومياً تقريباً كلما التقيا. كانت إيماني تبكي وتلتمس من جدتها التوقعات والتكهنات، بممارسة نوع من الشامان الجامايكي. يشعر كاميرون أنه مذنب فيقوم بجهده كي يحاول مواساتها. لو كانا يعيشان في شقتهما الخاصة لانتهى كل هذا في الفراش. مرّت لتراه في المتجر الكبير بالضبط، في اليوم الذي عرف فيه أنه قُبل في جامعة معتبرة، ويستطيع الاستفادة من منحته بفضل الرياضة، وبسبب إثارته وانفعاله أعلن لها عن الخبر. سخرت منه واتهمته بأنه يتحدث بصوت عالٍ كي يسمعه زملاؤه في العمل ويغاروا منه. كانت تلك هي القشة التي قصمت ظهر البعير، كانت تريد أن

تسخف له هذه اللحظة، تبدد له نجاحه. قادها حتى المتنزّه كي يقول لها أن كل شيء قد انتهى بينهما، وهنا، أخبرته أنها حامل. رأى بوضوح رعبها، لكن خلف هذا الخوف كان هناك ثغرة تدل على نوع من النصر: يتوجَّب عليه الآن البقاء معها وتحمّل مسؤولياته.

كان كاميرون غاضباً ومرعوباً، لديه شعورُ أن الغيتو[55] ينغلق عليه. قال لإيماني بأنه يرفض أن يُدار. سوف يذهب إلى الجامعة. إن كانت تعتقد بأنها ستمنعه فهي على خطأ. لذلك ينصحها بأن تجهض. سوف يجد المال اللازم لذلك، وليس بإمكانه القيام بأكثر من هذا.

عندما سمعت كلمة «إجهاض» توقفت إيماني عن البكاء وظهرت هادئة بشكل غريب، فسألته:

- أتريد قتل طفلنا؟ أنت فعلاُ إذاً جاهز لكل شيء فقط كي تبتعد عن عالمك!

قال لها كاميرون أن ما يراه حوله كل يوم ليس عالمه، وهو ليس الوحيد الذي يرغب في الهرب من الغيتو. في الحي، ينتسب الكثير من الشباب إلى الجيش ويجدون أنفسهم يحاربون في الأدغال الفيتنامية. كانت إيماني تلوي يديها. لا، بل كانت بالأحرى تقوم بحركات غريبة بأصابعها. كانت ترسم شكلاً في الهواء. هل كانت على وشك أن ترمي عليه نوعاً من الفودو[56]؟ دفع عنه بعيداً هذه الفكرة المرعبة. ردّت بعنف: لن يجدي الهرب معك في شيء. أينما ذهبت سوف يكون هناك رماد في فمك.

---

[55] Ghetto: بيئة ثقافية معزولة.

[56] الفودو: عبادة في الكاريبي وهايتي تمتزج فيها التقاليد المحلية بالعبادة الكاثوليكية.

عبرت المتنزّه. أراد اللحاق بها والإمساك بيدها والقول لها أنه متأسف، لكن علاقتهما كانت تسير في طريق مسدود ولم يكن لديه القوة في عبور اليسر والعسر الذي فيها في الأشهر الأخيرة. سوف تعود إليه بالتأكيد قريباً، على الأقل لأجل المال.

في الأسابيع التالية، انتظر ـ في البداية بفارغ الصبر، ثم بقلق، وأخيراً بشعور غريب بخيبة الأمل ـ أن تومئ له بإشارة. لكن دون جدوى. ذات يوم، أوقفته لاتيسيا في رواق المعلبات وقالت له أن إيماني قد أجهضت الأسبوع الماضي. لم يكن يرغب بسؤال لاتيسيا، التي لم يكن يحبها، عن حال إيماني. حاول أن يسألها إن كانت إيماني بحاجة إلى المال. لكن لاتيسيا حدجته بنظرة سوداء ودارت على عقبيها. شعر كاميرون بضيق شديد، لكنه وهو في عزّ تحضيره للذهاب إلى الجامعة لم يكن لديه الوقت ليكرّسه لكل هذا.

أضاع كاميرون الوقت في إعادة وتكرار ذكرياته بطريقة مملة، وهو جالس على مقعد موقف الحافلة. كان قد تأخر، وهذا ما أزعجه، ركض كي يجتاز الشوارع الأخيرة (حتى ولو كان الركض في هذا الجو الذي يعبق بغاز عوادم السيارات سيثير لديه نوبة من الربو) وصل إلى ملجأ وحدات العناية المسّكنة يرشح عرقاً. لم يكن العرق في الحقيقة هو مشكلة بما أنه سيعمل في الحديقة.

عندما بدأ كاميرون عمله كمتطوع كان يحاول عدم الاحتكاك مع السجناء ـ هكذا كان يرى كاميرون المرضى، سجناء محكومين بالأبدية ـ كان يجب عليه الجلوس معهم، يقرأ لهم ويسوي لهم وسادتهم في مكانها. لكن التفكير في المحاكمة المحتومة للموت كانت تجعله متوترا وعدوانياً، لهذا، بعد عدة حوادث، طلبت منه إدارة الملجأ أن من

الأفضل له بالأحرى الاهتمام بتحويل الأرض البور المتاخمة للملجأ إلى بستان مزهر. وهكذا أصبح باستطاعة هذا الملجأ أن يعتدّ بحديقة رائعة من السوسن والزنبق، حيث كان المساعدون يأخذون المرضى في نزهة في الكراسي المدولبة، كي يستفيدوا من السكينة، ويتأملوا العصافير الطائرة حول معلف مطلي بالألوان الفرحة.

بينما هو يسرع للالتحاق بخلفية المبنى حيث كان قد ركن أدوات البستنة، تفاجأ لرؤيته جيف يخرج من غرفة أحد المرضى. حاول جيف تبادل الحديث معه، لكن كاميرون قام بخطوة جانبية كي يتحاشى وجوده مواجهة أمامه ويضطر أن يجامله بتحية صباحية. بعد نصف ساعة من ذلك،عندما رأى كاميرون جيف يطوف في حديقته (لأنه يعتبر أنها حديقته الخاصة) انتابته رعشة من الغضب. هل تبعه هذا الرجل؟ أدار كاميرون ظهره لهذا الدخيل وتابع زرع شتلات السوسن. جلس جيف على مقعد، وبدأ يأكل شطيرة وهو يتأمل الغيوم. بعد أن أنهى وجبته، أغلق عينيه، وهو لم يزل جالساً على المقعد. بعد ساعة من ذلك الوقت قام وذهب. حائراً من هذا الصفاء، استعلم كاميرون قليلاً عنه، وعلم أن جيف هو راهب بوذي علماني. طلبت منه إدارة الملجأ أن يأتي كي يساعد المرضى البوذيين.

في الأسابيع التالية، كان كاميرون يشاهد جيف في كل مرة يأتي فيها إلى الملجأ. يأكل جيف في الحديقة ويتأمل فيها. كان يوجه دوماً إشارة مجاملة من رأسه نحو كاميرون، لكنه لم يحاول الحديث معه. ذات يوم، تفاجأ كاميرون لرؤيته جيف محبطاً قليلاً، فهو لم يأكل وجبته وبقي فقط جالساً على المقعد يفرك عينيه المحمرّتين، فذهب كاميرون إليه مستطلعاً ليعرف ما المشكلة.

- مات لويز، قال الراهب.

أجاب كاميرون أن هذا الأمر ربما يكون جيداً. فلويز كان شاباً شبيهاً بالهيكل العظمي، مصاباً بالسيدا، وهو يتألم منذ عدة أشهر.

- كان خائفاً جداً من الموت، قال جيف وهو يضرب المقعد بقبضته وتابع قائلاً: لم يستطع أي شيء مما قلته له أن يقويه.

ترك كاميرون جزازة العشب وجلس بالقرب من جيف على المقعد. وكانت تلك بداية صداقتهما.

أمام خيبة أمله الكبيرة، كانت نتائج كاميرون محبطة في الجامعة. أُصيب في البداية بعدة أنواع من الحساسية ما لبثت أن تحولت إلى ربو، ربما كان هذا عائداً إلى تغيير المناخ، لكن لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير بأن هذا كان عقاباً. ساعده دواء البرانكلي في البداية على التنفس، لكن توجّب عليه سريعاً أن يزيد الجرعة حتى يفعل الدواء فعله. كان لديه الشعور الدائم أنه تحت الماء. فشل أيضاً في ألعاب القوى في التوصل إلى النتيجة المثلى التي ينتظرونها منه. كانت كلمات إيماني تدوّي في أذنه حتى تصل إلى عظامه: «أينما ذهبت...».

احتفظ المدرب به لمدة عام في الفريق، لكن منحته لم تتجدّد مرة أخرى. كان ذهنه هو الآخر يغرق. يبقى جالساً لساعات في مكتبه، أمام دفاتره وكتبه التي تظهر أمامه وكأنها قد كُتبت بلغة أجنبية. أثناء المحاضرة حيث كان في الغالب الطالب الأسود الوحيد، لم يكن يشعر أنه على المستوى المطلوب. فأغلبية الطلاب كانوا من عائلات الذوات، ومداخلاتهم الملائمة كانت تحرجه لدرجة ترميه في الصمت، صمت كان الأساتذة يعتبرونه نوعاً من فقدان الحس.

خارج الحصص الدراسية، أبعد نزقه عنه الطلاب الذين حاولوا مرافقته. في الوقت الذي فهم فيه أن من الأفضل له الذهاب إلى إحدى جامعات الدولة ليكون بذلك قريباً من أقرانه، تدنت درجاته، ولم يعد يملك قرشاً. غادر الجامعة وهو خجول جداً من أن يكتب لأستاذه البيولوجيا، الذي ربما كان سينصحه نصيحة طيبة. تجاوز مشاكله الصحية وتطوّع في الجيش كي يرى نفسه يسقط في فيتنام خلال الأيام الأخيرة من الحرب اليائسة.

بدأ كاميرون يقضي أوقاتاً أطول أكثر فأكثر بصحبة جيف، الذي كان يملك شقة صغيرة في ميسن ديستريك ويعلّم مادة الديانات المقارنة في الجامعة المحلية. كان أيضاً متطوعاً في دير صغير تيبتي، يمد قليلاً يد المساعدة في كل المجالات، من الأوراق الثبوتية لمشاكل السّبّاكة مروراً بوسائل نقل الرهبان الذين هربوا من التيبت إلى قرية صغيرة في هيمالايا. في بعض الأيام كان يطبخ. كان يجهّز أطباقاً غريبة من الطعام معتمداً في الأساس على معكرونة عريضة مسطحة، من التوفو والطحالب، أو حتى من الفطر الذي كان يعاود شكله عندما ينزله إلى الماء. أطباق نظر إليها كاميرون في البداية نظرة شك، لكنه تعلّم كيف يستذوقها. لم يكن جيف قدّيساً، كان يبدو في كثير من الأحيان نافد الصبر، ولا يقبل بسهولة أن تسير الأمور عكس ما يرغب. لكن كاميرون كان يتأمل بإعجاب، كيف كانت ابتسامته تعود إليه بطرفة عين. كان جيف يجيد السمع ولا يقاطع كي يعطي النصائح، وكاميرون بدوره كان يقدر تلك الخاصية بشكل كبير. في إحدى المرات، وهو جالس على شرفة جيف يرتشف قهوة ساخنة جداً، تفاجأ أنه شاركه بأسرار لم يتحدث بها مع أحد. بدأ حديثه عن عمله

الحالي. فقد كان رئيس الأمن في بنك كبير وسط المدينة. والمسدس الذي كان يحمله في حزامه كان يُثقل عليه كل يوم أكثر فأكثر. يعيش في أستوديو صغير جداً في حيّ راقٍ، لكنه كان يطلّ على المحيط. كل صباح يضع أنبوب استنشاقه في جيبه ويخرج ليركض. عندما يصفّر الهواء في أذنيه، كان ينسى كل شيء، خاصة القرارات التي يأسف عليها اليوم. كان يأخذ أقراص منومة كي يتمكن من النوم. كان يعاني من القلق ويكره هذه الحالة، لكنه كان يخاف أن ينام بسبب الكوابيس. منذ أن غادر الجيش لم تستطع أي من نشاطاته ـ من مد يد المساعدة في بيت المسنين إلى تقديم الحساء للأشخاص المشردين، وإعطاء المال للجمعيات المساعدة للأطفال المضطهدين ـ أن تضع حداً لكوابيسه. والأسوأ من ذلك، تلك الذكرى لطفل صغير يطفو في غرفة بيضاوية الشكل. كان الطفل يفتح عينيه السوداوين الواسعتين وينظر إليه دون أدنى لوم، وكان هذا أقصى ما يمكن احتماله.

قصّ كاميرون لجيف عن مهماته في البلاد الحارة الموبوءة بالبعوض، وعن الشيوعيين المزعومين الذين كانت ثيابهم الرسمية وحدها توحي بالخوف والكراهية. وصف الرجال الذين نقلهم، أحياناً بلا مبالاة، لأن حياتهم لم تكن تبدو بالنسبة إليه حقيقية كما حياته. هنا أصبح جيف كامداً، لكنه وضع يده على كتف كاميرون وتركها هناك.

بعد أن قصّ كاميرون على جيف كل ما استطاع تذكره، حتى موت والديه في حادث سيارة عندما كان في الثانية عشر من العمر، حدّثه عن لعنة إيماني. لم يكن جيف يؤمن باللعنات، لكنه يؤمن بالنتائج. شعر أن كاميرون قام ما باستطاعته كي يكفر عن أعماله

في الحرب. لكنه لم يتوصّل بعد للتكفير عن الإجهاض.

كان كاميرون يعرف تماماً أنه لا يستطيع الذهاب للبحث عن إيماني كي يطلب الصفح منها. فهي بالتأكيد متزوجة الآن، وبظهوره هكذا في حياتها يخاطر في أن يؤلمها أكثر. كان متقدماً في العمر كثيراً، ومتعلقاً أكثر بعاداته كي يتمكن من تبنّي طفلاً، ويصبح والداً، ويكرّس وقته لأجل هذا. تذكر جيف أن الرهبان كانوا قد حدثوه عن أيتام في جبال الهند البعيدة. فماذا لو اتصل كاميرون كي يتبنّى أحداً من هؤلاء الأطفال؟ وعندما يحين الوقت باستطاعته أن يزوره. ربما عندما سيرى الطفل، ويأخذ يده بين يديه ويشعر بقوة العالم تجري بينهما، سيشفى أخيراً.

مدفوعاً بهذا الأمل الجديد، اتصل كاميرون بدار الأيتام حيث جعلوه ينتظر بعض الوقت حتى أعطوه الجواب. بذل كاميرون جهده عدة مرات كي يمنع نفسه من إرسال طلب جديد أو أخذ طائرة للذهاب إلى المدينة الأكثر قرباً من الميتم ومن ثم الذهاب سيراً على الأقدام حتى أبوابه. كي يحصل على جواب ملائم، ضمّن طلبه أن رغبته نابعة من حب بالإنسانية، وليست يأساً (كان المسئولون يُظهرون أقصى درجات الحرص، فقد روى له جيف قصصاً عن تجارة الأطفال التي منها توجّب أخذ الحيطة) اكتفى الميتم بإرسال صورة مرفقة ببعض المعلومات. لم تكن ولداً كما سبق وطلب كاميرون، لكنها بنيّة صغيرة نحيلة جداً كانت قد تُركت أمام الباب منذ عدة سنوات خلت. هذا لا يهم. منذ أن رأى الصورة الغير واضحة بالأسود والأبيض، للطفلة في ثوبها الكبير جداً عليها، وعينيها المزمومتين بسبب الشمس، عرف كاميرون أنها كانت هي المطلوبة.

أرسل المال اللازم كي يصبح عرّابها ويطلب الإذن بزيارتها. لكن دار الميتم أعلمته أنه من المستحسن عدم الاستعجال. فالعرابون يضجرون أحياناً من هذه الصفة، فإذا ما سبق وقابلهم الأطفال، ومن ثم تخلّوا عنهم، فسوف يشكل هذا بالنسبة لهم هجراً آخر. باستطاعة كاميرون أن يكتب لسيفا ـ كان هذا اسم الفتاة الصغيرة ـ وسوف تترجم كتاباته ويقرؤونها لها. خلال عام أو اثنين عندما ستتعلم الكتابة، سترسل إليه كلمات قليلة باللغة الهندية. لكن حالياً، هل يسمح في ملء الاستمارات المرفقة بالرسالة للتحقق من حياته السابقة، ويقوم بإرسال رسائل التوصية فوراً إلى دار الأيتام.

شعر كاميرون بنفاد الصبر، وبهذا الغضب الكبير القديم يغلي داخله، لكنه اتبع تعليمات الرسالة. كل شهر، كان يكتب لسيفا. وفي كل عام كان الميتم يرسل إليه صوراً لها مأخوذة من إحدى النشاطات، كأوقات الغداء، أو أوقات اللعب، ويقضي ساعات في تأملها. منذ العام الماضي بدأ يستلم من وقت لآخر بعض الأوراق المسطّرة المغطاة بكتابة طفولية كان صاحب البقالية المتاخمة لمنزله يفكّ له حروفها. انتبه فوراً كاميرون أن لسيفا طبعاً قاسياً، فإلى جانب تعابير الشكر المألوفة والأمنيات بصحة جيدة، كانت تعلمه عما يجري في حياتها: عن القطط الصغيرة في دار الأيتام التي التُهمت خلال الليل، ولابد أن يكون القيوط[57] الكبير قد التهمها. صديقها بيغلي الذي تاه في الأدغال عند نهاية المكان المخصص للعب، بالرغم من التحذيرات، وهو الآن يعاني من حكّة فظيعة، وهي قد أخذت نتائج جيدة جداً في اختباراتها، ماعدا في

[57] القيوط: حيوان برّي يشبه الذئب يعيش في قارة أمريكا.

الرياضيات، التي لم تستطع أن تفهمها. دفعتها صديقتها أنيل في الطين أثناء الجري في حصة الرياضة، فجعلهما السيد أهوجا تبقيان واقفتين في الباحة كل فترة بعد الظهر كعقاب لهما. السيد أهوجا له شامة كبيرة مشعّرة على وجنته اليسار.

شعر كاميرون بالقلق قليلاً من جراء قصة العقاب هذه، لكن جيف استشار الرهبان وشرح لكاميرون أن هذا العقاب يعدّ سهلاً جداً بالمقارنة مع ما تنفذه المدارس الأخرى. قال كاميرون أن الوقت قد حان كي يذهب لرؤية سيفا. وربما يستغل الفرصة أيضاً للتحدث قليلاً مع السيد أهوجا خلال إقامته هناك. كتب رسالة إلى الميتم ملمحاً أن باستطاعته سحب سيفا من دارهم وأخذها إلى منشأة أخرى أكثر ترحيباً، إذا ما رفضوا السماح له بزيارتها. أرسل الميتم بجواب فوراً: السيد غراند مرحبٌ بقدومك إن رغبت بالمجيء. أخبر كاميرون سيفا بزيارته، وتلقى رسالة منتشية كتبت له فيها قائمة الأماكن التي سوف تأخذه ليراها عندما سيكون هنا. احتفظ بتلك الرسالة في محفظة نقوده. طلب إجازة غير مدفوعة الأجر من مدير عمله، وفيزا لمدة عام من قبل الحكومة الهندية. فكر كاميرون أنه باعتباره غير مرتبط، وزيادة على أنه أفرو أمريكي، فسوف لن يحصل إطلاقاً على رعاية سيفا. لكن، بينما هو يتجوّل في أروقة مخزن الألعاب ويملأ حقيبته بالهدايا القادرة على إضفاء السعادة على الطفلة وهي في عامها الثامن، تساءل إن لم يكن سوف يبقى في الجبال. ربما استطاع بذلك إقناع الميتم بطرد السيد أهوجا وتوظيف أستاذ رياضة آخر عوضاً عنه.

ثم، حدثت الهزّة الأرضية.....

16



كان كما لو أن المارد النائم في أعمق أعماق الأرض قد سمع كاميرون يتلفظ باسمه، قبل أن يستطيع الجندي من متابعة جملته، وقبل أن يقارن الآخرون قصته مع حكاياتهم، قبل أن يشعروا بالإعجاب، أو الحزن أو الامتنان، بدأ البناء بالاهتزاز مطلقاً صوت دمدمة. وراح شيء ما ينسحق فوق رؤوسهم، ونوع من التماوج يجتاز السقف، الذي بدا لهم فجأة أنه أشد رقّة من ورقة.

- إنه الاحتجاج! صرخ صوت قائلاً.

- أخذ شخص في الصراخ، وآخر في البكاء. وشرع رجل في الصلاة: «يا إلهي، اعمل على أن ينتهي هذا بسرعة!».

رمت إيما نفسها مع الآخرين في الماء المثلج كي تصل إلى إطار الباب، وهي تقوم بذلك، تساءلت ماذا يقصد الرجل بقوله: أن ينتهي هذا بسرعة: هل يقصد أن ينتهي الزلزال، أم سجنهم، أم حياتهم؟

أرادت أن تحتج قائلة: انتظروا قليلاً، فأنا لم أحكِ بعد حكايتي.

لم يكن هناك إلا شخص واحد معها تحت الإطار، وهو السيد بريدشت الذي تخلى عن الشال الذي أعاره له طارق، وبدأ يرجف وهو في ثيابه الداخلية. بدا وهو دون ثياب أكثر هشاشة مما اعتقدت

إيما. أمسك بحافتي الإطار بذراعيه النحيلتين ذاتي العقد، الممدودتين كالصليب كما في لوحات الشهداء الكاثوليكيين في القرون الوسطى. أرادت إيما لو تختبئ تحت إبطه كي تكون في ملجأ. كان الماء قد وصل إلى منتصف فخذيها، وعندما توقف البناء عن الاهتزاز، انتبهت إيما إلى أن البرد كان يخدر ساقيها بينما ذراعها المجروحة راحت تمضّ بقوة. ترددت في وضعها في الماء المثلج. لاحظت بعد ذلك أن هناك شخصاً غائب عن إطار الباب. تفحصت العتمة، كانت تعلم من هو الغائب. فصرخت باسمه: كاميرون.

كان الجندي منكمشاً على نفسه فوق الطاولة، آخذاً شكلاً جنينياً. قالت إيما في نفسها إنه يشبه ذلك الطفل الذي كان يراه في أحلامه.عند سماع اسمه، فتح عينيه، ورماها بنظرة الطفل إياها، الفارغة من الملامة. كان يمسك بمصباح الشعلة في يده وقد وضعوا فيه آخر البطاريات منذ دقائق خلت. رفع كاميرون برفق معصمه ليعبر لإيما أن المصباح بأمان معه، حتى يستطيع أن يمرره لها.كان فتات من الجبس يفترش طاولته، وجهه، وذراعيه، لكن لا يبدو أنه قد جُرح. تقدمت إيما حتى الطاولة مجتازة الماء الأسود اللون، الذي يحوي ذاكرتهم الحفظية، ومستنقع ذكرياتهم، والذي توصل إلى أن يستخرج من أعمق أعماقهم أسرارهم الأكثر قتامة. بدا السقف وكأنه متماسك، لكن حتى ولو لم يكن كذلك فهي لا تزمع على ترك كاميرون وحيداً. على كل حال، سوف يموتون جميعاً، إلا إذا ما حدثت أعجوبة ما، وبسرعة. وضعت إيما يدها حول جسم كاميرون فبدا لها بارداً بشكل غير طبيعي. لكن، كيف بإمكاننا تعريف «الطبيعي» في ظروف كهذه؟ كان قلبه ينتفض كعصفور وقع

في الفخ. كانت تسمع صوت رئتيه تصفران عند كل شهيق. نظر إليها ووجّه نحوها ابتسامة ضعيفة. أمام صمته، بدت لها كلمات الأمل والرجاء التي أزمعت قولها له كلغو مخيف. ثم، من هي حتى تقدم الدعم؟ ألم تسبب الألم لكل المقربين إليها؟ إلى رامون، لأنها لم تحبه كما أحبها؟ ولوالدتها لأنها لم تصغِ إلى دروسها في وجوب أخذ الحرص؟ وإلى والدها، الذي، عندما كان بحاجة للتحدث مع أحد أدارت له ظهرها؟ «سامحوني» قالت لهم في قلبها. لكن هذه الكلمات لن تؤدي إلى السلوى التي كانت ستصل إليها بمعانقة الجسد الأمومي البدين، أو بفرك باطن يدها على خد والدها المطبوع باللون الرمادي بسبب لحية المساء، أو الاستناد إلى جذعه الهش واستنشاقعطر ماء كلونيا الأولد سبايس، ذاك العبق المألوف لطفولتها.

بدا أن الاحتجاج قد انتهى، جازف الآخرون بأنفسهم وتركوا إطارات الأبواب للقيام بتقدير للأضرار، رافعين أنظارهم القلقة نحو السقف. جيانغ، الذي أصبح وجهها الآن ساخناً ومحمّراً، نصحت إيما أن تُجلس كاميرون، كي تُسهل عليه عملية التنفس. ساعدتها ليلي لجعله يستقيم. غدت رائحة الغاز الآن قوية بشكل واضح، لكن لم يعلّق أحد هلى هذا الموضوع. عاودوا الصعود إلى الطاولات، جلسوا وركبهم مضمومة إلى صدورهم، بعد أن حاولوا تجفيف أقدامهم قليلاً بما بقي من الساري السابق المصبوغ بلون الأمل. قيّم مانغالام مستوى الماء وأعلن أنه إن بقي يرتفع على هذه الوتيرة، فالطاولات سوف تُغطى نهائياً بالماء بعد ساعة تقريباً، عندها، يتوجب عليهم استرجاع الكراسي المركونة جانباً في زاوية الغرفة كي يضعوها على

الطاولة، ويجلسوا عليها. باستطاعة كل طاولة احتواء كرسيين، مما يعني أن ثلاثة أشخاص منهم سيأخذون الكراسي إلى غرفة مانغالام حيث الطاولة أكبر حجماً. لكن بقي الآن ما يكفي من الوقت لأجل الحكاية الأخيرة، قبل أن تفترق المجموعة.

لم يسبق لي أبداً أن افتقدت والديّ بهذا الشكل، بدأت إيما كلامها. عندما ذهبت إلى الجامعة، كنت لا بد فتاة أنانية دون قلب، كما أغلبية المراهقين. تقبلت والدتي الأمر بشكل سيء، لكن والدي...

انكمش الجميع من جراء صوت ضجة فوق رؤوسهم، لكن لم يكن هذا صوت هدير زلزال آخر. تناهى إلى سمعهم صوت دقّ، كشط، طقطقة، كما لو كانوا يكدسون الأثاث. خُيل إليهم أنهم سمعوا صوت محركات تدور، وباب يصطفق.

– إنهم أشخاص! صرخ طارق، إنهم فرق الإنقاذ!

رفع الجميع أنظارهم واختلطت على وجوههم مشاعر الحماس مع مشاعر عدم التصديق. تمسك الواحد منهم بالآخر، وضعت السيدة بريدشت وليلي أيديهما كمكبر صوت كي تصرخا طلباً للمساعدة، وانضم الآخرون إليهما. لكن لم يأخذوا أي جواب من الأعلى. أضحى الضجيج أكثر ضعفاً، كما لو كانوا يبتعدون. سقطت قطعة كبيرة من الجص في الماء، فتوقفوا عن الصراخ، مرعوبين.

وقف طارق على الطاولة ورقبته ممدودة يريد أن يرى عبر الثقب الذي في السقف، لكن لم تكن تلك بالزاوية المناسبة لمعرفة مصدر الصوت.

– سوف أذهب إلى الطرف الآخر من الكوة. أعلن قائلاً، وأتسلق

على كرسي، أو أي شيءٍ آخر، وأحاول أن أرى ما الذي يجري.

رمى بنفسه راشقاً الماء من حوله.

– سآتي معك، قال مانغالام وهو يأخذ مصباح الشعلة. نستطيع أن نربط قطعة قماش على طرف عصا ونحركها عبر الثقب.

السيد بريدشت الذي ارتدى بنطاله المبلل بصعوبة، سارع باللحاق بهما. رغبت إيما باللحاق بهم هي أيضاً، لكن كاميرون كان مستنداً على ذراعها السليمة ولم ترغب في إزعاجه.

– حذّريهم، همس كاميرون قائلاً. هناك جثة في الماء... وقعت من الأعلى عندما انهار السقف.

حدقّت إيما به، مصعوقة بهذا الخبر. حتى الآن، لم تكن تتقبل موتها، وفكرت أنها كانت قد فهمت ماذا كان يعني ذلك، لكن هذا في النهاية يبقى مفهوماً مجرداً. هذا الجسد، الذي على مسافة مترين على الأقل من المكان الذي هم فيه، المنتفخ، المطاطي والآخذ في التفسخ، كان دليلاً حسياً لما يمثله الرعب من الموت.

لكزها كاميرون لكزة صغيرة.

– لا تصرخي... قد يسبب هذا دبّ الرعب في الآخرين. اذهبي وقولي لهم ذلك. لا تقلقوا لأجلي، سأكون بخير.

– هيا اذهبي، سوف أعتني به. أضافت مالاتي الجالسة قرب كاميرون.

شعرت إيما بالذراع المتينة لمالاتي، وبسوارها الذهبي، تحيط جذع كاميرون. جعلها هدوء مالاتي في مواجهة ما سمعته للتو تشعر بالخزي قليلاً.

فكرة القفز في الماء حيث تطفو جثة، أربك الفتاة الشابة، لكن

كـاميرون كـان بالانتظـار. نزلـت عـن الطاولـة بحـرص، دون أن تستطيع كبت مشاعر الرعب والقرف. التفّت حـول الكـوة وتوقفـت عند مدخل غرفة الانتظـار. كـان السيد بريدشـت منحنيـاً للأمـام، تماماً تحت الثقب الفاغر فاه في السقف. مـن المفـترض أن تكـون الجثة في هذا المكان. تخيلت إيما الهبوط الثقيل، وتمنـت أن يكـون الرجل قد قضى نحبه قبل سقوطه، وألا يكون قد غرق في لجة هـذا الماء الأسود. كان طارق ومانغالام منهمكين في سحب الكنبة، يريدان وضعها على جانبهـا في المكـان الـذي يعمـل فيـه السـيد بريدشـت. سوف يتسلقها واحد منهم، بينما الآخر سيمسك بها كي لا تقع.

– أعلن السيد بريدشت قـائلاً: عنـدما سأفسـح مجـالاً صـغيراً، يجب إيجاد عصا نربط فيها قطعـة مـن القمـاش. هـل باسـتطاعتكم مساعدتي؟

ووضع ذراعه في الماء.

– لا! صرخت إيما. ارجع!

لكن الوقت كان قد فات. في ضوء المصباح الـذي صـوّبه مانغـالام عليهما، رأت إيما الصدمة على وجه السيد بريدشت وهو يترك مـن يده شيئاً ثقيلاً، ناشـراً حولـه بقعـاً كـبيرة مـن المـاء، وتراجـع إلى الوراء. سمعته يتعثر في العتمة، اجتاحته نوبـة مـن الغثيـان، فكـان هناك صوت آخر في الماء. صرّت إيما على أسنانها وذهبـت مسـرعة باتجاه الجثة كي تنضم إلى السيد بريدشت.

– لقد لمستها، همس لاهثاً بين نوبتي قيء، بينما كانت تساعده على النهوض.

– شوووت، سيمر ذلك بأمان. قالت له وهي تفرك ظهره.

– ما الذي يجري؟ سأل طارق من الجهة الأخرى من الغرفة.

شرحت له إيما الأمر، فترك الكنبة تسقط من جهته وهو يطلق شتيمة.

بدا مانغالام أقل تأثراً بهذا الخبر، وأصبحت هيئته أكثر هدوءاً من ذي قبل. فضعف كاميرون أجبره أن يتحمل هو مسؤوليته التي كان يجب عليه أن يحملها منذ البداية.

– نستطيع تحاشي تلك المنطقة. ضعوا الكنبة هنا، بهذا الشكل لن نكون مرئيين، لكن سيفي ذلك بالغرض. يجب أن نسرع. إن كان هناك أشخاص في الأعلى يجب أن نعطيهم إشارة لنقول لهم أننا محاصرون هنا، وإلا فسوف ينتهون من عملهم بسرعة ويذهبون. أيها السيد بريدشت أمسك الكنبة من هذا الجانب. خذي إيما العصا الموجودة هناك، عند الحائط.

عملوا ما طلب مانغالام منهم. لاحظت إيما أنها كانت تستطيع تحريك جسمها وذهنها بشكل طبيعي إن هي ركّزت على مهمتها ولا تعود للتركيز على الجثة الطافية على بعد أمتار عنها والتي لوثت لها عقلها. لم يكن يلزم لهم أكثر من بضع دقائق كي يضعوا الكنبة على جنبها. تسلق طارق فوقها، ورفع العصا لأقصى درجة ممكنة عبر الثقب وراح يحرك بشدة علم القدر، ووجهّت إيما بدورها الضوء على بقعة القماش الزرقاء. بدؤوا يصرخون طلباً للإغاثة وانضمت باقي المجموعة من الطرف الآخر من الغرفة إليهم ككورس جهنمي. سقط جبس من السقف. لكنهم تابعوا الصراخ، فماذا لديهم ليخسروه؟ كان هناك ضجة كبيرة فوق رؤوسهم، نوع من الانفجار، ثم لا شيء. بدؤوا يشعرون بألم في الحنجرة. ثم،

توقف الضجيج. عندها تفرقوا واحداً واحداً. بكى البعض منهم لحظة، بينما بقي الآخرون دون حراك، منهوكي القوى تماماً. حصولهم على البضع جرعات تلك من الأمل، ومن ثم تجريدهم منها، شكّل المزحة الأكثر فظاعة التي لم يسبق لهم أن عاشوها. إنها الإهانة الأخيرة.

بدأت بطارية المصباح تضعف. رأت إيما في الضوء المتأرجح رفاقها يتدحرجون ككرة، متحاشين النظر في عيون بعضهم بعضا، أيديهم مضمومة على جسدهم أو موضوعة على عيونهم. جلب مانغالام زجاجة الشراب التي بقي في قعرها بعض الكحول وجعلهم يتناقلونها. أخذ البعض منهم جرعة أو جرعتين، لكن لم يحرز هذا أي دعم يذكر. أصبح التنفس يغدو صعباً أكثر فأكثر. تذكرت إيما درساً في العلوم، عندما كانت في المدرسة. يقتل الغاز بأخذه مكان الأوكسجين بما أنه أكثر خفة. عندما سيجتاح الغاز الغرفة تماماً فسوف يختنقون ويموتون.

كان هناك الكثير من المشاكل، وكلها غير قابلة للحل.

هناك فقط ما يكفي لمتابعة قصتها.

عندما وصلتُ إلى السن الذي سأذهب فيه إلى الجامعة، اخترت الذهاب إلى تلك البعيدة عن المنزل، بالرغم من اعتراض والديّ ورغبتهما عكس ذلك. لم أكن على وفاق معهما، لم يكونا والدين مستبدين، عكس العديد من الهنود المهاجرين. لكن أردت الاستقلالية وتدبر أمري بمفردي، دون الحاجة إلى رعايتهما. لم يخطر على بالي أن وجودي كان يشكل أيضاً نوعاً من الحماية

لهما. كانت الجامعة التي اخترتها في تكساس: مكلفة، خاصة، ذات سمعة تسمح للأهل بالتباهي أنهم أرسلوا ذريتهم إليها. لكن ورقتها الوحيدة الرابحة بالنسبة لي، هي أنها كانت بعيدة عن والديّ.

شقّ على والدتي التعامل مع غيابي. فهي كانت تشكل إطاراً ممتازاً في منشأتها الخاصة، لكنها كانت تُعّرف عن نفسها بشكل خاص كأم وربة منزل. كانت فخورة في تحضير وجبة هندية باستخدام البقايا أكثر من فخرها بجذب زبون جديد. خلال الشهور الأولى في الجامعة، كانت في كل مرة تتحدث فيها معي في الهاتف تنفجر في البكاء وتصّر على أن أحكي لها عن أدق تفاصيل يومي. كان والدي يحضّها أن تتمالك نفسها، وهو من جانبه كانت تقتصر أسئلته على الضرورات القصوى ـ كيف هي صحتي، هل أتوصل لمواجهة كل أعباء هذا العمل، هل أنا بحاجة إلى المال؟ ـ وكانت بالمقابل تلائمه أجوبتي الأحادية المقطع. كان ينهي دوماً حديثه بدعابة عن صديقي الصغير المفترض ـ الدعابة نفسها كل مرة ـ بينما كانت والدتي توجه له الملامة من الهاتف الآخر. كنت سعيدة أن أكتشف أن والدي كان بالأحرى يقف إلى جانبي. كنت معجبة بهدوء أعصابه. حتى تلك اللحظة كنت أكثر قرباً منه إلى والدتي، حتى بدأت أشعر بالتغيير الحاد الحاصل.

كان السكن الطلابي مغايراً لذاك الذي للمدرسة الثانوية لكن ليس بشكل كبير. كنت أعشق الحرم الجامعي الفاخر بنباتاته الاستوائية وبطرازه الأنيق كجنوب أميركا، وغرفتي الانفرادية التي كنت أستطيع تزيينها على هواي، والمؤتمرات العلمية الصغيرة للآداب حيث كان

الأساتذة يعاملونني كراشدة، بينما لم أكن متأكدة أنـي كـذلك، والمقاهي المفتوحة حتى الساعات الأولى من الصباح، حيث يتداول الطلاب فيهـا مناقشات ثقافية حامية، والأعياد التي بمقدورنا اختيـار مسـتوى منهـا من بين ثلاث مستويات: المعتدل، العالي المستوى، والحرّيـف. لا بـد أن توصيات والدتي كانـت محفـورة في داخلـي رغمـاً عـني، فالملـذات التي سمحت فيها لنفسي لم تكن مؤذية.

ذات مساء، بعد بضعة أشـهر مـن بـدء العـام الدراسـي، اتصـل والدي. كان ذلك على خلاف عادته لعدة أسباب، لكـنـي لم أنتبـه لذلك إلا لاحقاً. فاتصالاتنا العائليـة كانـت تـتم في العـادة في عطلـة نهاية الأسبوع، عندما تكون اتصالات الهـاتف المحمـول مجانيـة، وكانت والدتي هي من تأخذ دوماً المبادرة. ثم، كانت الساعة بالكاد تتجاوز الخامسة مساءً في كاليفورنيا، وهذا يعني أن والـدي، الـذي كان يعمل حتى وقت متأخر، يتحدث من المكتب.

لم يضع الوقت في الثرثرة. قال لي فـوراً: الآن بعـد أن حصـلت على درجاتك في الجامعة، وكانت نتائجك جيدة في الفصـل الأول، أستطيع أن أخبرك. لقد قررت طلب الطلاق. لم يعد هناك أي شيء مشترك بيني وبين والدتك غيرك أنت... الآن، وبما أنك لم تعـودي بحاجة إلينا، وحلقّت بجناحيك...

– توقف قليلاً، وتساءلت ـ كما لو كنت أتعامل مع غريب ـ مـا الذي كان يشعر به، هل كان متوتراً؟.

– كل حياتي، قمت بعمل ما يريده الآخرون مني، تابع قـائلاً، أحب أن أعيش الوقت المتبقي لي كما أشاء أنا. هل لديك أسئلة؟

صُدمت من سخرية جملتـه الأخـيرة. أردت أن أضحك، لكـنـي

كنت خائفة إن أنا فعلت ألا أستطيع التوقف. لا بد وأنه استنتج من صمتي أن لا أسئلة لدي، لأنه تابع يقول: لم أقل بعد لوالدتك. وأقترح ألا تتصلي بها قبلي. سوف أقول لها هذا الأسبوع.

لاحظ أني لم أتلفظ بأي كلمة منذ بداية حديثنا فأضاف:

– أعرف أن الأمر صعب عليك، لكن حاولي أن تضعي نفسك مكاني، هل من العدل المتابعة بارتباط يدمرني؟

بينما كنت أفكر في اختيار كلمات مناسبة، قال لي إلى اللقاء، ووعدني أن يتصل بي لاحقاً كي يطلعني على مجرى الأحداث.

استلقيت على سريري وحاولت أن أفهم هذا الذي حصل، حتى أني تساءلت، في جزء من الثانية، إن لم أكن قد حلمت بهذا الحديث الهاتفي. خلال كل تلك السنين كنت متيقنة، بتلك الطريقة اللاواعية التي نلامس بها الأمور المجردة في حياتنا، أن والداي كانا يعيشان زواجاً سعيداً. فقد كانا يتشاركان بهواياتهما المشتركة ـ تعليم أولادهما، الترفيه، السفر، الذهاب إلى السينما، وأعمال البستنة ـ باستمتاع كبير. كانا يعبّران عن مشاعرهما الواحد تجاه الآخر ضمن الحدود المفروضة لثقافة منشئهما: يقبلان بعضهما في الصباح قبل التوجه إلى العمل، يلتفان حول صور العائلة، ويبدي كل منهما إعجابه بثياب الآخر الجديدة، يجلسان إلى جانب بعضهما على الكنبة كي يستمعا إلى أغاني رابندارا سانجيت، يقضيان أوقاتاً طويلة معاً في الصالون، يقلب والدي صفحات جريدة التايم، ورأسه على ركبتي والدتي، بينما هي تقرأ رواية بنغاليه وتداعب شعره.

ألم يكن هذا إذن حباً؟ وإذا لم يكن كذلك ـ وقد كنت أراهن

بحياتي على أنه حب ـ كيف بإمكانه أن يتلاشى بين يوم وليلة؟ أترى كل ما هو موجود في هذا العالم السفلي يتطاير بهذا الشكل؟ إذن بماذا يفيد أن نصبّ كل محبتنا في أمور سيكون محكوماً عليها بالاختفاء على كل الأحوال؟

بين كل هذه الأسئلة الميتافيزيقية، راحت أخرى أكثر عملية تنبثق بين الحين والآخر: هل هناك امرأة أخرى؟ وكيف سيكون رد فعل والدتي عندما سيعلن لها والدي عن هذا القرار؟ كان هذا التساؤل الأخير كلاماً مصطنّعاً، بما أني كنت أعرف مسبقاً أنها سوف لن تقدر أن تتحمل ذلك.

قضيت الليلة التالية، وتلك التي تلتها في فراشي أفكر بكل ذلك.كان لدي غرفة إفرادية، لهذا فلم يكن لدي شركاء سكن سريعي التأثر ليقلقوا على حالتي.خلال كل تلك الأيام، لم أغسل أسناني ولا حتى استحميت، ولم آكل بل اكتفيت بشرب ثلاث علب من الكوكا كانت موجودة في برادي الصغير. لم أحضر المحاضرات، فتلك التي تهتم في الذهاب كانت هي «الأنا» الأولى في أعماقي، «الأنا» القديمة التي كانت تقلق من النتائج التي يمكن أن تحصل عليها. لكن «الأنا» الجديدة، كانت تحاول أن تهز كتفيها بلا مبالاة وتشغّل التلفاز، وتبقى ساهية دون عمل شيء.رن هاتفي، نظرت إلى الرقم المسجل، كان هذا والدي، فقفلت الهاتف.

في اليوم الثالث، قاومت الرغبة في الذهاب لرؤية أساتذتي كي أقول لهم أني كنت مريضة وكي أسترجع ما فاتني من الدروس. فضلت أخذ سيارة والسير دون هدى عبر المدينة، ثم تناولت طعام الغذاء في مطعم إيطالي كنت أترصده منذ أسابيع. كان الطعام لذيذاً

كما توقعت. طلبت الكثير من الأصناف وكأساً من النبيذ، لكن عوضاً عن طلب تغليف ما تبقى من الأطعمة، أكلت كل شيء. عند عودتي إلى غرفتي، نمت بعد الظهر لوقت طويل، متخومة ومحنّطة كما أحد النبلاء الرومانيين. استيقظت على ألم في الرأس وتذكرت درسي الأسبوعي في الملاكمة والذي كان موعده هذا المساء. ترددت في تفويت هذا الدرس أيضاً. لكن بعد أن بللت رأسي بالماء البارد، وأخذت جرعة مضاعفة من الأسبرين، أصبحت جاهزة للذهاب.

كانت صالة الملاكمة في شارع كان والداي سيصنفونه على أنه رثّ، بين محلات الوشم، ومخازن الأدوات الجنسية ـ لكن يكفي التفكير بوالديّ، كنت قد افترضت أني قد توقفت عن التفكير بهما) عرفت بوجود هذه الدروس من منشور كانوا قد قدموه لي في مقهى من المقاهي، فأخذته بكل بساطة بسبب الفضول. لا أدري فعلاً ما الذي دفعني للتسجيل فيه ولا إلى العودة إليه. ربما كان هذا بسبب الاختلاف الكبير بيني وبين الطلاب الآخرين.

كنت أجد نفسي في كل مرة قرب جيري، امرأة نحيلة جداً كالمسمار، ذات شعر أحمر لم يسبق لي أبداً أن رأيت شبيهاً له. كان بالإمكان رؤية أضلاعها من فوق لباسها المطبّع كجلد النمر، والذي كانت ترتديه كل أسبوع. كانت تعمل في مخزن للثياب المستعملة. كانت دوماً متبرجة، تطلق صرخة في كل مرة كانت توجه فيها لكمة، لكن كان ينبعث منها نوع من السحر الطفولي. بحسب زاوية الضوء، كانت تبدو في الثلاثين من عمرها، لكن عندما كانت تبتسم، كانت تبدو في سن المراهقة. لم أستطع مقاومة الرغبة في تبادل الابتسامات معها، والإصغاء إليها. كانت بعد الدرس،

تحدثني بالتفصيل عن آخر خيانات صديقها، الذي كانت دوماً على وشك أن تتركه.

هذا المساء، كانت ابتسامة جيري فرحة بشكل غريب، وبينما كان الآخرون يأخذون استراحة في منتصف الجولة كي يشربوا، انحنت نحوي وهمست:

– هل تعلمين؟ لقد تركت هذا القميء!

لاحقاً، بينما كنا نبدل ثيابنا في غرفة الملابس، قالت لي:

– أنا جاهزة لمغادرة حفرة الجرذ هذه. لدي صديقة تعيش في نيويورك، قالت لي أن بإمكانها مساعدتي في إيجاد عمل، وفي استضافتي إلى الوقت الذي أجد فيه شقة. فقط لو كان لدي سيارة، لغادرت على الفور.

– أنا لدي سيارة. سمعت نفسي أقول لها ذلك. وأنا على استعداد للذهاب معك.

– حقاً! هتفت صارخة. لكن ألست في الجامعة أو شيء من هذا القبيل؟

– ليس بعد الآن.

لم يلزم لنا إلا دقائق قليلة كي نرتب التفاصيل. فهي سوف تذهب إلى المخزن حيث تعمل، غداً بعد الظهر، كي تحصل على معاشها الأخير. سأحضر أنا في السيارة في حوالي الرابعة عصراً إلى العنوان الذي أعطتني إياه. من الآن حتى ذاك الوقت سوف تجهز حقائبها وتكون جاهزة للانطلاق، وسنتقاسم مصروف البنزين.

قضيت الليل أتقلب في الفراش وأنا في إثارة قريبة من الحمى.هل كانت تلك رعشة الأمور المحظورة، أم الشعور بتحقيق انتقام جيد

الاختيار؟ عند الفجر غرقت في نوم عميق حتى أني لم أسمع صوت المنبه. كان بالكاد لدي بعض الوقت لأرمي بعض قطع الثياب في حقيبة، وأضع علبة حذاء ممتلئة بالأقراص المدمجة في السيارة. شعرت بغصة وأنا أنظر إلى غرفتي التي لم أكن قد زخرفتها إلا منذ شهرين فاتا، بملصقات للوحات انطباعية، وببساط من الباتيك[58]، وثلاث نبتات في أصص. لكن كنت حينها فتاة أخرى. في طريقي إلى جيري، توقفت عند البنك وسحبت كل ما كان في حسابي - أكثر قليلاً من ألف دولار - بقطع صغيرة. قسّمت المبلغ لحزم وخبأتها في أماكن مختلفة: في علبة القفاز، تحت السجادة قرب السائق، وفي علبة زينتي. في تلك اللحظات لم أكن جاهزة بعد للوثوق بأي شخص كان.

لكن، استعجلت لأجل لا شيء. فعندما وصلت إلى البيت التداعي حيث تستأجر جيري غرفة، لم تكن هنا. ركنت السيارة في ظل شجرة ميموزا، ورحت أحلم ببعض الأحلام المتقطعة. كانت صور أعياد الميلاد تعود إلى ذاكرتي مصحوبة دوماً بالجاتو الزهري الذي كانت والدتي تزينه بالفريز (بينما كان يقع عيد ميلادي في الشتاء) والذي كان يعتلي بفخر طاولة المطبخ. تغيرت طاولات المطبخ على مرّ السنين وبسبب تغيير الأثاث، وأصبحت أعداد الشموع تزداد أكثر فأكثر، لكن الفريز كان دوماً هنا، ذاك الفريز التي كانت والدتي تشتريه بأي سعر كان، بعد عملية بحث خرقاء في كل مخازن المدينة. ثم، كان هناك طقس الصور العائلية. كان

[58] Batik: حرير ملون.

يثبت والدي قوائم أرجل الكاميرا، يضغط على مبطئ الحركة، ويركض ليقف قربنا كي يظهر في الصورة. لاحقاً، كنا نلتف حول بعضنا بعضاً كي نشاهد الصور ونضحك على العيوب التي فيها، والتي كانت تجعلها تبدو أكثر حيوية: فمُ بقي مفتوحاً، بقعة من تلميع إظهار الصور على وجنة آخر، رأس مقطوع بسبب ضبط الصورة غير الصحيح. لكن خلال ذكرياتي المستحضرة في الحلم، لم تعد تعابير وجه والدي أبداً هي نفسها كما كانت في الأيام الخوالي، بل كان ينتظر باستعجال رواقي ذهابي إلى الجامعة، ونجاحي في امتحاناتي الأولى، كي يتركنا.

عندما خبّطت جيري على زجاج نافذة السيارة كانت غاضبة، فقد رفض مدير المبيعات في المخزن الذي تعمل فيه أن يدفع لها، لا بل لقد عنّفها لأنها استقالت دون إشعار مسبق. لهذا فقد بيّنت له أنها حالة طارئة، وصرخت بصوت أعلى من صوته. أخيراً، أعطاها نصف المبلغ المستحق، هذا الحقير، وهددها أنه سيطلب الشرطة إن لم تغادر مخزنه على الفور. لم يكن لديها سوى حقيبة واحدة لتأخذها، ستضع فيها كل ما تحتاجه، كما بعض المؤونة للطريق، من سوائل وطعام. لكن بالتأكيد لن يكون لديها المال اللازم كي تدفع حصتها من البنزين، قالت وهي تغضن أنفها بهيئة متأسفة.

قلت لها أن هذا لا يهم. وسوف أتدبر الأمر. تراءى لي أني رأيت بريقاً في نظرتها وهي تفكر بالمعنى المضمر لهذه الجملة (هل أنا غنية؟)

غابت في المنزل كي تجلب حاجياتها، وعندما عادت كانت الشمس تغرب. رمت حقيبة في صندوق السيارة، ووضعت كيساً

ورقياً كستنائي اللون عند قدميها، أمام مقعد المرافق. رأيت عنق زجاجتين تظهران من الكيس، واعتقدت أنه ويسكي أو روم. قادتني حتى البقالية حيث، كما وعدت، اشترت ما يمكن أن يقيتنا: بطاطا مقرمشة وصلصة، بسكويت، كوكا وسيفن آب، قطع ثلج داخل كيس بوليستير، وأقداح من البلاستيك.

بعد عشر دقائق من ذلك، توقفنا عند الإشارة الحمراء قبل وقت قليل من دخولنا الطريق السريع، عندما صرخت جيري:

– آه، انظري!

كان هناك شاب يحمل حقيبة بحارة واقفاً على حافة الطريق، شعره مسرح كعرف الديك ومصبوغ باللون الأزرق. كان يحمل لوحة كُتب عليها: «في الطريق نحو الشمال، مع المشاركة في تكاليف البنزين».

لم يكن لدي الوقت كي أفتح فمي فقد أنزلت جيري زجاج النافذة وسألته: إلى أين أنت تذهب؟

– وأنتما، إلى أين أنتما ذاهبتان؟

– إلى نيويورك.

– هذا يناسبني. أجاب

قلت بفتور: انتظري قليلاً.

كنت مفتونة بشعره، وقميصه الأسود المتهرئ، الذي كان يُظهر بوضوح أنه شاب، فقير ومتمرد. كان يتباهى بحلقة على شفته، وكان أكثر نحولاً من جيري. لم يسبق لي على الإطلاق أن سافرت مع أحد من أمثاله. فكرت كيف سيبدو والدي لو أنه علم بما كان يجري. التفت جيري عن مقعدها، وفتحت الباب الخلفي. تراءى

لي أنهما تبادلا نظرة تواطؤ، وتساءلت إن لم تكن جيري قد خططت لكل شيء. انتابني نوع من القلق وأنا أتخيل جثتي مرمية في خندق. لكن الإشارة كانت قد تحولت إلى اللون الأخضر، وبدأت السيارات التي خلفي في إطلاق زماميرها. رنّ هاتفي المحمول، نظرت إلى الرقم، كان هذا والدي. صعد الشاب إلى السيارة، وانطلقنا.

أخذا يشربان حتى قبل أن نخرج من المدينة، الويسكي مع الكوكا، الكثير من الويسكي مع القليل من الكوكا. لكنهما كانا يشربان بلباقة، وبتمهل. قدّمت لي جيري كأساً أسندتها بين ساقي، كنت أرتشف رشفات صغيرة من وقت لآخر. شعرت أني ثملت على الفور، لم أكن قد تناولت الطعام منذ الصباح.

اتّبعنا الطريق السريع باتجاه الشرق. بدأت أضواء مصابيح المدينة تصبح شيئاً فشيئاً أكثر ندرة، حتى اختفت نهائياً. حاذينا حقولاً من النباتات العالية جداً، ربما تكون الذرة. لم يكن هناك ضوء قمر، وبدا العالم الذي يحيط بنا قديماً، غامضاً، غير متبدل منذ عقود. لم نتجاوز تقريباً أي سيارة. قالت جيري:

– لدي شعور أننا لم نعد في تكساس.

وتسللت إلى المقعد الخلفي كي تكون بالقرب من ريبلي، هكذا قدم لنا الشاب نفسه: «أنا ريبلي...صدّقا أو لا تصدقا».

أكلا البطاطا المقرمشة وهما يتناقشان عن الأشخاص والأمكنة التي كانا يمقتانها في المدينة التي غادرناها للتو. مررت لي جيري كيساً من البطاطا، كانت جد دسمة مما جعلني أشعر بالرغبة في

القيء، أو ربما كان ذلك بسبب الكحول، فأنا لم أكن أشرب في معظم الأحيان. لاحقاً، تناهى إلى سمعي صوت حفيف أجساد بعضها مع بعض. نظرت في المرآة العاكسة، لكن بسبب العتمة، لم أستطع أن أرى أكثر من أشياء متداخلة تتحرك بشكل أخرق. شعرت بالسيارة تنجذب إلى وسط الطريق، مرة، ومرتين. ثم تساءلت ما الذي بإمكانه أن يحدث إن أنا تركتها تسير وحدها. أتراها صدمة المأساة ستعيد الوفاق بين والديَّ؟ احتفظت بهذه الفكرة في رأسي، ضمن قائمة «احتمال الممكن» ثم أخذت يميني وتوقفت. كنت بحاجة إلى فترة استراحة.

خرجنا من السيارة كي نُرّيح مثاناتنا. أصريت على احترام الفصل بين الجنسين: الفتيان على يمين الحقل، والفتيات على يساره. سخر ريبلي وجيري مني عندما فكرت أنه حقل ذرة، فهو لم يكن حقاً ذلك... خطأ آخر من طرفي. كان طرف الساق يصل حتى أكتافنا، ثقيلاً بالحبوب، لا بد وأنه القمح أو نباتات من النجيليات البرية. مرّر ريبلي يده على الساق وقال أن هذا بالتأكيد شعير. لكني لم أجد هذا الشاب أهلاً للثقة.

لاحقاً، جلسنا على غطاء المحرك، وأخذ ريبلي يلف سيجارة حشيش. كان قد سبق لي وشربت الحشيش في السهرات، لكن ليس لأكثر من نفخة أو نفختين، وأبداً لم أشربه مع الكحول. أخذت نفحة طويلة جعلتني أسعل. بيّن لي ريبلي كيف نحتفظ بالنفس في الرئتين كي نزيد من تأثيره. خلال لحظات، استلقينا على زجاج السيارة الأمامي نتأمل السماء. كانت النجوم لامعة بشكل ملحوظ. في بضع دقائق، بدأ تهتز، وضعت يدي على صدري وكان هو الآخر ينقبض

على الوتيرة ذاتها. كانت هناك يد أخرى على صدري، لكني لم أدفعها عني. أغلقت عينيّ. من وراء أجفاني رأيت الألوان تدور حول نفسها، كان لدي مشكالاً حياً في رأسي. فجأة صرخت جيري:

- هل رأيتم هذا!

فتحت عينيّ، كانت السماء ملأى بهذه الألوان التي رأيتها من وراء أجفاني. لمعان أحمر على الأخصّ لكن أيضاً أخضر وأصفر. كتمت أنفاسي، كانت ستائر من الضوء المعفّر تتطاير في الأفق، منثورة كانفجار من الألوان وكأننا في فيلم سيد الخواتم. أراد ريبلي أن يقول شيئاً ما. لكن لم يساعده لسانه. أخيراً، أفلت مجموعة من المفردات مدفوعاً بجمال السماء: «إنه فجر شمالي». بدا هذا مقبولاً. هناك الكثير من الأمور في العالم هي على ما قيل لنا في كتب الجغرافيا. تأمّلنا بانبهار الفجر، خلال بضع دقائق، أو بضع ساعات، انتهى المشهد بجعل رفيقيّ في حالة عشق، فذهبا كي يجلسا على المقعد الخلفي. دعياني لأنضمّ إليهما، فرفضت. نظرت إليّ جيري، بعينين مضمومتين، محاولة أن تتكهّن إن كان سبب رفضي هو الإهانة أو الدعوة للإصرار. لكن ريدلي قال: «دعي الأمر» وأغلق الباب.

تردد الفجر قليلاً، ومن ثم عاود انتشاره. مشيت في الحقول، كان سوق الشعير يخدش لي ظهري، وأهداب الأشواك تدغدغ لي وجنتي. سحقت السوق على مساحة لابأس بها كي أستطيع الاستلقاء على الأرض وتأمل الفجر. من حولي، كانت تتطاير رائحة عفونة الطين، ورائحة الخلد أو الجرذان، أو ربما رائحة شيء ما أكثر خفية. لم يسبق لي قط أن استلقيت على الأرض وسط الليل.

أسندت يدي وفكرت بأن البشر فعلاً مجانين لاجتيازهم العالم في محاولة لفهم قصتة. فأقدم قصة في العالم كانت هنا، تحت عظمتي كتفيّ، وفوق رأسي، كان ذلك هو السماء والأرض، وقد أعطاهما أثر الضوء ـ ليس الأحمر والأخضر اللذين رأيتهما منذ قليل، إنما تباين الألوان الذي لم أستطع أن أجد له اسماً ـ الحياة، وكشف عن أسرارهما. وغرقت في نوم عميق.

عندما استيقظت، كان الفجر قد اختفى، ولم يعد إلا مجرد أثر محمرّ في السماء، يتوهّج كما الجمر في المدفأة بعد اشتعال نار كبيرة. كانت ثيابي مبللة بالندى، وكان ذهني نقياً بشكل غريب. عدت إلى السيارة وبللت وجهي بالماء البارد المتبقي في أكياس قطع الثلج. كانت جيري وريبلي ينامان على المقعد الخلفي، متداخلين، وفمهما مفتوح. تركا أثراً لدي في الأمس، لأنهما كانا يعرفان الحياة بشكل أفضل مني... لكن كل ذلك قد انتهى. فقد حدث شيء ما بينما كنت نائمة في الحقل أنظر إلى السماء، لقد فهمت أخيراً أن ليس باستطاعتي ضبط حياة الآخرين، وأنهم بالمقابل لا يستطيعون أن يقرروا حياتي.

قمت بنصف دورة في السيارة وعدت نحو المدينة. كانت أقراصي المدمجة في الخلف، لهذا فقد أدرت المذياع على صوت منخفض كي أبقى صاحية. سمعت نشرة أخبار جاء فيها أن انفجاراً ضخماً قد حدث في معمل للمواد الكيميائية شرق المدينة. أُرسلت خمس وعشرون سيارة إطفاء للسيطرة على الحريق. أصبح الوضع من الآن وصاعداً تحت السيطرة، لكن تلقى الأشخاص الذين يقطنون قرب المعمل تعليمات تقول أن يحتفظوا بأبوابهم ونوافذهم مغلقة بشكل

جيد، وألا يشربوا ماء الصنبور حتى إشعار آخر. هذا النبأ الذي كان يشرح فجري، كان جد محبط، لكن مهما كان مصدره فقد أعطاني رقص الباليه للضوء الذي كنت قد شاهدته هذا المساء، وأنا مستلقية في الحقل هدية وهي أن الواقع لا يمكن أن يأخذ مني ما أعطى.

كنت قد وصلت تقريباً حتى مدخل المدينة. عندما استيقظ ريبلي وجيري. احتجّا بصوت عالٍ وهما يضربان الباب بقبضتهما واعتبراني مجنونة.

تحمّلت كل ذلك دون أي ردة فعل فقد كنت أنا من يمسك بالمقود على أي حال. أخذت المخرج الذي صعد منه ريبلي، وقفت عند محطة وقود وطلبت منه أن ينزل من السيارة. لابد وأن شيئاً ما كان يبدو أنه قد تغيّر في سحنتي لأنهما أطاعا الأمر دون أي كلمة. بعد كل ما جرى، لم يتحدث أحد عن الفجر.

عدت إلى مكان سكني، أخذت حماماً، وأكلت وجبة من رقائق الحبوب، ووصلت تماماً على الوقت للحصص الدرسية. لم أكن قد فوّت الكثير من الدروس، ولن يكون من الصعب عليّ أن ألحق بما فاتني. رأى أصدقائي اللون الداكن حول عيني، وخمنوا أني كنت مريضة. لكني لم أعارضهم. جمّعت المال ـ لم أكن قد صرفت حتى ولا دولار ـ وأعدته كله إلى البنك.

لاحقاً، أصغيت إلى الرسائل المتجمعة على المجيب الآلي. كان هناك اثنتا وعشرون رسالة حيث ثماني عشرة منها كانت من والدي، المرعوب أكثر فأكثر، والمقتنع بأن مكروهاً قد أصابني. عدت لأفكر بالطريقة التي حاول فيها تدمير حياتي. لكني قلت في

نفسي لا. أنا التي ذهبت لأتجاوز الحدود. وأنا التي عدت أدراجي.

عندما اتصل بي هذا المساء،فتحت الخط. سألني أين اختفيت كل هذا الوقت، أجبته بصمت بارد. لابد وأنه شعر بهذا التغيير الذي حصل لي والذي جعل جيري وريبلي يخرجان من السيارة دون أي احتجاج.

- ما قلت لكِ ذاك اليوم، أضاف، انسيه. لا أدري ما الذي حصل لي.

كان بالتأكيد يرغب في أن أعبر له عن امتناني لكني لم أحقق له هذه الرغبة.

- إنها نزوة، هذا كل شيء. علّق قائلاً.

لم أجب.

- ما أريد قوله، هو أن...

كان يتحدث بسرعة، وتصطدم الكلمات بعضها مع بعض.

- سوف لن أطلب الطلاق، أريد منكِ حتى نسيان ذاك الحديث الذي أجريناه.

لابد وأنه شعر بغموض ما يطلب مني لأنه صحح فوراً كلامه قائلاً:

- سأكون ممتناً لكِ ألا تتحدثي بالموضوع مع والدتك.

كان في صوته رجاء.

وافقت. عندما اطمأن، راح يسألني أسئلته المألوفة عن صحتي، دروسي، وضعي المالي، وأجيبه بأجوبة أحادية المقطع كعادتي. ثم أغلق الخط، مرتاحاً إلى أن الوضع الحالي أصبح تحت السيطرة.

لكن لم يعد أي شيء كما كان. لم تعد علاقتي مع والديّ هي نفسها. كنت أقود وأرى انعكاس صورتهما في المرآة العاكسة: كانا أصغر شأناً وغير مكتملين. لم تكن والدتي تعي هشاشة الارتباط الذي كانت حياتها مستندة عليه. ووالدي لم يكن يملك الشجاعة ليتبع ما تمليه عليه رغباته. لاحقاً، سوف أسامح؛ لكن حالياً يجب أن أنفصل عنهما، ربما سوف أكون مع مرّ الزمان بعيدة على كل حال. لم أكن أملك الخيار، فقد نزعت القشرة قبل أن يندمل الجرح، وبقي مكانها نقطة وردية اللون، حيث يقطر منها بعض نقاط من الدم. في اليوم الذي بدأت فيه بدوري أقيم علاقات ثنائية، حرصت أن أحتفظ بالشيء الأساسي في أعماقي، ذاك الجزء الذي كان سينهار عند والدتي إن هي علمت بخيانة والدي.

لم أفهم، حتى هذا الزلزال، حتى اليوم، أن هذا التعلّق بالجذور كان من أسوأ الخيانات، بما أني كنت أخون نفسي. حان الوقت بالنسبة لي أن أتغير.

عاد الضجيج فوق رؤوسهم، فرقعات متتالية، كما لو أن مارداً ـ مارداً ينتعل حذاءاً معدنياً ـ قرر أن يسير ويتنزه. ربما يكونون المنقذين، أو جزءاً من البناء على وشك الانهيار. لم ينهض أحد. كان فعلاً أمراً مؤلماً أن يعيشوا الأمل في كل مرة. لكن احتفظ الجميع بعيونهم مفتوحة على اتساعها. كانوا يقيسون الاحتمالات، جاهزين لقبولها. بينما إيما تحكي قصتها، غيّر البعض قليلاً من أماكنهم. جلس طارق بين جيانغ وليلي، كانت كل واحدة منهما تضع رأسها على أحد كتفيه. جاء مانغلان إلى طاولة إيما ووضع ذراعه حول مالاتي. غطت السيدة بريدشدت زوجها بشالها الأسود، فتركها

تفعل ذلك دون أي اعتراض. كاميرون، الذي وجد نفسه مستنداً على إيما بسبب كل هذه التغييرات، ربّت على ركبتها كما لو كان يقول لها «عمل جيد».

لكن الذي لم يكونوا يعرفونه، هو أن القصة لم تكن قد انتهت بعد.

أخذ مطر من الجبس بالتساقط، غطى المجموعة الصغيرة بغبار ضارب إلى اللون الرمادي، حتى أصبح الجميع يشبهون تماثيل منحوتة من نفس المواد. كانت إيما تعلم إنه لم يتبقّ أكثر من دقائق كي تجد الكلمات المناسبة لتصف كيف، بعد زمن من ذلك، عندما حصلت على شهادتها وعادت إلى كاليفونيا كي تتابع دراستها، عاد الماضي ليطفو من جديد على السطح، على شكل اتصال هاتفي. كانت تلك جيري، كان صوتها أجش وخشناً أكثر من ورق الزجاج. لم تتعرف عليها إيما، فتوجّب عليها أن تقدم نفسها.

أبلغتها جيري أنها على وشك الموت، ولم تعطها أي تفاصيل أخرى، وحتى لم تطلب منها مالاً، عكس ما اعتقدت إيما في البداية.

– هيه، قالت، هل تذكرين الفجر الذي رأيناه حين كان من المفترض أن نذهب إلى نييورك؟ كان فعلاً ذلك تصرفاً مجنوناً، هه، هه؟

وافقت إيما على كلامها.

– هل تذكرين، تابعت جيري قائلة، أنا من جعلكم تشاهدونه، حتى أنكما كنتما لن ترياه إن لم ألفت انتباهكما إليه، كنتما منتشيين تماماً.

- نعم، هذا صحيح. وافقت إيما قائلة.

- لا يصدقني الناس عندما أحكي لهم ذلك. يقولون لابد وأني كنت في الخبَل أو كنت أحلم. أو ربما كان هذا شيئاً آخر، شيء ما عادي. لكنه كان فعلاً الفجر أليس كذلك، لأنه إن لم يكن ذلك بالفعل فأنا أريد أن تقولي لي.

- نعم كان هذا الفجر.

- هل تقولين الحقيقة؟ لأن الناس تكذب عليّ كل الوقت. لقد اكتفيت. أريد على الأقل الحقيقة بهذا الأمر قبل أن أموت.

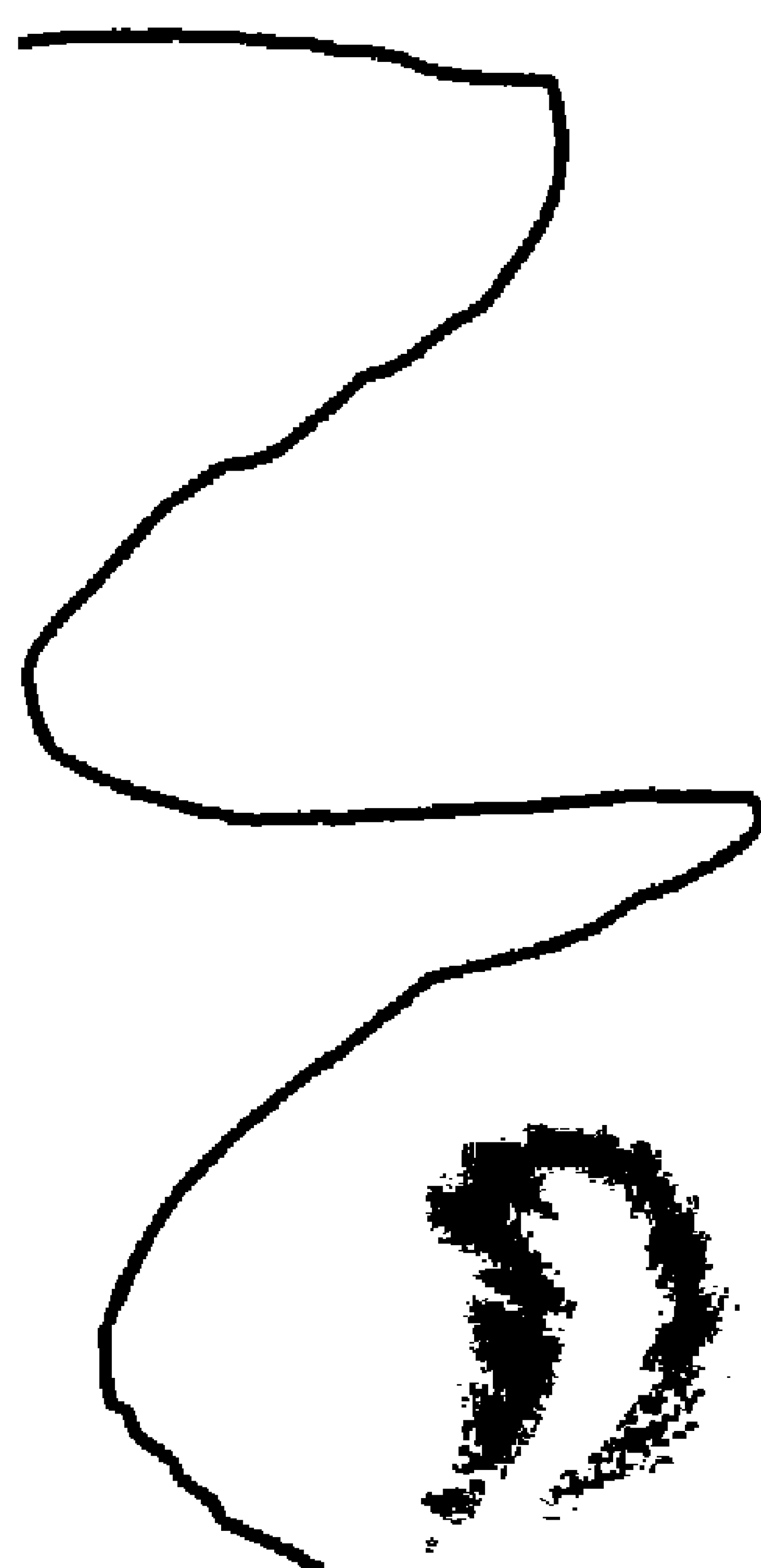
- لقد قلت لك. كان هذا فعلاً الفجر.

ضحكت جيري، ثم سعلت، بصوت فظيع ومؤلم، دون توقف. عندما استطاعت أخيراً الكلام، صرخت:

- كنت أعلم ذلك! حاول كل هؤلاء الحثالة النيل مني. لقد سررت بالتحدث إليك، لقد هدرت حياتي هدراً، قمت بفعل أشياء وأشياء والكثير من الحماقات. لكن على الأقل رأيت ذلك، ذاك الأمر الاستثنائي.

ثم أغلقت الخط. لم تعد إيما تسمع شيئاً عن أخبارها. لكنها لم تتوقف عن معاودة التفكير بذاك الليل غير الحقيقي الذي تشاطرته معها. والذي كان من غير الممكن أن تعيشه لولا ذاك الاتصال من والدها. تساءلت إن كانت قد قامت بالتصرف الجيد وهي تكذب على هذه المرأة التي لم تكن تنتظر إلا شيئاً واحداً من جانبها: أن تقول لها الحقيقة قبل أن تموت. ربما لا يعود هذا كذباً حقيقياً. ألم يكن ضوء الفجر ذاك هو السحر الذي حوّلها، وأعطاها القوة لتغيير حياتها لأنها آمنت به؟

شعرت إيما فجأة بالحاجة لتطلب رأي أشخاص آخرين. لكن القرقعة أصبحت قريبة جداً. ها هو المارد ينزل باتجاههم وبينما هم بانتظار رؤية ما الذي سيحدث، بدأت إيما تتحدث عن نهاية قصتها.



ما هي أغرب قصة جرت في حياتي؟ يتناوب تسعة أشخاص مسجونين في الطابق الأرضي للقنصلية الهندية. كيف نستطيع أن نروي هذه الحكاية عندما نكون غارقين في ظلمة حجرة سقفها مهدد بالانهيار في أي لحظة؟ نحكي حكاية لم يسبق لنا أن رويناها من قبل لأي إنسان.

قبل بضع لحظات من الآن كان الجميع غرباء بعضهم عن بعض، ومن الآن وصاعداً هم مرتبطين برباط لا مفر منه.

هذه الرواية التي تُقرأ دفعة واحدة تتأرجح بين القلق، واللهاث وراء المصيبة، وتتعقب المسار الداخلي لهؤلاء الأشخاص من ذوات الأصول المختلفة والأقدار البعيدة الواحد منهم عن الآخر. هم سجناء الكارثة، وهم في الوقت نفسه حجّاج روحيون يكتشفون فجأة وهو في سجنهم القدرة الشافية للحكايات. وفي الوقت الذي يكافحون فيه للبقاء على قيد الحياة، يكتشفون أسباباً أخرى لاستئناف العيش، في مشاركة الآخرين أجمل أو أصعب معجزة مرّت في حياته.

شيترا ديفاكاروني: روائية وشاعرة هندية، ولدت عام 1956 في كالكوتا، لتغادرها إلى الولايات المتحدة عام 1967. حصلت على شهادة الدكتوراه عام 1987، وهي قبل أن تمتهن كتابة الرواية، كانت شاعرة مشهورة لها العديد من القصائد.

الطريقة التي تعتمدها في كتابتها هي : الخيال الواقعي، الخيال التاريخي، والواقع الممزوج بالسحر والغرابة.

تُرجمت أعمالها إلى 29 لغة. في جعبتها ثماني روايات كانت "أغ
حياتك" آخرها، وقد ظهرت عام 2010.

تعتبر شيترا أن "الحياة كتاب يبقى مفتوحاً على الدوام، والريح هو من يُقلب

دال للنشر والتوزيع